سورة الإنسان

إحدى وثلاثون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ ﴾

اتفقوا على أن ﴿ هَلْ ﴾ هاهنا، وفي قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ [الغاشية: ١] بمعنى قد، كما تقول: هل رأيت صنيع فلان، وقد علمت أنه قد رآه، وتقول: هل وعظتك هل أعطيتك، ومقصودك أن تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته، وقد تجيء بمعنى الجحد، تقول: وهل يقدر أحد على مثل هذا، وأما أنها تجيء بمعنى الاستفهام فظاهر، والدليل على أنها هاهنا ليست بمعنى الاستفهام وجهان: الأول: ما روي أن الصديق رضي الله عنه لما سمع هذه الآية قال: يا ليتها كانت تمت فلا نبتلي، ولو كان ذلك استفهامًا لما قال: ليتها تمت، لأن الاستفهام، إنما يجاب بلا أو بنعم، فإذا كان المراد هو الخبر، فحينئذ يحسن ذلك الجواب، الثاني: أن الاستفهام على الله تعالى محال فلا بد من حمله على الخبر.

المسألة الأولى: اختلفوا في الإنسان المذكور هاهنا فقال جماعة من المفسرين يريد آدم عليه السلام، ومن ذهب إلى هذا قال: إن الله تعالى ذكر خلق آدم في هذه الآية ثم عقب بذكر ولده في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]، والقول الثاني: أن المراد بالإنسان بنو آدم بدليل قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ فالإنسان في الموضعين واحد، وعلى هذا التقدير يكون نظم الآية أحسن.

المسألة الثانية: ﴿ حِينٌ ﴾ فيه قولان: الأول: أنه طائفة من الزمن الطويل الممتد وغير مقدر في نفسه، والثاني: أنه مقدر بالأربعين، فمن قال: المراد بالإنسان هو آدم قال المعنى: أنه مكث آدم عليه السلام أربعين سنة طينًا إلى أن نفخ فيه الروح، وروى عن ابن عباس أنه بقي طينًا أربعين سنة وأربعين من صلصال وأربعين من حمأ مسنون فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة، فهو في هذه المدة ما كان شيئًا مذكورًا، وقال الحسن: خلق الله تعالى كل الأشياء ما يرى وما لا يرى من دواب البر والبحر في الأيام الستة التي خلق فيها السموات والأرض وآخر ما خلق آدم عليه السلام وهو قوله: ﴿ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ فإن قيل: إن الطين والصلصال والحمأ المسنون قبل نفخ الروح فيه ما كان إنسانًا، والآية تقتضي أنه قد مضى على الإنسان حال كونه إنسانًا حين من الدهر مع أنه في ذلك الحين ما كان شيئًا مذكورًا، قلنا: إن الطين والصلصال إذا كان مصورًا بصورة الإنسان ويكون محكومًا عليه بأنه سينفخ فيه الروح وسيصير إنسانًا صح تسميته بأنه إنسان،

والذين يقولون الإنسان هو النفس الناطقة، وإنها موجودة قبل وجود الأبدان، فالإشكال عنهم زائل واعلم أن الغرض من هذا التنبيه على أن الإنسان محدث، ومتى كان كذلك فلا بد من محدث قادر.

المسألة الثالثة: لم يكن شيئًا مذكورًا محله النصب على الحال من الإنسان كأنه قيل: هل أتى عليه حين من الدهر غير مذكور أو الرفع على الوصف لحين، تقديره: هل أتى على الإنسان حين لم يكن فيه شيئًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: المشج: في اللغة الخلط، يقال: مشج يمشج مشجًا إذا خلط، والأمشاج الأخلاط، قال ابن الأعرابي: واحدها مشج ومشيج، ويقال للشيء إذا خلط: مشيج كقولك: خليط وممشوج، كقولك مخلوط. قال الهذلي:

كَأَنَّ الرِّيشَ وَالْفُوقَيْنِ مِنْهُ ... خِلَافُ النَّصْلِ شَطَّ بِهِ مَشِيجُ(1)

يصف السهم بأنه قد بعد في الرمية فالتطخ ريشه وفرقاه بدم يسير، قال صاحب (الكشاف): الأمشاج لفظ مفرد، وليس يجمع بدليل أنه صفة للمفرد وهو قوله: ﴿نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ ويقال أيضًا: نطفة مشيج، ولا يصح أن يكون أمشاجًا جمعًا للمشج بل هما مثلان في الإفراد ونظيره برمة أعشار أي قطع مكسرة، وثوب أخلاق وأرض سباسب، واختلفوا في معنى كون النطفة مختلطة فالأكثرون على أنه اختلاط نطفة الرجل بنطفة المرأة كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٧] قال ابن عباس: هو اختلاط ماء الرجل وهو أبيض غليظ وماء المرأة وهو أصفر رقيق فيختلطان ويخلق الولد منهما، فما كان من عصب وعظم وقوة فمن نطفة الرجل، وما كان من لحم ودم فمن ماء المرأة، قال مجاهد: هي ألوان النطفة فنطفة الرجل بيضاء ونطفة المرأة صفراء، وقال عبد الله: أمشاجها: عروقها، وقال الحسن: يعني من نطفة مشجت بدم وهو دم الحيضة وذلك أن المرأة إذا تلقت ماء الرجل وحبلت أمسك حيضها فاختلطت النطفة بالدم، وقال قتادة: الأمشاج هو أنه يختلط الماء والدم أولاً ثم يصير علقة ثم يصير مضغة، وبالجملة فهو عبارة عن انتقال ذلك الجسم من صفة إلى صفة، ومن حال إلى حال. وقال قوم: إن الله تعالى جعل في النطفة أخلاطًا من الطبائع التي تكون في الإنسان من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، والتقدير من نطفة ذات أمشاج فحذف المضاف وتم الكلام، قال بعض العلماء: الأولى هو أن المراد اختلاط نطفة الرجل والمرأة لأن الله تعالى وصف النطفة بأنها أمشاج،

---

(١) تقدمت ترجمة الهذلي.

وهي إذا صارت علقة فلم يبق فيها وصف أنها نطفة، ولكن هذا الدليل لا يقدح في أن المراد كونها أمشاجًا من الأرض والماء والهواء والحار.

أما قوله تعالى: ﴿ نَّبْتَلِيهِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: نبتليه معناه لنبتليه، وهو كقول الرجل: جئتك أقضي حقك، أي لأقضي حقك، وأتيتك أستمنحك، أي لأستمنحك، كذا قوله: ﴿ نَّبْتَلِيهِ﴾ أي لنبتليه، ونظيره قوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦]أي لتستكثر.

المسألة الثانية: نبتليه في موضع الحال، أي خلقناه مبتلين له، يعني مريدين ابتلاءه.

المسألة الثالثة: في الآية قولان: أحدهما: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا، والمعنى فجعلناه سميعًا بصيرًا لنبتليه، والقول الثاني: أنه لا حاجة إلى هذا التغيير، والمعنى إنا خلقناه من هذه الأمشاج لا للبعث، بل للابتلاء والامتحان.

ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر، فقال: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ والسمع والبصر كنايتان عن الفهم والتمييز، كما قال تعالى حاكيًا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم: ٤٢]وأيضًا قد يراد بالسميع المطيع، كقوله سمعًا وطاعة، وبالبصير العالم يقال: فلان بصير في هذا الأمر، ومنهم من قال: بل المراد بالسمع والبصر الحاستان المعروفتان. والله تعالى خصهما بالذكر، لأنهما أعظم الحواس وأشرفها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أخبر الله تعالى أنه بعد أن ركَّبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة بين له سبيل الهدى والضلال، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: الآية دالة على أن إعطاء الحواس كالمقدم على إعطاء العقل والأمر كذلك لأن الإنسان خلق في مبدأ الفطرة خاليًا عن معرفة الأشياء، إلا أنه أعطاه آلات تعينه على تحصيل تلك المعارف، وهي الحواس الظاهرة والباطنة، فإذا أحس بالمحسوسات تنبه لمشاركات بينها ومباينات، ينتزع منها عقائد صادقة أولية، كعلمنا بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان وأن الكل أعظم من الجزء، وهذه العلوم الأولية هي آلة العقل لأن بتركيباتها يمكن التوصل إلى استعلام المجهولات النظرية، فثبت أن الحس مقدم في الوجود على العقل، ولذلك قيل: من فقد حسًّا فقد علمًا، ومن قال: المراد من كونه سميعًا بصيرًا هو العقل، قال: إنه لما بين في الآية الأولى أنه أعطاه العقل بين في هذه الآية، أنه إنما أعطاه العقل ليبين له السبيل ويظهر له أن الذي يجب فعله ما هو. والذي لا يجوز ما هو.

المسألة الثانية: السبيل هو الذي يسلك من الطريق، فيجوز أن يكون المراد بالسبيل هاهنا سبيل الخير والشر والنجاة والهلاك، ويكون معنى هديناه، أي عرفناه وبينا كيفية كل واحد منهما له، كقوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]ويكون السبيل اسمًا للجنس، فلهذا أفرد لفظه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]ويجوز أن يكون المراد بالسبيل، هو سبيل الهدى

لأنها هي الطريقة المعروفة المستحقة لهذا الاسم على الإطلاق، فأما سبيل الضلالة فإنما هي سبيل بالإضافة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] وإنما أضلوهم سبيل الهدى، ومن ذهب إلى هذا جعل معنى قوله: ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾ أي أرشدناه، وإذا أرشد لسبيل الحق، فقد نبه على تجنب ما سواها، فكان اللفظ دليلاً على الطريقين من هذا الوجه.

المسألة الثالثة: المراد من هداية السبيل خلق الدلائل، وخلق العقل الهادي وبعثة الأنبياء وإنزال الكتب، كأنه تعالى قال: خلقتك للابتلاء ثم أعطيتك كل ما تحتاج إليه ليهلك من هلك عن بينة وليس معناه خلقنا الهداية، ألا ترى أنه ذكر السبيل، فقال: ﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي أريناه ذلك.

المسألة الرابعة: قال الفراء: هديناه السبيل، وإلى السبيل وللسبيل، كل ذلك جائز في اللغة.

قوله تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: في الآية أقوال:

الأول: أن شاكرًا أو كفورًا حالان من الهاء، في هديناه السبيل، أي هديناه السبيل كونه شاكرًا وكفورًا، والمعنى أن كل ما يتعلق بهداية الله وإرشاده، فقد تم حالتي الكفر والإيمان.

والقول الثاني: أنه انتصب قوله شاكرًا وكفورًا بإضمار كان، والتقدير سواء كان شاكرًا أو كان كفورًا.

والقول الثالث: معناه إنا هديناه السبيل، ليكون إما شاكرًا وإما كفورًا أي ليتميز شكره من كفره وطاعته من معصيته كقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ﴾ [هود: ٧] وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [العنكبوت: ٣] وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١] قال القفال: ومجاز هذه الكلمة على هذا التأويل قول القائل: قد نصحت لك إن شئت فاقبل، وإن شئت فاترك، أي فإن شئت فتحذف الفاء فكذا المعنى: إنا هديناه السبيل فإما شاكرًا وإما كفورًا، فتحذف الفاء وقد يحتمل أن يكون ذلك على جهة الوعيد أي إنا هديناه السبيل فإن شاء فليكفر وإن شاء فليشكر، فإنا قد أعتدنا للكافرين كذا وللشاكرين كذا، كقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

القول الرابع: أن يكونا حالين من السبيل أي عرفناه السبيل، أي إما سبيلاً شاكرًا، وإما سبيلاً كفورًا، ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز.

واعلم أن هذه الأقوال كلها لائقة بمذهب المعتزلة.

والقول الخامس: وهو المطابق لمذهب أهل السنة، واختيار الفراء أن تكون إما هذه الآية كإما في قوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْۗ﴾ [التوبة: ١٠٦] والتقدير: إنا هديناه السبيل ثم جعلناه تارة

شاكرًا أو تارة كفورًا، ويتأكد هذا التأويل بما روي أنه قرأ أبو السمال بفتح الهمزة في ﴿أَمَّا﴾، والمعنى أما شاكرًا فبتوفيقنا وأما كفورًا فبخذلاننا، قالت المعتزلة: هذا التأويل باطل، لأنه تعالى ذكر بعد هذه الآية تهديد الكفار فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤] ولو كان كفر الكافر من الله وبخلقه لما جاز منه أن يهدده عليه، ولما بطل هذا التأويل ثبت أن الحق هو التأويل الأول وهو أنه تعالى هدى جميع المكلفين سواء آمن أو كفر، وبطل بهذا قول المجبرة أنه تعالى لم يهد الكافر إلى الإيمان، أجاب أصحابنا بأنه تعالى لما علم من الكافر أنه لا يؤمن ثم كلفه بأن يؤمن فقد كلفه بأن يجمع بين العلم بعدم الإيمان ووجود الإيمان وهذا تكليف بالجمع بين المتنافيين، فإن لم يصر هذا عذرًا في سقوط التهديد والوعيد جاز أيضًا أن يخلق الكفر فيه ولا يصير ذلك عذرًا في سقوط الوعيد وإذا ثبت هذا ظهر أن هذا التأويل هو الحق، وأن التأويل اللائق بقول المعتزلة: ليس بحق، وبطل به قول المعتزلة.

المسألة الثانية: أنه تعالى ذكر نعمه على الإنسان فابتدأ بذكر النعم الدنيوية، ثم ذكر بعده النعم الدينية، ثم ذكر هذه القسمة.

واعلم أنه لا يمكن تفسير الشاكر والكفور بمن يكون مشتغلاً بفعل الشكر وفعل الكفران وإلا لم يتحقق الحصر، بل المراد من الشاكر الذي يكون مقرًّا معترفًا بوجوب شكر خالقه عليه والمراد من الكفور الذي لا يقر بوجوب الشكر عليه، إما لأنه ينكر الخالق أو لأنه وإن كان يثبته لكنه ينكر وجوب الشكر عليه، وحينئذ يتحقق الحصر وهو أن المكلف، إما أن يكون شاكرًا وإما أن يكون كفورًا، واعلم أن الخوارج احتجوا بهذه الآية على أنه لا واسطة بين المطيع والكافر، قالوا: لأن الشاكر هو المطيع، والكفور هو الكافر، والله تعالى نفى الواسطة وذلك يقتضي أن يكون كل ذنب كفرًا، وأن يكون كل مذنب كافرًا، واعلم أن البيان الذي لخصناه يدفع هذا الإشكال، فإنه ليس المراد من الشاكر الذي يكون مشتغلاً بفعل الشكر فإن ذلك باطل طردًا وعكسًا، أما الطرد فلأن اليهودي قد يكون شاكرًا لربه مع أنه لا يكون مطيعًا لربه، والفاسق قد يكون شاكرًا لربه، مع أنه لا يكون مطيعًا لربه، وأما العكس فلأن المؤمن قد لا يكون مشتغلاً بالشكر ولا بالكفران، بل يكون ساكتًا غافلاً عنهما، فثبت أنه لا يمكن تفسير الشاكر بذلك، بل لا بد وأن يفسر الشاكر بمن يقر بوجوب الشكر والكفور بمن لا يقر بذلك، وحينئذ يثبت الحصر، ويسقط سؤالهم بالكلية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الفريقين أتبعهما بالوعيد والوعد، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الاعتداد هو إعداد الشيء حتى يكون عتيدًا حاضرًا متى احتيج إليه، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣] وأما السلاسل فتشد بها أرجلهم، وأما الأغلال فتشد بها

أيديهم إلى رقابهم، وأما السعير فهو النار التي تسعر عليهم فتوقد فيكونون حطبًا لها، وهذا من أغلظ أنواع الترهيب والتخويف.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الجحيم بسلاسلها وأغلالها مخلوقة، لأن قوله تعالى: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ إخبار عن الماضي، قال القاضي: إنه لما توعد بذلك على التحقيق صار كأنه موجود، قلنا: هذا الذي ذكرتم ترك للظاهر فلا يصار إليه إلا لضرورة.

المسألة الثالثة: قرئ (سلاسلاً) بالتنوين، وكذلك ﴿قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا﴾ [الإنسان: ١٥-١٦]ومنهم من يصل بغير تنوين، ويقف بالألف فلمن نون وصرف وجهان أحدهما: أن الأخفش قال: قد سمعنا من العرب صرف جميع مالا ينصرف، قال: وهذا لغة الشعراء لأنهم اضطروا إليه في الشعر فصرفوه، فجرت ألسنتهم على ذلك، الثاني: أن هذه الجموع أشبهت الآحاد، لأنهم قالوا صواحبات يوسف، فلما جمعوه جمع الآحاد المنصرفة جعلوها في حكمها فصرفوها، وأما من ترك الصرف فإنه جعله كقوله: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ [الحج: ٤٠]وأما إلحاق الألف في الوقف فهو كإلحاقها في قوله: ﴿الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]و﴿الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٦] و﴿السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]فيشبه ذلك بالإطلاق في القوافي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾

ثم إنه تعالى ذكر ما أعد للشاكرين الموحدين فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ الأبرار جمع بر، كالأرباب جمع رب، والقول في حقيقة البر قد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]ثم ذكر من أنواع نعيمهم صفة مشروبهم، فقال: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ يعني من إناء فيه الشراب، ولهذا قال ابن عباس ومقاتل: يريد الخمر، وفي الآية سؤالان:

السؤال الأول: أن مزج الكافور بالمشروب لا يكون لذيذًا، فما السبب في ذكره هاهنا؟ الجواب: من وجوه أحدها: أن الكافور اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده، ولكن لا يكون فيه طعمه ولا مضرته، فالمعنى أن ذلك الشراب يكون ممزوجًا بماء هذه العين، وثانيها: أن رائحة الكافور عرض فلا يكون إلا في جسم، فإذا خلق الله تلك الرائحة في جرم ذلك الشراب سمي ذلك الجسم كافورًا، وإن كان طعمه طيبًا، وثالثها: أي بأس في أن يخلق الله تعالى الكافور في الجنة لكن من طعم طيب لذيذ، ويسلب عنه ما فيه من المضرة؟ ثم إنه تعالى يمزجه بذلك المشروب، كما أنه تعالى سلب عن جميع المأكولات والمشروبات ما معها في الدنيا من المضار.

السؤال الثاني: ما فائدة كان في قوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾؟ الجواب: منهم من قال: إنها زائدة، والتقدير من كأس مزاجها كافورًا، وقيل: بل المعنى كان مزاجها في علم الله، وحكمه كافورًا.

قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: إن قلنا: الكافور اسم النهر كان عينًا بدلاً منه، وإن شئت نصبت على المدح، والتقدير أعني عينًا، أما إن قلنا: إن الكافور اسم لهذا الشيء المسمى بالكافور كان عينًا بدلاً من محل من كأس على تقدير حذف مضاف، كأنه قيل: يشربون خمرًا خمر عين، ثم حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

المسألة الثانية: قال في الآية الأولى: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ [الإنسان: ٥] وقال هاهنا: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، فذكر هناك من وهاهنا الباء، والفرق أن الكأس مبدأ شربهم وأول غايته. وأما العين فبها يمزجون شرابهم فكأن المعنى: يشرب عباد الله بها الخمر، كما تقول: شربت الماء بالعسل.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ عام فيفيد أن كل عباد الله يشربون منها، والكفار بالاتفاق لا يشربون منها، فدل على أن لفظ عباد الله مختص بأهل الإيمان، إذا ثبت هذا فقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] لا يتناول الكفار بل يكون مختصًا بالمؤمنين، فيصير تقدير الآية ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر، فلا تدل الآية على أنه تعالى لا يريد كفر الكافر.

قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ معناه يفجرونها حيث شاءوا من منازلهم تفجيرًا سهلاً لا يمتنع عليهم واعلم أنه سبحانه لما وصف ثواب الأبرار في الآخرة شرح أعمالهم التي بها استوجبوا ذلك الثواب.

فالأول قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الإيفاء بالشيء هو الإتيان به وافيًا، أما النذر فقال أبو مسلم: النذر كالوعد، إلا أنه إذا كان من العباد فهو نذر، وإن كان من الله تعالى فهو وعد، واختص هذا اللفظ في عرف الشرع بأن يقول لله عليَّ كذا وكذا من الصدقة، أو يعلق ذلك بأمر يلتمسه من الله تعالى مثل أن يقول: إن شفى الله مريضي، أو رد غائبي فعليَّ كذا كذا، واختلفوا فيما إذا علق ذلك بما ليس من وجوه البر، كما إذا قال: إن دخل فلان الدار فعليَّ كذا، فمن الناس من جعله كاليمين، ومنهم من جعله من باب النذر، إذا عرفت هذا، فنقول للمفسرين في تفسير الآية أقوال: أولها: أن المراد من النذر هو النذر فقط، ثم قال الأصم: هذا مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات. لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه كان بما أوجبه الله عليه أوفى، وهذا التفسير في غاية الحسن، وثانيها: المراد بالنذر هاهنا كل ما وجب عليه سواء وجب بإيجاب الله تعالى ابتداء أو بأن أوجبه المكلف على نفسه فيدخل فيه الإيمان وجميع الطاعات، وذلك لأن النذر معناه الإيجاب، وثالثها: قال الكلبي: المراد من النذر العهد والعقد، ونظيره قوله تعالى:

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠]فسمى فرائضه عهدًا، وقال: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١] سماها عقودًا لأنهم عقدوها على أنفسهم باعتقادهم الإيمان.

المسألة الثانية: هذه الآية دالة على وجوب الوفاء بالنذر، لأنه تعالى عقبه بيخافون يومًا وهذا يقتضي أنهم إنما وفوا بالنذر خوفًا من شر ذلك اليوم، والخوف من شر ذلك اليوم لا يتحقق إلا إذا كان الوفاء به واجبًا، وتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] وبقوله: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ [الحج: ٢٩]فيحتمل ليوفوا أعمال نسكهم التي ألزموها أنفسهم.

المسألة الثالثة: قال الفراء: وجماعة من أرباب المعاني. (كان) في قوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥]زائدة وأما هاهنا فكان محذوفة، والتقدير كانوا يوفون بالنذر. ولقائل أن يقول: إنا بينا أن كان في قوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ [الإنسان: ٥]ليست بزائدة، وأما في هذه الآية فلا حاجة إلى إضمارها، وذلك لأنه تعالى ذكر في الدنيا أن الأبرار يشربون أي سيشربون، فإن لفظ المضارع مشترك بين الحال والاستقبال، ثم قال: السبب في ذلك الثواب الذي سيجدونه أنهم الآن يوفون بالنذر.

النوع الثاني: من أعمال الأبرار التي حكاها الله تعالى عنهم قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾.

واعلم أن تمام الطاعة لا يحصل إلا إذا كانت النية مقرونة بالعمل، فلما حكى عنهم العمل وهو قوله: ﴿يُوفُونَ﴾ حكى عنهم النية وهو قوله: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا﴾ وتحقيقه قوله عليه السلام: «**إنما الأعمال بالنيات**» وبمجموع هذين الأمرين سماهم الله تعالى بالأبرار.

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: أحوال القيامة وأهوالها كلها فعل الله، وكل ما كان فعلاً لله فهو يكون حكمة وصوابًا، وما كان كذلك لا يكون شرًّا، فكيف وصفها الله تعالى بأنها شر؟ الجواب: أنها إنما سميت شرًّا لكونها مضرة بمن تنزل عليه وصعبة عليه، كما تسمى الأمراض وسائر الأمور المكروهة شرورًا.

السؤال الثاني: ما معنى المستطير؟ الجواب: فيه وجهان أحدهما: الذي يكون فاشيًا منتشرًا بالغًا أقصى المبالغ، وهو من قولهم: استطار الحريق، واستطار الفجر وهو من طار بمنزلة استنفر من نفر، فإن قيل: كيف يمكن أن يقال: شر ذلك اليوم مستطير منتشر، مع أنه تعالى قال في صفة أوليائه: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، قلنا: الجواب من وجهين الأول: أن هول القيامة شديد، ألا ترى أن السموات تنشق وتنفطر وتصير كالمهل، وتتناثر الكواكب، وتتكور الشمس والقمر، وتفزع الملائكة، وتبدل الأرض غير الأرض، وتنسف الجبال، وتسجر البحار وهذا الهول عام يصل إلى كل المكلفين على ما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ

مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢] وقال: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧] إلا أنه تعالى بفضله يؤمن أولياءه من ذلك الفزع، والجواب الثاني: أن يكون المراد أن شر ذلك اليوم يكون مستطيرًا في العصاة والفجار. وأما المؤمنون فهم آمنون، كما قال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] إلا أن أهل العقاب في غاية الكثرة بالنسبة إلى أهل الثواب، فأجرى الغالب مجرى الكل على سبيل المجاز.

القول الثاني: في تفسير المستطير أنه الذي يكون سريع الوصول إلى أهله، وكأن هذا القائل ذهب إلى أن الطيران إسراع.

السؤال الثالث: لم قال: ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾، ولم يقل: وسيكون شره مستطيرًا؟ الجواب: اللفظ وإن كان للماضي، إلا أنه بمعنى المستقبل، وهو كقوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ [الأحزاب: ١٥] ويحتمل أن يكون المراد أنه كان شره مستطيرًا في علم الله وفي حكمته، كأنه تعالى يعتذر ويقول: إيصال هذا الضرر إنما كان لأن الحكمة تقتضيه، وذلك لأن نظام العالم لا يحصل إلا بالوعد والوعيد، وهما يوجبان الوفاء به، لاستحالة الكذب في كلامي، فكأنه تعالى يقول: كان ذلك في الحكمة لازمًا، فلهذا السبب فعلته.

النوع الثالث: من أعمال الأبرار:

قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾

اعلم أن مجامع الطاعات محصورة في أمرين التعظيم لأمر الله تعالى، وإليه الإشارة بقول: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧] والشفقة على خلق الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: لم يذكر أحد من أكابر المعتزلة، كأبي بكر الأصم وأبي علي الجبائي وأبي القاسم الكعبي، وأبي مسلم الأصفهاني، والقاضي عبد الجبار بن أحمد في تفسيرهم أن هذه الآيات نزلت في حق علي بن أبي طالب عليه السلام، والواحدي من أصحابنا ذكر في كتاب (البسيط) أنها نزلت في حق علي عليه السلام، وصاحب (الكشاف) من المعتزلة ذكر هذه القصة، فروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَرِضَا فَعَادَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُنَاسٍ مَعَهُ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْحَسَنِ لَوْ نَذَرْتَ عَلَى وَلَدِكَ، فَنَذَرَ عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَفِضَّةُ جَارِيَةٌ لَهُمَا، إِنْ شَفَاهُمَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَصُومُوا ثَلَاثَةَ أَيَّام فَشُفِيَا وَمَا مَعَهُمْ شَيْءٌ فَاسْتَقْرَضَ عَلِيٌّ مِنْ شَمْعُونَ الْخَيْبَرِيِّ الْيَهُودِيِّ ثَلَاثَةَ أَصْوُعٍ مِنْ شَعِيرٍ فَطَحَنَتْ فَاطِمَةُ صَاعًا وَاخْتَبَزَتْ خَمْسَةَ أَقْرَاصٍ عَلَى عَدَدِهِمْ وَوَضَعُوهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لِيُفْطِرُوا، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ

سَائِلٌ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ، مِسْكِينٌ مِنْ مَسَاكِينِ الْمُسْلِمِينَ أَطْعِمُونِي أَطْعَمَكُمُ اللَّهُ مِنْ مَوَائِدِ الْجَنَّةِ فَآثَرُوهُ وَبَاتُوا وَلَمْ يَذُوقُوا إِلاَّ الْمَاءَ وَأَصْبَحُوا صَائِمِينَ، فَلَمَّا أَمْسَوْا وَوَضَعُوا الطَّعَامَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَقَفَ عَلَيْهِمْ يَتِيمٌ فَآثَرُوهُ وَجَاءَهُمْ أَسِيرٌ فِي الثَّالِثَةِ، فَفَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَخَذَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِيَدِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ وَدَخَلُوا عَلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلما أبصرهم وَهُمْ يَرْتَعِشُونَ كَالْفِرَاخِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ قَالَ: مَا أَشَدَّ مَا يَسُوءُنِي مَا أَرَى بِكُمْ وَقَامَ فَانْطَلَقَ مَعَهُمْ فَرَأَى فَاطِمَةَ فِي مِحْرَابِهَا قَدِ الْتَصَقَ بَطْنُهَا بِظَهْرِهَا وَغَارَتْ عَيْنَاهَا فَسَاءَهُ ذَلِكَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ: خُذْهَا يَا مُحَمَّدُ هَنَّاكَ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِكَ فَأَقْرَأَهَا السُّورَةَ»[(١)] والأولون يقولون: إنه تعالى ذكر في أول السورة أنه إنما خلق الخلق للابتلاء والامتحان، ثم بيَّن أنه هدى الكل وأزاح عللهم ثم بيَّن أنهم انقسموا إلى شاكر وإلى كافر ثم ذكر وعيد الكافر ثم أتبعه بذكر وعد الشاكر فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾ [الإنسان: ٥] وهذه صيغة جمع فتتناول جميع الشاكرين والأبرار، ومثل هذا لا يمكن تخصيصه بالشخص الواحد، لأن نظم السورة من أولها إلى هذا الموضع يقتضي أن يكون هذا بيانًا لحال كل من كان من الأبرار والمطيعين، فلو جعلناه مختصًّا بشخص واحد لفسد نظم السورة، والثاني: أن الموصوفين بهذه الصفات مذكورون بصيغة الجمع كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾ . . . و﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ﴾ . . . ﴿وَيُطْعِمُونَ﴾ [الإنسان: ٥، ٧، ٨] وهكذا إلى آخر الآيات فتخصيصه بجمع معينين خلاف الظاهر، ولا ينكر دخول علي بن أبي طالب عليه السلام فيه، ولكنه أيضًا داخل في جميع الآيات الدالة على شرح أحوال المطيعين، فكما أنه داخل فيها فكذا غيره من أتقياء الصحابة والتابعين داخل فيها، فحينئذ لا يبقى للتخصيص معنى ألبتة، اللهم إلا أن يقال: السورة نزلت عند صدور طاعة مخصوصة عنه، ولكنه قد ثبت في أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

المسألة الثانية: الذين يقولون: هذه الآية مختصة بعلي بن أبي طالب عليه السلام، قالوا: المراد من قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ هو ما رويناه أنه عليه السلام أطعم المسكين واليتيم والأسير، وأما الذين يقولون الآية عامة في حق جميع الأبرار (فَإِنَّهُمْ) قالوا: إطعام الطعام كناية عن الإحسان إلى المحتاجين والمواساة معهم بأي وجه كان، وإن لم يكن ذلك بالطعام بعينه، ووجه ذلك أن أشرف أنواع الإحسان هو الإحسان بالطعام وذلك لأن قوام الأبدان بالطعام ولا حياة إلا به، وقد يتوهم إمكان الحياة مع فقد ما سواه، فلما كان الإحسان لا جرم عبر به عن جميع وجوه المنافع والذي يقوي ذلك أنه يعبر بالأكل عن جميع وجوه المنافع، فيقال: أكل فلان ماله إذا أتلفه في سائر وجوه الإتلاف، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ

---

(١) أورده ابن كثير في (البداية والنهاية) (٥/ ٢٥١) وقال: فقد ذكر ابن الأثير في أسد الغابة أنها كانت مولاة لفاطمة بنت رسول الله ﷺ، ثم أورد بإسناد مظلم عن محبوب بن حميد البصري، عن القاسم بن بهرام، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس. . . فذكره.

ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[النساء: ١٠] وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[البقرة: ١٨٨] إذا ثبت هذا فنقول: إن الله تعالى وصف هؤلاء الأبرار بأنهم يواسون بأموالهم أهل الضعف والحاجة، وأما قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ ففيه وجهان أحدهما: أن يكون الضمير للطعام أي مع اشتهائه والحاجة إليه ونظيره ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[البقرة: ١٧٧] ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢] فقد وصفهم الله تعالى بأنهم يؤثرون غيرهم على أنفسهم على ما قال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩] والثاني: قال الفضيل بن عياض على حب الله أي لحبهم لله: واللام قد تقام مقام على، وكذلك تقام على مقام اللام، ثم إنه تعالى ذكر أصناف من تجب مواساتهم، وهم ثلاثة أحدهم: المسكين وهو العاجز عن الاكتساب بنفسه والثاني: اليتيم وهو الذي مات كاسبه فيبقى عاجزًا عن الكسب لصغره مع أنه مات كاسبه والثالث: الأسير وهو المأخوذ من قومه المملوكة رقبته الذي لا يملك لنفسه نصرًا ولا حيلة، وهؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى هاهنا هم الذين ذكرهم في قوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[البلد: ١١-١٦] وقد ذكرنا اختلاف الناس في المسكين قبل هذا، أما الأسير فقد اختلفوا فيه على أقوال: أحدها: قال ابن عباس والحسن وقتادة: إنه الأسير من المشركين، روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يبعث الأسارى من المشركين ليحفظوا وليقام بحقهم، وذلك لأنه يجب إطعامهم إلى أن يرى الإمام رأيه فيهم من قتل أو مَنٍّ أو فداء أو استرقاق، ولا يمتنع أيضًا أن يكون المراد هو الأسير كافرًا كان أو مسلمًا، لأنه إذا كان مع الكفر يجب إطعامه فمع الإسلام أولى، فإن قيل: لما وجب قتله فكيف يجب إطعامه؟ قلنا: القتل في حال لا يمنع من الإطعام في حال أخرى، ولا يجب إذا عوقب بوجه أن يعاقب بوجه آخر، ولذلك لا يحسن فيمن يلزمه القصاص أن يفعل به ما هو دون القتل ثم هذا الإطعام على من يجب؟ فنقول: الإمام يطعمه فإن لم يفعله الإمام وجب على المسلمين، وثانيها: قال السدي: الأسير هو المملوك، وثالثها: الأسير هو الغريم قال عليه السلام: «غَرِيمُكَ أَسِيرُكَ فَأَحْسِنْ إِلَى أَسِيرِكَ»(١) ورابعها: الأسير هو المسجون من أهل القبلة وهو قول مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير، وروى ذلك مرفوعًا من طريق الخدري أنه عليه السلام قال: ﴿مِسْكِينًا﴾ فقيرًا ﴿وَيَتِيمًا﴾ لا أب له ﴿وَأَسِيرًا﴾ قال: المملوك المسجون، وخامسها: الأسير هو الزوجة لأنهن أسراء عند الأزواج، قال عليه الصلاة والسلام: «**اتَّقُوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان**»(٢) قال القفال: واللفظ يحتمل كل ذلك لأن الأصل في الأسر هو الشد بالقيد،

---

(١) لم أجده في كتب التفسير بدون إسناد والله أعلم.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الحج) باب (حجة النبي ﷺ) (٢/ ١٤٧/ ٨٨٦) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة وإسحاق بن إبراهيم... به وأبو داود في كتاب (المناسك) باب (صفة حج النبي ﷺ) (٢/ ١٨٩) حديث رقم (١٩٠٥) من طريق عبد الله بن محمد النفيلي وعثمان ابن أبي شيبة... به وابن ماجه في كتاب (المناسك) باب (حجة=

وكان الأسير يفعل به ذلك حبسًا له، ثم سمي بالأسير من شد ومن لم يشد فعاد المعنى إلى الحبس.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن الأبرار يحسنون إلى هؤلاء المحتاجين بين أن لهم فيه غرضين أحدهما: تحصيل رضا الله. وهو المراد من قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ والثاني: الاحتراز من خوف يوم القيامة وهو المراد من قوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾، وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون هؤلاء الأبرار قد قالوا: هذه الأشياء باللسان، إما لأجل أن يكون ذلك القول منعًا لأولئك المحتاجين عن المجازاة بمثله أو بالشكر، لأن إحسانهم مفعول لأجل الله تعالى فلا معنى لمكافأة الخلق، وإما أن يكون لأجل أن يصير ذلك القول تفقيهًا وتنبيهًا على ما ينبغي أن يكون عليه من أخلص لله حتى يقتدي غيرهم بهم في تلك الطريقة، وثانيها: أن يكونوا أرادوا أن يكون ذلك، وثالثها: أن يكون ذلك بيانًا وكشفًا عن اعتقادهم وصحة نيتهم وإن لم يقولوا شيئًا. وعن مجاهد أنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله تعالى منهم فأثنى عليهم.

المسألة الثانية: اعلم أن الإحسان من الغير تارة يكون لأجل الله تعالى، وتارة يكون لغير الله تعالى إما طلبًا لمكافأة أو طلبًا لحمد وثناء وتارة يكون لهما وهذا هو الشرك والأول هو المقبول عند الله تعالى، وأما القسمان الباقيان فمردودان قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وقال: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩] ولا شك أن التماس الشكر من جنس المن والأذى. إذا عرفت هذا فنقول: القوم لما قالوا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ بقي فيه احتمال أنه أطعمه لوجه الله ولسائر الأغراض على سبيل التشريك، فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾.

المسألة الثالثة: الشكور والكفور مصدران كالشكر والكفر، وهو على وزن الدخول والخروج، هذا قول جماعة أهل اللغة، وقال الأخفش: إن شئت جعلت الشكور جماعة الشكر وجعلت الكفور جماعة الكفر لقول: ﴿فَأَبَىٰ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩] مثل بُرْد وبُرُود وإن شئت مصدرًا واحدًا في معنى جمع مثل قَعَد قُعُودًا وخرَج خُرُوجًا.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لإرادة مكافأتكم، والثاني: أنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله

=النبي ﷺ (٢/ ١٠٢٢) حديث رقم (٣٠٧٤) من طريق هشام بن عمار... به والدارمي في كتاب (المناسك) باب (في سنة الحج) (١/ ٥٠٠) حديث رقم (٣٠٧٤) وابن خزيمة في (صحيحه) (٢٦٨٧/ ٢٨٠٢/ ٢٨١٢) من طريق عبد الله بن محمد النفيلي... به جميعًا عن حاتم بن إسماعيل... به وأحمد في (مسنده) (٥/ ٧٢) من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي حرة الرقاشي عن عمه... به.

على طلب المكافأة بالصدقة، فإن قيل: إنه تعالى حكى عنهم الإيفاء بالنذر وعلل ذلك بخوف القيامة فقط، ولما حكى عنهم الإطعام علل ذلك بأمرين بطلب رضاء الله وبالخوف عن القيامة فما السبب فيه؟ قلنا: الإيفاء بالنذر دخل في حقيقة طلب رضاء الله تعالى، وذلك لأن النذر هو الذي أوجبه الإنسان على نفسه لأجل الله فلما كان كذلك لا جرم ضم إليه خوف القيامة فقط، أما الإطعام، فإنه لا يدخل في حقيقة طلب رضا الله، فلا جرم ضم إليه طلب رضا الله وطلب الحذر من خوف القيامة.

المسألة الخامسة: وصف اليوم بالعبوس مجازًا على طريقتين: أحدهما: أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء كقولهم: نهارك صائم، روي أن الكافر يحبس حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران، والثاني: أن يشبه في شدته وضراوته بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل.

المسألة السادسة: قال الزجاج: جاء في التفسير أن قمطريرًا معناه تعبيس الوجه، فيجتمع ما بين العينين، قال: وهذا سائغ في اللغة يقال: اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها ورمت بأنفها يعني أن معنى قمطر في اللغة جمع، وقال الكلبي: قمطريرًا يعني شديدًا وهو قول الفراء وأبي عبيدة والمبرد وابن قتيبة، قالوا: يوم قمطرير، وقماطر إذا كان صعبًا شديدًا أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء، قال الواحدي: هذا معنى والتفسير هو الأول.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم أتوا بالطاعات لغرضين طلب رضا الله والخوف من القيامة بين في هذه الآية أنه أعطاهم هذين الغرضين، أما الحفظ من هول القيامة، فهو المراد بقوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ وسمى شدائدها شرًّا توسعًا على ما علمت، واعلم أن هذه الآية أحد ما يدل على أن شدائد الآخرة لا تصل إلا إلى أهل العذاب، وأما طلب رضاء الله تعالى فأعطاهم بسببه نضرة في الوجه وسرورًا في القلب، وقد مر تفسير ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ في قوله: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً﴾[الفرقان: ٧٥] وتفسير النضرة في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٣] والتنكير في ﴿وَسُرُورًا﴾ للتعظيم والتفخيم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ والمعنى وجزاهم بصبرهم على الإيثار وما يؤدي إليه من الجوع والعري، بستانًا فيه مأكل هنيء وحريرًا فيه ملبس بهي، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[الحج: ٢٣] أقول: وهذا يدل على أن المراد من قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾[الإنسان: ٩] ليس هو الإطعام فقط بل جميع أنواع المواساة من الطعام والكسوة، ولما ذكر تعالى طعامهم ولباسهم، وصف مساكنهم، ثم إن المعتبر في المساكن أمور:

أحدها: الموضع الذي يجلس فيه فوصفه بقوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي السرر في

الحجال، ولا تكون أريكة إلا إذا اجتمعت، وفي نصب ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ وجهان الأول: قال الأخفش: إنه نصب على الحال، والمعنى وجزاهم جنة في حال اتكائهم كما تقول: جزاهم ذلك قيامًا، والثاني: قال الأخفش: وقد يكون على المدح.

والثاني: هو المسكن فوصفه بقوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ وفيه وجهان: أحدهما: أن هواءها معتدل في الحر والبرد، والثاني: أن الزمهرير هو القمر في لغة طيء هكذا رواه ثعلب وأنشد:

وَلَيْلَةٍ ظَلامُهَا قَدِ اعْتَكَرْ قَطَعْتُهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرْ

والمعنى أن الجنة ضياء فلا يحتاج فيها إلى شمس وقمر.

قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾

والثالث: كونه بستانًا نزهًا، فوصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ وفي الآية سؤالان الأول: ما السبب في نصب ﴿وَدَانِيَةً﴾؟ الجواب: ذكر الأخفش والكسائي والفراء والزجاج فيه وجهين أحدهما: الحال بالعطف على قوله: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾[الإنسان: ١٣] كما تقول في الدار: عبدالله متكئًا ومرسلة عليه الحجال، لأنه حيث قال: عليهم رجع إلى ذكرهم، والثاني: الحال بالعطف على محل: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[الإنسان: ١٣] والتقدير غير رائين فيها شمسًا ولا زمهريرًا ودانية عليهم ظلالها ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين يجتمعان لهم، كأنه قيل: وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والبرد، ودنو الظلال عليهم، والثالث: أن يكون دانية نعتًا للجنة، والمعنى: وجزاهم جنة دانية، وعلى هذا الجواب تكون دانية صفة لموصوف محذوف، كأنه قيل: وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا، وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها، وذلك لأنهم وعدوا جنتين، وذلك لأنهم خافوا بدليل قوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾[الإنسان: ١٠] وكل من خاف فله جنتان، بدليل قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦] وقرئ: (وَدَانِيَةٌ) بالرفع على أن ﴿ظِلَالُهَا﴾ مبتدأ و(دَانِيَةٌ) خبر، والجملة في موضع الحال، والمعنى: لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا والحال أن ظلالها دانية عليهم.

السؤال الثاني: الظل إنما يوجد حيث توجد الشمس، فإن كان لا شمس في الجنة فكيف يحصل الظل هناك؟ والجواب: أن المراد أن أشجار الجنة تكون بحيث لو كان هناك شمس لكانت تلك الأشجار مظللة منها.

قوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ ذكروا في ذللت وجهين الأول: قال ابن قتيبة: ذللت أدنيت منهم من قولهم: حائط ذليل إذا كان قصير السمك، والثاني: ظللت أي جعلت منقادة ولا تمتنع على قطافها كيف شاءوا. قال البراء بن عازب: ذللت لهم فهم يتناولون منها كيف شاءوا، فمن أكل قائمًا لم يؤذه ومن أكل جالسًا لم يؤذه ومن أكل مضطجعًا لم يؤذه.

واعلم أنه تعالى لما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف بعد ذلك شرابهم وقدم عليه وصف تلك الأواني التي فيها يشربون فقال:

قوله تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ ﴾

في الآية سؤالات:

السؤال الأول: قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١] والصحاف هي القصاع، والغالب فيها الأكل فإذا كان ما يأكلون فيه ذهبًا فما يشربون فيه أولى أن يكون ذهبًا لأن العادة أن يتنوق في إناء الشرب مالا يتنوق في إناء الأكل وإذا دلت هذه الآية على أن إناء شربهم يكون من الذهب فكيف ذكر هاهنا أنه من الفضة والجواب: أنه لا منافاة بين الأمرين فتارة يسقون بهذا وتارة بذاك.

السؤال الثاني: ما الفرق بين الآنية والأكواب؟ الجواب: قال أهل اللغة: الأكواب الكيزان التي لا عرى لها، فيحتمل أن يكون على معنى أن الإناء يقع فيه الشرب كالقدح، والكوب ما صب منه في الإناء كالإبريق.

السؤال الثالث: ما معنى ﴿كَانَتْ﴾؟ الجواب: هو من يكون في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] أي تكونت قوارير بتكوين الله تفخيمًا لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين.

السؤال الرابع: كيف تكون هذه الأكواب من فضة ومن قوارير؟ الجواب: عنه من وجوه أحدها: أن أصل القوارير في الدنيا الرمل وأصل قوارير الجنة هو فضة الجنة فكما أن الله تعالى قادر على أن يقلب الرمل الكثيف زجاجة صافية، فكذلك هو قادر على أن يقلب فضة الجنة قارورة لطيفة، فالغرض من ذكر هذه الآية، التنبيه على أن نسبة قارورة الجنة إلى قارورة الدنيا كنسبة فضة الجنة إلى رمل الدنيا، فكما أنه لا نسبة بين هذين الأصلين، فكذا بين القارورتين في الصفاء واللطافة وثانيها: قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء وإذا كان كذلك فكمال الفضة في بقائها ونقائها وشرفها إلا أنه كثيف الجوهر، وكمال القارورة في شفافيتها وصفائها إلا أنه سريع الانكسار، فآنية الجنة آنية يحصل فيها من الفضة بقاؤها ونقاؤها، وشرف جوهرها، ومن القارورة، صفاؤها وشفافيتها، وثالثها: أنها تكون فضة ولكن لها صفاء القارورة، ولا يستبعد من قدرة الله تعالى الجمع بين هذين الوصفين، ورابعها: أن المراد بالقوارير في الآية ليس هو الزجاج، فإن العرب تسمي ما استدار من الأواني التي تجعل فيها الأشربة ورقّ وصَفَا قارورة، فمعنى الآية وأكواب من فضة مستديرة صافية رقيقة.

السؤال الخامس: كيف القراءة في ﴿قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا﴾؟ الجواب: قرئا غير منونين وبتنوين الأول وبتنوينهما، وهذا التنوين بدل عن ألف الإطلاق لأنه فاصلة، وفي الثاني لإتباعه الأول لأن الثاني

بدل من الأول فيتبع البدل المبدل، وقرئ: (قَواريرُ من فِضَّةٍ) بالرفع على هي قوارير، وقدروها صفة لقوارير من فضة.

أما قوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال المفسرون: معناه: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ على قدر ريهم لا يزيد ولا ينقص من الري ليكون ألذ لشربهم، وقال الربيع بن أنس: إن تلك الأواني تكون بمقدار ملء الكف لم تعظم فيثقل حملها.

المسألة الثانية: أن منتهى مراد الرجل في الآنية التي يشرب منها الصفاء والنقاء والشكل. أما الصفاء فقد ذكره الله تعالى بقوله: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾ وأما النقاء فقد ذكره بقوله: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾، وأما الشكل فقد ذكره بقوله: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾.

المسألة الثالثة: المقدر لهذا التقدير من هو؟ فيه قولان: الأول: أنهم هم الطائفون الذين دل عليهم قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ وذلك أنهم قدروا شرابها على قدر ري الشارب، والثاني: أنهم هم الشاربون وذلك لأنهم إذا اشتهوا مقدارًا من المشروب جاءهم على ذلك القدر.

قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما وصف أواني مشروبهم ذكر بعد ذلك وصف مشروبهم، فقال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾.

العرب كانوا يحبون جعل الزنجبيل في المشروب، لأنه يحدث فيه ضربًا من اللذع، فلما كان كذلك وصف الله شراب أهل الجنة بذلك، ولا بد وأن تكون في الطيب على أقصى الوجوه. قال ابن عباس: وكل ما ذكره الله تعالى في القرآن مما في الجنة، فليس منه في الدنيا إلا الاسم، وتمام القول هاهنا مثل ما ذكرناه في قوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[الإنسان: ٥].

قوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن الأعرابي: لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن، فعلى هذا لا يعرف له اشتقاق، وقال الأكثرون: يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل أي عذب سهل المساغ، وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية، ودلت على غاية السلاسة، قال الزجاج: السلسبيل في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة، والفائدة في ذكر السلسبيل هو أن ذلك الشراب يكون في طعم الزنجبيل، وليس فيه لذعة لأن نقيض اللذع هو السلاسة، وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب عليه السلام أن معناه: سل سبيلاً إليها، وهو بعيد إلا أن يراد أن جملة قول القائل: سلسبيلا جعلت علمًا للعين، كما قيل: تأبط شرًا، وسميت بذلك، لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلاً بالعمل الصالح.

المسألة الثانية: في نصب ﴿عَيْنًا﴾ وجهان: أحدهما: أنه بدل من زنجبيلاً، وثانيهما: أنه

نصب على الاختصاص.

المسألة الثالثة: سلسبيلاً صرف لأنه رأس آية، فصار كقوله ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠] و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وقد تقدم في هذه السورة بيان ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

واعلم أنه تعالى ذكر بعد ذلك من يكون خادمًا في تلك المجالس. فقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ وقد تقدم تفسير هذين الوصفين في سورة الواقعة والأقرب أن المراد به دوام كونهم على تلك الصورة التي لا يراد في الخدم أبلغ منها، وذلك يتضمن دوام حياتهم وحسنهم ومواظبتهم على الخدمة الحسنة الموافقة، قال الفراء: يقال مخلدون مسورون ويقال: مُقَرَّطون. وروى نفطويه عن ابن الأعرابي مخلدون مُحلَّون.

والصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ وفي كيفية التشبيه وجوه: أحدها: شبهوا في حسنهم وصفاء ألوانهم وانتشارهم في مجالسهم ومنازلهم عند اشتغالهم بأنواع الخدمة باللؤلؤ المنثور، ولو كان صفًا لشبهوا باللؤلؤ المنظوم، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ فإذا كانوا يطوفون كانوا متناثرين، وثانيها: أنهم شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا انتثر من صدفه لأنه أحسن وأكثر ماء، وثالثها: قال القاضي: هذا من التشبيه العجيب لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقًا يكون أحسن في المنظر لوقوع شعاع بعضه على البعض فيكون مخالفًا للمجتمع منه.

واعلم أنه تعالى لما ذكر تفصيل أحوال أهل الجنة، أتبعه بما يدل على أن هناك أمورًا أعلى وأعظم من هذا القدر المذكور فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿رَأَيْتَ﴾ هل له مفعول؟ فيه قولان: الأول: قال الفراء: المعنى وإذا رأيت ما ثم وصلح إضمار ما كما قال: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] يريد ما بينكم، قال الزجاج: لا يجوز إضمار ما لأن ثَّم صلة وما موصولها، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة، الثاني: أنه ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر والغرض منه أن يشيع ويعم، كأنه قيل: وإذا وجدت الرؤية ثم، ومعناه أن بصر الرائي أينما وقع لم يتعلق إدراكه إلا بنعيم كثير وملك كبير، و﴿ثَمَّ﴾ في موضع النصب على الظرف يعني في الجنة.

المسألة الثانية: اعلم أن اللذات الدنيوية محصورة في أمور ثلاثة: قضاء الشهوة، وإمضاء الغضب، واللذة الخيالية التي يعبر عنها بحب المال والجاه، وكل ذلك مستحقر فإن الحيوانات الخسيسة قد تشارك الإنسان في واحد منها، فالملك الكبير الذي ذكره الله هاهنا لا بد وأن يكون مغايرًا لتلك اللذات الحقيرة، وما هو إلا أن تصير نفسه منتقشة بقدس الملكوت متحلية بجلال حضرة اللاهوت، وأما ما هو على أصول المتكلمين، فالوجه فيه أيضًا أنه الثواب والمنفعة

المقرونة بالتعظيم فبيَّن تعالى في الآيات المتقدمة تفصيل تلك المنافع وبيَّن في هذه الآية حصول التعظيم وهو أن كل واحد منهم يكون كالملك العظيم، وأما المفسرون فمنهم من حمل هذا الملك الكبير على أن هناك منافع أزيد مما تقدم ذكره، قال ابن عباس: لا يقدر واصف يصف حسنه ولا طيبه. ويقال: إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ويرى أقصاه كما يرى أدناه، وقيل: لا زوال له وقيل: إذا أرادوا شيئًا حصل، ومنهم من حمله على التعظيم. فقال الكلبي: هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولي الله وهو في منزله فيستأذن عليه، ولا يدخل عليه رسول رب العزة من الملائكة المقربين المطهرين إلا بعد الاستئذان.

المسألة الثالثة: قال بعضهم قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ خطاب لمحمد خاصة، والدليل عليه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أرأيت إن دخلت الجنة أترى عيناي ما ترى عيناك؟ فقال نعم، فبكى حتى مات [1]، وقال آخرون: بل هو خطاب لكل أحد.

قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وحمزة: (عَالِيهِمْ) بإسكان الياء، والباقون بفتح الياء أما القراءة الأولى: فالوجه فيها أن يكون عاليهم مبتدأ، وثياب سندس خبره، والمعنى ما يعلوهم من لباسهم ثياب سندس، فإن قيل: عاليهم مفرد، وثياب سندس جماعة، والمبتدأ إذا كان مفردًا لا يكون خبره جمعًا، قلنا: المبتدأ، وهو قوله: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ وإن كان مفردًا في اللفظ، فهو جمع في المعنى، نظيره قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٧، ٦٨] كأنه أفرد من حيث جعل بمنزلة المصدر، أما القراءة الثانية: وهي فتح الياء، فذكروا في هذا النصب ثلاثة أوجه الأول: أنه نصب على الظرف، لأنه لما كان عالي بمعنى فوق أجرى مجراه في هذا الإعراب، كما كان قوله: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢] كذلك وهو قول أبي علي

---

(١) إسناده ضعيف: أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (٣/ ٦٦) حديث رقم (٨٦٢) والطبراني في (الكبير) (١٢/ ٤٣٦) حديث رقم (١٣٥٩٥) وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٣/ ٣١٩) والطبراني في (الأوسط) حديث رقم (٤٧٧٤) وقال: لا يروي عن ابن عمر إلا بهذا الإسناد تفرد به عفيف جميعًا من طريق عفيف بن سالم عن أيوب بن عتبة عن عطاء عن ابن عمر قال . . . فذكره وأورده السيوطي في (اللآلئ المصنوعة) (١/ ٤٠٩) وقال: قال ابن حبان: باطل لا أصل له وأيوب فاحش الخطأ (قلت) لم يتهم بكذب بل ثقة أحمد في رواية قال العجلي يكتب حديثه والحديث أخرجه الطبراني حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا محمد بن عمار الموصلي حدثنا عفيف بن سالم به وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن الطبراني وقال غريب من حديث عطاء تفرد به عفيف عن أيوب وكان عفيف أحد العباد والزهاد عن أهل الموصل وكان الثوري يسميه الياقوتة وأيوب بن عتبة ضعيف وقاله ابن حجر في تقريب التهذيب.

الفارسي، والثاني: أنه نصب على الحال، ثم هذا أيضًا يحتمل وجوهًا أحدها: قال أبو علي الفارسي: التقدير: ولقاهم نضرة وسرورًا حال ما يكون عاليهم ثياب سندس، وثانيها: التقدير: وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا حال ما يكون عاليهم ثياب سندس، وثالثها: أن يكون التقدير: ويطوف على الأبرار ولدان، حال ما يكون الأبرار عاليهم ثياب سندس، ورابعها: حسبتهم لؤلؤًا منثورًا، حال ما يكون عاليهم ثياب سندس، فعلى الاحتمالات الثلاثة الأول: تكون الثياب ثياب الأبرار، وعلى الاحتمال الرابع تكون الثياب ثياب الولدان، الوجه الثالث: في سبب هذا النصب، أن يكون التقدير: رأيت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب سندس.

المسألة الثانية: قرأ نافع وعاصم: (خُضْرٌ وإِسْتبرقٌ)، كلاهما بالرفع، وقرأ الكسائي وحمزة: كلاهما بالخفض، وقرأ ابن كثير: خضرٍ بالخفض، وإستبرقٌ بالرفع، وقرأ أبو عمرو وعبدالله بن عامر: خُضرٌ بالرفع، واستبرقٍ بالخفض، وحاصل الكلام فيه أن خضرًا يجوز فيه الخفض والرفع، أما الرفع فإذا جعلتها صفة لثياب، وذلك ظاهر لأنها صفة مجموعة لموصوف مجموع، وأما الخفض فإذا جعلتها صفة سندس، لأن سندس أريد به الجنس، فكان في معنى الجمع، وأجاز الأخفش وصف اللفظ الذي يراد به الجنس بالجمع، كما يقال: أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض إلا أنه قال: إنه قبيح، والدليل على قبحه أن العرب تجيء بالجمع الذي هو في لفظ الواحد فيجرون مجرى الواحد وذلك قولهم: حصى أبيض وفي التنزيل ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ [يس: ٨٠] و﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] إذ كانوا قد أفردوا صفات هذا الضرب من الجمع، فالواحد الذي في معنى الجمع أولى أن تفرد صفته، وأما إستبرق فيجوز فيه الرفع والخفض أيضًا معًا، أما الرفع فإذا أريد به العطف على الثياب، كأنه قيل: ثياب سُندسٍ وإستبرقٌ وأما الخفض فإذا أريد إضافة الثياب إليه كأنه قيل: ثِيابُ سُنْدسٍ وإستبرقٍ، والمعنى ثيابهما فأضاف الثياب إلى الجنسين كما يقال: ثيابُ خزٍّ وكِتانٍ، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١] واعلم أن حقائق هذه الآية قد تقدمت في سورة الكهف.

المسألة الثالثة: السندس ما رق من الديباج، والاستبرق ما غلظ منه، وكل ذلك داخل في اسم الحرير قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] ثم قيل: إن الذين هذا لباسهم هم الولدان المخلدون، وقيل: بل هذا لباس الأبرار، وكأنهم يلبسون عدة من الثياب فيكون الذي يعلوها أفضلها، ولهذا قال: ﴿عَالِيَهُمْ﴾ وقيل هذا من تمام قوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ [الإنسان: ١٣] ومعنى ﴿عَالِيَهُمْ﴾ أي فوق حجالهم المضروبة عليهم ثياب سندس، والمعنى أن حجالهم من الحرير والديباج.

قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾: **وفيه سؤالات:**

السؤال الأول: قال تعالى في سورة الكهف: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] فكيف جعل تلك الأساور هاهنا من فضة؟ **والجواب:** من ثلاثة أوجه

أحدها: أنه لا منافاة بين الأمرين فلعلهم يسورون بالجنسين إما على المعاقبة أو على الجمع كما تفعل النساء في الدنيا، وثانيها: أن الطباع مختلفة فرب إنسان يكون استحسانه لبياض الفضة فوق استحسانه لصفرة الذهب، فالله تعالى يعطي كل أحد ما تكون رغبته فيه أتم، وميله إليه أشد، وثالثها: أن هذه الأسورة من الفضة إنما تكون للولدان الذين هم الخدم وأسورة الذهب للناس.

السؤال الثاني: السوار إنما يليق بالنساء وهو عيب للرجال، فكيف ذكر الله تعالى ذلك في معرض الترغيب؟ الجواب: أهل الجنة جرد مرد شباب فلا يبعد أن يحلوا ذهبًا وفضة وإن كانوا رجالاً، وقيل: هذه الأسورة من الفضة والذهب إنما تكون لنساء أهل الجنة وللصبيان فقط، ثم غلب في اللفظ جانب التذكير، وفي الآية وجه آخر، وهو أن آلة أكثر الأعمال هي اليد وتلك الأعمال والمجاهدات هي التي يتوسل بها إلى تحصيل المعارف الإلهية والأنوار الصمدية، فتكون تلك الأعمال جارية مجرى الذهب والفضة التي يتوسل بهما إلى تحصيل المطالب، فلما كانت تلك الأعمال صادرة من اليد كانت تلك الأعمال جارية مجرى سوار الذهب والفضة، فسميت الأعمال والمجاهدات بسوار الذهب والفضة، وعبر عن تلك الأنوار الفائضة عن الحضرة الصمدية بقوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ وبالجملة فقوله: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فهذا احتمال خطر بالبال، والله أعلم بمراده.

قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ الطهور فيه قولان: الأول: المبالغة في كونه طاهرًا، ثم فيه على هذا التفسير احتمالات أحدها: أنه لا يكون نجسًا كخمر الدنيا، وثانيها: المبالغة في البعد عن الأمور المستقذرة يعني ما مسته الأيدي الوضرة، وما داسته الأقدام الدنسة، وثالثها: أنها لا تؤول إلى النجاسة لأنها ترشح عرقًا من أبدانهم له ريح كريح المسك، القول الثاني: في الطهور أنه المطهر، وعلى هذا التفسير أيضًا في الآية احتمالان: أحدهما: قال مقاتل: هو عين ماء على باب الجنة تنبع من ساق شجرة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش وحسد، وما كان في جوفه من قذر وأذى، وثانيهما: قال أبو قلابة: يؤتون الطعام والشراب فإذا كان في آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور، فيشربون فتطهر بذلك بطونهم، ويفيض عرق من جلودهم مثل ريح المسك، وعلى هذين الوجهين يكون الطهور مطهرًا لأنه يطهر باطنهم عن الأخلاق الذميمة، والأشياء المؤذية، فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ هو عين ما ذكر تعالى قبل ذلك من أنهم يشربون من عين الكافور، والزنجبيل، والسلسبيل أو هذا نوع آخر؟ قلنا: بل هذا نوع آخر، ويدل عليه وجوه أحدها: دفع التكرار، وثانيها: أنه تعالى أضاف هذا الشراب إلى نفسه، فقال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وذلك يدل على فضل في هذا دون غيره، وثالثها: ما روينا أنه تقدم إليهم الأطعمة والأشربة، فإذا فرغوا منها أتوا بالشراب الطهور فيشربون، فيطهر

ذلك بطونهم، ويفيض عرقًا من جلودهم مثل ريح المسك، وهذا يدل على أن هذا الشراب مغاير لتلك الأشربة، ولأن هذا الشراب يهضم سائر الأشربة، ثم له مع هذا الهضم تأثير عجيب، وهو أنه يجعل سائر الأطعمة والأشربة عرقًا يفوح منه ريح كريح المسك، وكل ذلك يدل على المغايرة، ورابعها: وهو أن الروح من عالم الملائكة، والأنوار الفائضة من جواهر أكابر الملائكة، وعظمائهم على هذه الأرواح مشبهة بالماء العذب الذي يزيل العطش ويقوي البدن، وكما أن العيون متفاوتة في الصفاء والكثرة والقوة، فكذا ينابيع الأنوار العلوية مختلفة، فبعضها تكون كافورية على طبع البرد واليبس، ويكون صاحبها في الدنيا في مقام الخوف والبكاء والانقباض، وبعضها تكون زنجبيلية على طبع الحر واليبس، فيكون صاحب هذه الحالة قليل الالتفات إلى ما سوى الله تعالى قليل المبالاة بالأجسام والجسمانيات، ثم لا تزال الروح البشرية منتقلة من ينبوع إلى ينبوع، ومن نور إلى نور، ولا شك أن الأسباب والمسببات متناهية في ارتقائها إلى واجب الوجود الذي هو النور المطلق جل جلاله وعز كماله، فإذا وصل إلى ذلك المقام وشرب من ذلك الشراب انهضمت تلك الأشربة المتقدمة، بل فنيت، لأن نور ما سوى الله تعالى يضمحل في مقابلة نور الله وكبريائه وعظمته، وذلك هو آخر سير الصديقين، ومنتهى درجاتهم في الارتقاء والكمال، فلهذا السبب ختم الله تعالى ذكر ثواب الأبرار على قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما تمم شرح أحوال السعداء، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

اعلم أن في الآية وجهين الأول: قال ابن عباس: المعنى أنه يقال لأهل الجنة بعد دخولهم فيها، ومشاهدتهم لنعيمها: إن هذا كان لكم جزاء قد أعده الله تعالى لكم إلى هذا الوقت، فهو كله لكم بأعمالكم على قلة أعمالكم، كما قال حاكيًا عن الملائكة: إنهم يقولون لأهل الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤] وقال: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] والغرض من ذكر هذا الكلام أن يزداد سرورهم، فإنه يقال للمعاقب: هذا بعملك الرديء فيزداد غمه وألم قلبه، ويقال للمثاب: هذا بطاعتك، فيكون ذلك تهنئة له وزيادة في سروره، والقائل بهذا التفسير جعل القول مضمرًا، أي ويقال لهم: هذا الكلام، الوجه الثاني: أن يكون ذلك إخبارًا من الله تعالى لعباده في الدنيا، فكأنه تعالى شرح جواب أهل الجنة، أن هذا كان في علمي وحكمي جزاء لكم يا معاشر عبادي، لكم خلقتها، ولأجلكم أعددتها، وبقي في الآية سؤالان:

السؤال الأول: إذا كان فعل العبد خلقًا لله، فكيف يعقل أن يكون فعل الله جزاء على فعل الله؟ الجواب: الجزء هو الكافي، وذلك لا ينافي كونه فعلاً لله تعالى.

السؤال الثاني: كون سعي العبد مشكورًا لله يقتضي كون الله شاكرًا له، والجواب: كون الله تعالى شاكرًا للعبد محال إلا على وجه المجاز، وهو من ثلاثة أوجه الأول: قال القاضي: إن الثواب مقابل لعملهم، كما أن الشكر مقابل للنعم، الثاني: قال القفال: إنه مشهور في كلام الناس، أن يقولوا: للراضي بالقليل والمثني به إنه شكور، فيحتمل أن يكون شكر الله لعباده هو رضاه عنهم بالقليل من الطاعات، وإعطاؤه إياهم عليه ثوابًا كثيرًا، الوجه الثالث: أن منتهى درجة العبد أن يكون راضيًا من ربه مرضيًا لربه على ما قال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[الفجر: ٢٧-٢٨] وكونها راضية من ربه، أقل درجة من كونها مرضية لربه، فقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ إشارة إلى الأمر الذي به تصير النفس راضية من ربه وقوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ إشارة إلى كونها مرضية لربه، ولما كانت هذه الحال أعلى المقامات وآخر الدرجات لا جرم وقع الختم عليها في ذكر مراتب أحوال الأبرار والصديقين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

اعلم أنه سبحانه بيَّن في أول السورة أن الإنسان وجد بعد العدم بقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[الإنسان: ١] ثم بيَّن أنه سبحانه خلقه من أمشاج، والمراد منه إما كونه مخلوقًا من العناصر الأربعة أو من الأخلاط الأربعة أو من ماء الرجل والمرأة أو من الأعضاء والأرواح أو من البدن والنفس أو من أحوال متعاقبة على ذلك الجسم مثل كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظامًا، وعلى أي هذه الوجوه تحمل هذه الآية، فلذلك يدل على أنه لا بد من الصانع المختار جل جلاله وعظم كبرياؤه. ثم بيَّن بعد ذلك أني ما خلقته ضائعًا عاطلاً باطلاً، بل خلقته لأجل الابتلاء والامتحان، وإليه الإشارة بقوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾[الإنسان: ٢] وهاهنا موضع الخصومة العظيمة القائمة بين أهل الجبر والقدر، ثم ذكر تعالى أني أعطيته جميع ما يحتاج إليه عند الابتلاء والامتحان، وهو السمع والبصر والعقل، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[الإنسان: ٢] ولما كان العقل أشرف الأمور المحتاج إليها في هذا الباب أفرده عن السمع والبصر، فقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾[الإنسان: ٣] ثم بيَّن أن الخلق بعد هذه الأحوال صاروا قسمين: منهم شاكر، ومنهم كفور، وهذا الانقسام باختيارهم كما هو تأويل القدرية، أو من الله على ما هو تأويل الجبرية، ثم إنه تعالى ذكر عذاب الكفار على الاختصار، ثم ذكر بعد ذلك ثواب المطيعين على الاستقصاء، وهو إلى قوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[الإنسان: ٢٢] واعلم أن الاختصار في ذكر العقاب مع الإطناب في شرح الثواب يدل على أن جانب الرحمة أغلب وأقوى، فظهر مما بينا أن السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان أحوال الآخرة، ثم إنه تعالى شرع بعد ذلك في أحوال الدنيا، وقدم شرح أحوال المطيعين على شرح أحوال المتمردين. أما المطيعون فهم الرسول وأمته، والرسول هو الرأس والرئيس، فلهذا خص الرسول بالخطاب. واعلم أن الخطاب إما النهي وإما

الأمر، ثم إنه تعالى قبل الخوض فيما يتعلق بالرسول من النهي والأمر، قدم مقدمة في تقوية قلب الرسول ﷺ، وإزالة الغم والوحشة عن خاطره، وإنما فعل ذلك، لأن الاشتغال بالطاعة والقيام بعهدة التكليف لا يتم إلا مع فراغ القلب ثم بعد هذه المقدمة ذكر نهيه عن بعض الأشياء، ثم بعد الفراغ عن النهي، ذكر أمره ببعض الأشياء، وإنما قدم النهي على الأمر، لأن دفع الضرر أهم من جلب النفع، وإزالة مالا ينبغي مقدم على تحصيل ما ينبغي، ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك أحوال المتمردين والكفار على ما سيأتي تفصيل بيانه، ومن تأمل فيما ذكرناه علم أن هذه السورة، وقعت على أحسن وجوه الترتيب والنظام، فالحمد لله الذي نور عقل هذا المسكين الضعيف بهذه الأنوار، وله الشكر عليه أبد الآباد.

ولنرجع إلى التفسير، فنقول: أما تلك المقدمة فهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ واعلم أن المقصود من هذه الآية تثبيت الرسول وشرح صدره فيما نسبوه إليه من كهانة وسحر، فذكر الله تعالى أن ذلك وحي من الله، فلا جرم بالغ وكرر الضمير بعد إيقاعه اسمًا، لأن تأكيدًا على تأكيد أبلغ، كأنه تعالى يقول: إن كان هؤلاء الكفار يقولون: إن ذلك كهانة، فأنا الله الملك الحق أقول على سبيل التأكيد والمبالغة إن ذلك وحي حق وتنزيل صدق من عندي.

وهذا فيه فائدتان:

إحداهما: إزالة الوحشة المتقدمة الحاصلة بسبب طعن أولئك الكفار، فإن بعض الجهال وإن طعنوا فيه إلا أن جبار السموات عظمه وصدقه.

والثانية: تقويته على تحمل التكليف المستقبل، وذلك لأن الكفار كانوا يبالغون في إيذائه، وهو كان يريد مقاتلتهم فلما أمره الله تعالى بالصبر على ذلك الإيذاء وترك المقاتلة، وكان ذلك شاقًا عليه، فقال له: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ فكأنه قال له: إني ما نزلت عليك هذا القرآن مفرقًا منجمًا إلا لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين، ولقد اقتضت تلك الحكمة تأخير الإذن في القتال، فاصبر لحكم ربك الصادر عن الحكمة المحضة المبرأ عن العيب والعبث والباطل.

ثم إنه تعالى لما قدم هذه المقدمة ذكر النهي فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾

فإما أن يكون المعنى: فاصبر لحكم ربك في تأخير الإذن في القتال ونظيره ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] أو يكون المعنى عامًّا في جميع التكاليف، أي فاصبر في كل ما حكم به ربك سواء كان ذلك تكليفًا خاصًّا بك من العبادات والطاعات أو متعلقًا بالغير وهو التبليغ وأداء الرسالة، وتحمل المشاق الناشئة من ذلك، **ثم في الآية سؤالات:**

السؤال الأول: قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ دخل فيه أن ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ فكأن ذكره بعد هذا تكريرًا. الجواب: الأول أمر بالمأمورات، والثاني نهى عن المنهيات ودلالة أحدهما على الآخر بالالتزام لا بالتصريح فيكون التصريح به مفيدًا.

السؤال الثاني: أنه عليه السلام ما كان يطيع أحدًا منهم، فما الفائدة في هذا النهي؟ الجواب: المقصود بيان أن الناس محتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد، لأجل ما تركب فيهم من الشهوات الداعية إلى الفساد، وأن أحدًا لو استغنى عن توفيق الله وإمداده وإرشاده، لكان أحق الناس به هو الرسول المعصوم، ومتى ظهر ذلك عرف كل مسلم، أنه لا بد له من الرغبة إلى الله والتضرع إليه في أن يصونه عن الشبهات والشهوات.

السؤال الثالث: ما الفرق بين الآثم والكفور؟ الجواب: الآثم هو المقدم على المعاصي أي معصية كانت، والكفور هو الجاحد للنعمة، فكل كفور آثم، وليس كل آثم كفورًا، وإنما قلنا: إن الآثم عام في المعاصي كلها لأنه تعالى قال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] فسمى الشرك إثمًا، وقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وقال ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠] وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩] فدلت هذه الآيات على أن هذا الإثم شامل لكل المعاصي، واعلم أن كل من عبد غير الله فقد اجتمع في حقه هذان الوصفان، لأنه لما عبد غيره، فقد عصاه وجحد إنعامه، إذا عرفت هذا فنقول في الآية قولان: الأول: أن المراد شخص معين، ثم منهم من قال: الآثم، والكفور هو شخص واحد وهو أبو جهل، ومنهم من قال: الآثم هو الوليد والكفور هو عتبة، قال القفال: ويدل عليه أنه تعالى سمى الوليد أثيمًا في قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم: ١٠- ١٢] وروى صاحب الكشاف أن الآثم هو عتبة. والكفور هو الوليد لأن عتبة كان ركابًا للمآثم متعاطيًا لأنواع الفسوق والوليد كان غاليًا في الكفر، والقول الأول أولى لأنه متأيد بالقرآن، يروى أن عتبة بن ربيعة قال للنبي ﷺ: ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ولدي فإني من أجمل قريش ولدًا، وقال الوليد: أنا أعطيك من المال حتى ترضى، فإني من أكثرهم مالاً، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ عشر آيات من أول حم السجدة إلى قوله ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] فانصرفا عنه وقال أحدهما ظننت أن الكعبة ستقع علي(١). القول الثاني: أن الآثم والكفور مطلقان غير مختصين بشخصين معينين، وهذا هو الأقرب إلى الظاهر، ثم قال الحسن: الآثم هو المنافق والكفور مشركوا العرب، وهذا ضعيف بل الحق ما ذكرناه من أن الآثم عام والكفور خاص.

السؤال الرابع: كانوا كلهم كفرة، فما معنى القسمة في قوله: ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾؟ الجواب:

---

(١) لم أجده.

﴿ ٱلۡكَفُورَ﴾ أخبث أنواع الآثم، فخصه بالذكر تنبيهًا على غاية خبثه ونهاية بعده عن الله.

السؤال الخامس: كلمة (أو) تقتضي النهي عن طاعة أحدهما فلم لم يذكر الواو حتى يكون نهيًا عن طاعتهما جميعًا؟ الجواب: ذكروا فيه وجهين: الأول: وهو الذي ذكره الزجاج واختاره أكثر المحققين أنه لو قيل: ولا تطعهما لجاز أن يطيع أحدهما لأن النهي عن طاعة مجموع شخصين لا يقتضي النهي عن طاعة كل واحد منهما وحده، أما النهي عن طاعة أحدهما فيكون نهيًا عن طاعة مجموعهما لأن الواحد داخل في المجموع، ولقائل أن يقول: هذا ضعيف، لأن قوله: لا تطع هذا وهذا معناه كن مخالفًا لأحدهما، ولا يلزم من إيجاب مخالفة أحدهما إيجاب مخالفتهما معًا، فإنه لا يبعد أن يقول السيد لعبده: إذا أمرك أحد هذين الرجلين فخالفه، أما إذا توافقا فلا تخالفهما. والثاني: قال الفراء: تقدير الآية لا تطع منهم أحدًا سواء كان آثمًا أو كفورًا كقول الرجل لمن يسأله شيئًا: لا أعطيك سواء سألت أو سكت.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا النهي عقبه بالأمر، فقال: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾، **وفي هذه الآية قولان:**

الأول: أن المراد هو الصلاة قالوا: لأن التقييد بالبكرة والأصيل يدل على أن المراد من قوله: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ الصلوات. ثم قالوا: البكرة هي صلاة الصبح والأصيل صلاة الظهر والعصر ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ المغرب والعشاء، فتكون هذه الكلمات جامعة الصلوات الخمس وقوله: ﴿ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ المراد منه التهجد، ثم اختلفوا فيه فقال بعضهم: كان ذلك من الواجبات على الرسول عليه السلام، ثم نسخ كما ذكرنا في سورة المزمل واحتجوا عليه بأن قوله: ﴿ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ﴾ أمر وهو للوجوب لا سيما إذا تكرر على سبيل المبالغة، وقال آخرون: بل المراد التطوع وحكمه ثابت.

القول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية ليس هو الصلاة بل المراد التسبيح الذي هو القول والاعتقاد، والمقصود أن يكون ذاكرًا لله في جميع الأوقات ليلاً ونهارًا بقلبه ولسانه، وهو المراد من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

واعلم أن في الآية لطيفة أخرى وهي أنه تعالى قال: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٣] أي هديناك إلى هذه الأسرار، وشرحنا صدرك بهذه الأنوار، وإذ قد فعلنا بك ذلك فكن منقادًا مطيعًا لأمرنا، وإياك وأن تكون منقادًا مطيعًا لغيرنا، ثم لما أمره بطاعته، ونهاه عن طاعة غيره قال: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ وهذا إشارة إلى أن العقول البشرية ليس عندها إلا معرفة

الأسماء والصفات، أما معرفة الحقيقة فلا، فتارة يقال له: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ وهو إشارة إلى معرفة الأسماء، وتارة يقال له: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وهو إشارة إلى مقام الصفات، وأما معرفة الحقيقة المخصوصة التي هي المستلزمة لسائر اللوازم السلبية والإضافية، فلا سبيل لشيء من الممكنات والمحدثات، إلى الوصول إليها والاطلاع عليها، فسبحان من اختفى عن العقول لشدة ظهوره واحتجب عنها بكمال نوره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما خاطب رسوله بالتعظيم والنهي والأمر عدل إلى شرح أحوال الكفار والمتمردين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ والمراد أن الذي حمل هؤلاء الكفار على الكفر، وترك الالتفات والإعراض عما ينفعهم في الآخرة ليس هو الشبهة حتى ينتفعوا بالدلائل المذكورة في أول هذه السورة، بل الشهوة والمحبة لهذه اللذات العاجلة والراحات الدينية، **وفي الآية سؤالان:**

السؤال الأول: لم قال: ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ ولم يقل: قدامهم؟ الجواب: من وجوه أحدها: لما لم يلتفتوا إليه، وأعرضوا عنه فكأنهم جعلوه وراء ظهورهم، وثانيها: المراد: ويذرون وراءهم مصالح يوم ثقيل فأسقط المضاف، وثالثها: أن وراء تستعمل بمعنى قدام كقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦] ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩].

السؤال الثاني: ما السبب في وصف يوم القيامة بأنه يوم ثقيل؟ الجواب: استعير الثقل لشدته وهوله، من الشيء الثقيل الذي يتعب حامله ونحوه ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ثم إنه تعالى لما ذكر أن الداعي لهم إلى هذا الكفر حب العاجل، قال: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.

والمراد أن حبهم للعاجلة يوجب عليهم طاعة الله من حيث الرغبة ومن حيث الرهبة، أما من حيث الرغبة فلأنه هو الذي خلقهم وأعطاهم الأعضاء السليمة التي بها يمكن الانتفاع باللذات العاجلة، وخلق جميع ما يمكن الانتفاع به، فإذا أحبوا اللذات العاجلة، وتلك اللذات لا تحصل إلا عند حصول المنتفع وحصول المنتفع به، وهذان لا يحصلان إلا بتكوين الله وإيجاده، فهذا مما يوجب عليهم الانقياد لله ولتكاليفه وترك التمرد والإعراض، وأما من حيث الرهبة فلأنه قادر على أن يميتهم، وعلى أن يسلب النعمة عنهم، وعلى أن يلقيهم في كل محنة وبلية، فلأجل من فوت هذه اللذات العاجلة يجب عليهم أن ينقادوا لله، وأن يتركوا هذا التمرد، وحاصل الكلام كأنه قيل لهم: هب أن حبكم لهذه اللذات العاجلة طريقة مستحسنة، إلا أن ذلك يوجب عليكم الإيمان بالله والانقياد له، فلو أنكم توسلتم به إلى الكفر بالله، والإعراض عن حكمه، لكنتم قد

تمردتم، وهذا ترتيب حسن في السؤال والجواب، وطريقة لطيفة. وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال أهل اللغة: الأسر: الربط والتوثيق، ومنه أسر الرجل إذا وثق بالقيد. وفرس مأسور الخلق وفرس مأسور بالعقب، والمعنى شددنا توصيل أعضائهم بعضًا ببعض وتوثيق مفاصلهم بالأعصاب.

المسألة الثانية: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي إذا شئنا أهلكناهم وآتينا بأشباههم فجعلناهم بدلاً منهم، وهو كقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ [الواقعة: ٦١]والغرض منه بيان الاستغناء التام عنهم كأنه قيل: لا حاجة بنا إلى أحد من المخلوقين ألبتة، وبتقدير أن تثبت الحاجة فلا حاجة إلى هؤلاء الأقوام، فإنا قادرون على إفنائهم، وعلى إيجاد أمثالهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠]ثم قيل: ﴿بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي في الخلقة، وإن كانوا أضدادهم في العمل، وقيل: أمثالهم في الكفر.

المسألة الثالثة: قال صاحب الكشاف في قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾ إن حقه أن يجيء بـ(إن) لا بـ(إذا) كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [النساء: ١٣٣]واعلم أن هذا الكلام كأنه طعن في لفظ القرآن، وهو ضعيف لأن كل واحد من إن وإذا حرف الشرط، إلا أن حرف إن لا يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع، فلا يقال: إن طلعت الشمس أكرمتك، أما حرف إذا فإنه يستعمل فيما كان معلوم الوقوع، تقول: آتيك إذا طلعت الشمس، فهاهنا لما كان الله تعالى عالمًا بأنه سيجيء وقت يبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة، لا جرم حسن استعمال حرف إذا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال السعداء وأحوال الأشقياء قال بعده: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ والمعنى أن هذه السورة بما فيها من الترتيب العجيب والنسق البعيد والوعد والوعيد والترغيب والترهيب، تذكرة للمتأملين وتبصرة للمستبصرين، فمن شاء الخيرة لنفسه في الدنيا والآخرة اتخذ إلى ربه سبيلاً. واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرب إليه، واعلم أن هذه الآية من جملة الآيات التي تلاطمت فيها أمواج الجبر والقدر، فالقدري يتمسك بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ويقول: إنه صريح مذهبي ونظيره: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]والجبري يقول: متى ضمت هذه الآية إلى الآية التي بعدها خرج منه صريح مذهب الجبر، وذلك لأن قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ يقتضي أن تكون مشيئة العبد متى كانت خالصة فإنها تكون مستلزمة

للفعل، وقوله بعد ذلك: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ يقتضي أن مشيئة الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد ومستلزم المستلزم مستلزم، فإذا مشيئة الله مستلزمة لفعل العبد، وذلك هو الجبر، وهكذا الاستدلال على الجبر بقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾ لأن هذه الآية أيضًا تقتضي كون المشيئة مستلزمة للفعل ثم التقرير ما تقدم.

واعلم أن الاستدلال على هذا الوجه الذي لخصناه لا يتوجه عليه كلام القاضي إلا أنا نذكره وننبه على ما فيه من الضعف، قال القاضي: المذكور في هذه الآية اتخاذ السبيل إلى الله، ونحن نسلم أن الله قد شاءه لأنه تعالى قد أمر به، فلا بد وأن يكون قد شاءه. وهذا لا يقتضي أن يقال العبد: لا يشاء إلا ما قد شاءه الله على الإطلاق، إذ المراد بذلك الأمر المخصوص الذي قد ثبت أنه تعالى قد أراده وشاءه.

واعلم أن هذا الكلام الذي ذكره القاضي لا تعلق له بالاستدلال على الوجه الذي ذكرناه، وأيضًا فحاصل ما ذكره القاضي تخصيص هذا العام بالصورة التي مر ذكرها فيما قبل هذه الآية، وذلك ضعيف، لأن خصوص ما قبل هذه الآية لا يقتضي تخصيص هذا العام به. لاحتمال أن يكون الحكم في هذه الآية واردًا بحيث يعم تلك الصورة وسائر الصور، وبقي في الآية سؤال يتعلق بالإعراب، وهو أن يقال: ما محل ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؟ وجوابه النصب على الظرف، وأصله إلا وقت مشيئة الله، وكذلك قراءة ابن مسعود: -إلا ما شاء الله- لأن (ما) مع الفعل كـ(أن) معه، وقرئ أيضًا يشاءون بالياء.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليمًا بأحوالهم وما يكون منهم حيث خلقهم مع علمه بهم.

ثم ختم السورة فقال:

قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

اعلم أن خاتمة هذه السورة عجيبة، وذلك لأن قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠] يدل على أن جميع ما يصدر عن العبد فبمشيئة الله، وقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ يدل على أن دخول الجنة والنار ليس إلا بمشيئة الله، فخرج من آخر هذه السورة إلا الله وما هو من الله، وذلك هو التوحيد المطلق الذي هو آخر سير الصديقين ومنتهى معارجهم في أفلاك المعارف الإلهية، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ﴾ إن فسرنا الرحمة الإيمان، فالآية صريحة في أن الإيمان من الله، وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئة الله وفضله وإحسانه لا بسبب الاستحقاق، وذلك لأنه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضي إلى الجهل والحاجة المحالين على الله، والمفضي إلى المحال محال فتركه محال فوجوده واجب عقلاً وعدمه ممتنع

عقلاً، وما كان كذلك لا يكون معلقًا على المشيئة ألبتة، وأيضًا فلأن من كان مديونًا من إنسان فأدى ذلك الدين إلى مستحقه لا يقال بأنه إنما دفع ذلك القدر إليه على سبيل الرحمة والتفضل.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يدل على أنه جف القلم بما هو كائن، لأن معنى أعد أنه علم ذلك وقضى به، وأخبر عنه وكتبه في اللوح المحفوظ، ومعلوم أن التغيير على هذه الأشياء محال، فكان الأمر على ما بيناه وقلناه.

المسألة الثالثة: قال الزجاج: نصب الظالمين لأن قبله منصوبًا، والمعنى يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين وقوله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ كالتفسير لذلك المضمر، وقرأ عبدالله بن الزبير: والظالمون، وهذا ليس باختيار لأنه معطوف على يدخل من يشاء وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية غير حسن، وأما قوله في حم عسق: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ﴾ فإنما ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصبه في المعنى، فلم يجز أن يعطف على المنصوب قبله، فارتفع بالابتداء، وهاهنا قوله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يدل على ذلك الناصب المضمر، فظهر الفرق والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة الإنسان

مَكِّيَّةٌ في قول ابنِ عباس ومقاتل والكلبي[1]. وقال الجمهور: مدنيَّة[2]. وقيل: فيها مكيّ، من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الآية: ٢٣] إلى آخر السورة، وما تقدَّمه مدنيّ[3].

وهي إحدى وثلاثون آية

وذكر ابنُ وَهْب قال: وحدَّثنا ابن زيد قال: إنَّ رسول الله ﷺ ليقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ وقد أنزلت عليه، وعنده رجل أسود كان يسأل النبيَّ ﷺ، فقال له عمر بن الخطاب: لا تُثْقِل على النبيِّ ﷺ، قال: «دَعْه يا ابن الخطاب» قال: فنزلت عليه هذه السورةُ وهو عنده، فلمَّا قرأها عليه وبلغ صفة الجِنان، زَفَر زَفْرَةً فخرجت نَفْسُه. فقال رسول الله ﷺ: «أَخْرَجَ نَفْسَ صاحبكم ـ أو أخيكم ـ الشَّوْقُ إلى الجنة» وروي عن ابن عمر بخلاف هذا اللفظ، وسيأتي[4].

وقال القُشَيريّ: إنَّ هذه السورةَ نزلت في عليِّ بن أبي طالب ﷺ. والمقصود من السورة عامّ. وهكذا القولُ في كلِّ ما يقال: إنه نزل بسبب كذا وكذا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ «هَلْ» بمعنى:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٦١ .

(٢) زاد المسير ٨/ ٤٢٧ .

(٣) المصدران السابقان.

(٤) ص٤٨٦ من هذا الجزء.

قد؛ قاله الكسائيُّ والفرَّاء وأبو عبيدة[١]. وقد حُكي عن سيبويه: «هَلْ» بمعنى قد[٢]. قال الفراء[٣]: «هل» تكون جَحْدًا، وتكون خبرًا، فهذا من الخبر؛ لأنك تقول: هل أعطيتك؟ تقرِّره بأنك أعطيتَه. والجحد أن تقول: هل يَقْدر أحدٌ على مِثل هذا؟ وقيل: هي بمنزلة الاستفهام، والمعنى: أتى[٤].

والإنسان هنا آدم عليه السلام؛ قاله قتادة والثَّوريُّ وعِكرمة والسُّدِّي[٥]. وروي عن ابن عباس.

﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: أربعون سنةً مرَّت به قبل أن ينفخ فيه الروح، وهو ملقًى بين مكة والطائف. وعن ابن عباس ـ أيضاً ـ في رواية الضحاك: أنه خلق من طين، فأقام أربعين سنة، ثم من حَمأ مسنون أربعين سنة، ثم من صَلْصال أربعين سنة، فتَمَّ خلقُه بعد مئة وعشرين سنة. وزاد ابن مسعود فقال: أقام وهو من تراب أربعين سنة، فتمَّ خلقه بعد مئة وستين سنة. ثم نُفخ فيه الروح. وقيل: الحين المذكور هاهنا لا يُعْرف مقدارُه؛ عن ابن عباس أيضًا، حكاه الماورديّ[٦].

﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ قال الضحَّاك عن ابن عباس: لا في السماء ولا في الأرض[٧]. وقيل: أي: كان جسدًا مصوَّرًا ترابًا وطينًا، لا يُذكَر ولا يعرف، ولا يُدرى ما اسمه ولا ما يراد به، ثم نُفخ فيه الرُّوح، فصار مذكورًا؛ قاله الفرَّاء وقُطرب

---

(١) كلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٢١٣ ، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/ ٢٧٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٨ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢١٣ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٦١ عن ابن عيسى.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٦١ دون ذكر الثوري، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٥٢٩ - ٥٣٠ عن قتادة وسفيان.

(٦) في النكت والعيون ٦/ ١٦٢ .

(٧) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٩٨ دون نسبة.

وثعلب. وقال يحيى بن سلَّام: لم يكن شيئًا مذكورًا في الخَلْق وإن كان عند الله شيئاً مذكورًا[(١)].

وقيل: ليس هذا الذِّكرُ بمعنى الإخبار، فإنَّ إخبار الربِّ عن الكائنات قديم، بل هذا الذِّكر بمعنى الخطر والشرف والقَدْر؛ تقول: فلان مذكور، أي: له شرف وقدر. وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قَدْر عند الخليقة. ثم لمَّا عَرَّف اللهُ الملائكة أنه جعل آدم خليفة، وحمَّله الأمانةَ التي عَجزَ عنها السماواتُ والأرض والجبال، ظهر فضله على الكلِّ، فصار مذكورًا. قال القُشيريّ: وعلى الجملة؛ ما كان مذكورًا للخلق، وإن كان مذكورًا لله. وحكى محمد بن الجهم عن الفرَّاء[(٢)]: «لَمْ يَكُنْ شَيْئًا» قال: كان شيئًا ولم يكن مذكورًا.

وقال قوم: النفي يرجع إلى الشيء، أي: قد مضى مُدَدٌ من الدهر وآدمُ لم يكن شيئًا يذكر في الخليقة؛ لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليقة، والمعدوم ليس بشيء حتى يأتيَ عليه حين. والمعنى: قد مضت عليه أزمنةٌ وما كان آدم شيئًا، ولا مخلوقًا، ولا مذكورًا لأحد من الخليقة. وهذا معنى قولِ قتادة ومقاتل؛ قال قتادة: إنما خُلق الإنسان حديثًا، ما يُعلم من خليقة الله جلَّ ثناؤه خليقةٌ كانت بعد الإنسان[(٣)].

وقال مقاتل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، وتقديره: هل أتى حينٌ من الدهر لم يكن الإنسان شيئًا مذكورًا؛ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كلِّه، ولم يخلق بعده حيوانًا[(٤)].

وقد قيل: «الإنسان» في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ﴾ عُنيَ به الجنسُ من ذرِّيَّة آدم[(٥)]، وأنَّ الحين تسعة أشهر، مدَّة حمل الإنسانِ في بطن أمه «لم يكنْ شيئًا

(١) النكت والعيون ٦/ ١٦٢، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٢١٣ بنحوه.

(٢) الكلام في معاني القرآن له ٣/ ٢١٣.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٢٩.

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٦٢.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٩٥، والكشاف ٤/ ١٩٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٠٨.

مذكورًا»؛ إذ كان علقةً ومضغة؛ لأنه في هذه الحالة جمادٌ لا خطر له.

وقال أبو بكر ﷺ لمَّا قرأ هذه الآية: ليتها تمَّت فلا نُبتلى[(١)]. أي: ليت المدَّةَ التي أتت على آدم لم تكن شيئًا مَذْكُورًا تَمَّت على ذلك، فلا يلد ولا يُبْتلى أولادُه.

وسمع عمر بن الخطاب ﷺ رجلًا يقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فقال: ليتها تمَّت[(٢)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: ابن آدم، من غير خلاف[(٣)] ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: من ماء يقطُر، وهو المَنِيّ، وكلُّ ماءٍ قليل في وعاء فهو نطفة[(٤)]؛ كقول عبد الله ابنِ رواحة يعاتب نفسه:

مـالـي أراكِ تَـكـرهـيـن الـجَـنَّـهْ ... هـل أنـتِ إلَّا نـطـفـةٌ فـي شَـنَّـهْ[(٥)]

وجمعها: نُطَف ونِطاف.

﴿أَمْشَاجٍ﴾: أخلاط. واحدها: مِشْج ومَشِيج، مثل: خِدْن وخَدِين[(٦)]؛ قال رؤبة:

يَـطْـرحْـنَ كـلَّ مُـعْـجَـلٍ نَـشَّـاجِ ... لـم يُـكْـسَ جِـلْـداً فـي دمٍ أَمـشـاجِ[(٧)]

ويقال: مَشَجْتُ هذا بهذا، أي خلطتُه، فهو مَمْشوج ومَشِيج؛ مثل: مَخْلوط وخَلِيط.

وقال المبرِّد: واحد الأمشاج: مَشِيج؛ يقال: مَشَجَ يَمْشِجُ: إذا خلط، وهو هنا

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٧٩، وينظر الكشاف ٤/ ١٩٤.
(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٩٨، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢٦.
(٣) النكت والعيون ٦/ ١٦٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٠٨.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٩٥.
(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٧٩.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٦. وقال الفيروز أبادي في القاموس (مشج): شيء مشيج، كقتيل، وسَبَب، وكَتِف... ج: أمشاج.
(٧) ديوان رؤبة ص٣٢، وقوله: نشَّاج؛ قال في القاموس (نشج): نَشَجَ الباكي يَنْشِجُ نشيجاً: غُصَّ بالبكاء في حلقه من غير انتحاب.

اختلاط النطفة بالدم؛ قال الشَّمَّاخ:

طوت أحشاءَ مُرْتِجَةً لِوقتٍ على مَشِجٍ سُلالتُه مَهينِ[١]

وقال الفرَّاء[٢]: أمشاج: أخلاط ماءِ الرجل وماءِ المرأة، والدم والعَلَقة. ويقال للشيء من هذا إذا خُلط: مَشِيج، كقولك خَلِيط، ومَمْشوج، كقولك: مَخْلوط.

وروي عن ابن عباس ﷺ قال: الأمشاج: الحُمرة في البياض، والبياض في الحُمرة. وهذا قولٌ يختاره كثيرٌ من أهل اللغة؛ قال الهُذَليّ:

كأنَّ الرِّيشَ والفُوقَيْنِ منه خِلافَ النَّصْلِ سِيطَ به مَشِيجُ[٣]

وعن ابن عباس أيضًا قال: يختلط ماءُ الرجل ـ وهو أبيض غليظ ـ بماء المرأة ـ وهو أصفر رقيق ـ فيُخلق منهما الولد، فما كان من عَصَب وعظم وقوَّة، فهو من ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر، فهو من ماء المرأة[٤]. وقد روي هذا مرفوعًا؛ ذكره البزَّار[٥].

وروي عن ابن مسعود: أمشاجها: عروق المضغة. وعنه: ماء الرجل وماء المرأة، وهما لونان. وقال مجاهد: نطفة الرجل بيضاء وحمراء، ونطفة المرأة خضراء

---

(١) الديوان ص٣٢٨، والكامل للمبرد ٢/ ١٠١٧، والخزانة ٤/ ٣٤٩. قال البغدادي: أي: هذه الأتان ضمت أحشاء مرتجة، أراد رحمها، أي: أغلقت رحمها على ماء الفحل. والمشج، بفتح الميم وكسر الشين: ماء الفحل مع الدم، وقيل: ماء الفحل والأتان جميعاً يختلطان. وسلالته، أي: ماؤه، وهو فاعل مشج، ويقال: السلالة الولد، وهو الرقيق. ومهين ضعيف، وهو صفة مشج.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢١٤.

(٣) البيت لعمرو بن الداخل الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ٣/ ١٠٤، والكامل ٢/ ١٠١٦، وفيه: الشرخين، بدل: الفُوقين. الفُوْق: موضع الوتر من السهم. منه، أي: من السهم. خلافَ النصل: بعدَ النصل. سيط: خُلط.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٦ - ٤٢٧.

(٥) في مسنده (٢٣٧٥ كشف الأستار) بنحوه، وقال: لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا من هذا الوجه، وقد روي نحوه عن غيره من وجوه. اهـ. وأخرجه (٢٣٧٦)، (٢٣٧٧) من حديث عبد الله بن مسعود. والحديثان عند أحمد (٢٥١٤)، (٤٤٣٨).

وصفراء. وقال ابن عباس: خلق من ألوان؛ خلق من تراب، ثم من ماء الفَرْج والرَّحِم، وهي نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظم، ثم لحم.

ونحوَه قال قتادة: هي أطوار الخلق: طورًا نطفة، وطورًا علقة، وطورًا مضغة، وطوراً عظام، ثم يكسو العظام لحمًا[١]؛ كما قال في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية [١٢].

وقال ابن السِّكِّيت: الأمشاج: الأخلاط؛ لأنها ممتزجة من أنواع، فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة. وقال أهل المعاني: الأمشاج ما جمع وهو في معنى الواحد؛ لأنه نعت للنطفة؛ كما يقال: بُرْمَةٌ أَعشَار، وثوبٌ أخلاقٌ[٢].

وروي عن أبي أيوب الأنصاريّ قال: جاء حبر من اليهود إلى النبيِّ ﷺ فقال: أخبرني عن ماء الرجل وماء المرأة. فقال: «ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فإذا عَلَا ماءُ المرأة آنثَتْ، وإذا عَلَا ماءُ الرجل أَذْكَرَتْ» فقال الحبر: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسولُ الله[٣]. وقد مضى هذا القولُ مستوفًى في سورة البقرة[٤].

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره. وقيل: نقدِّر فيه الابتلاء، وهو الاختبار. وفيما يختبر به وجهان: أحدهما: نختبره بالخير والشر؛ قاله الكلبي. الثاني: نختبر شكره في السرَّاء وصبرَه في الضَّرَّاء؛ قاله الحسن.

وقيل: «نَبْتَلِيهِ»: نُكلِّفه. وفيه أيضًا وجهان: أحدهما: بالعمل بعد الخلق؛ قاله

---

(١) أخرج هذه الآثار الطبري ٢٣/ ٥٣٣ - ٥٣٥ .

(٢) البُرْمَة: قِدْرٌ، من حجارة. وقِدْرٌ أعشار: مكسَّرة على عشر قطع. وثوبٌ أخلاق: إذا كانت الخُلُوقة (أي: البِلَى) فيه كلِّه. القاموس (برم، قدر، خلق).

(٣) لم نقف عليه عن أبي أيوب الأنصاري، وأخرج نحوه البخاري (٣٣٢٩) عن أنس، ومسلم (٣١٥) عن ثوبان. وسلف حديث ثوبان ٥/ ١٤.

(٤) استوفاه المؤلف في سورة الشورى ١٨/ ٥٠٢ وما بعدها.

مقاتل. الثاني: بالدِّين؛ ليكون مأمورًا بالطاعة ومنهيًا عن المعاصي[١].

وروي عن ابن عباس: «نَبْتَلِيهِ»: نصرِّفه خلقًا بعد خلق؛ لنبتليَه بالخير والشرّ[٢].

وحكى محمد بن الجهم عن الفراء قال: المعنى والله أعلم: «فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا» لنبتليَه، وهي مُقدَّمةٌ معناها التأخير[٣].

قلت[٤]: لأن الابتلاء لا يقع إلَّا بعد تمام الخِلْقة.

وقيل: «جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا»: يعني: جعلنا له سمعًا يسمع به الهدى، وبصرًا يُبصر به الهدى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بيَّنَّا له وعَرَّفناه طريقَ الهدى والضلال، والخيرِ والشرِّ ببعث الرسل، فآمن أو كفر؛ كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. وقال مجاهد: أي: بيَّنَّا له السبيلَ إلى الشَّقاء والسَّعادة. وقال الضحَّاك وأبو صالح والسُّدِّيّ: السبيل هنا خروجُه من الرَّحِم. وقيل: منافعه ومضارُّه التي يهتدي إليها بطبعه وكمالِ عقله[٥].

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي: أيَّهما فعل فقد بيَّنَّا له. قال الكوفيون: «إنْ» ها هنا تكون جزاءً، و«ما» زائدة. أي: بيَّنَّا له الطريق إن شَكَر أو كَفَر. واختاره الفرَّاء[٦]، ولم يُجِزْه البصريُّون؛ إذ لا تدخل «إِنْ» للجزاء على الأسماء، إلَّا أن يُضمَرَ بعدها فعل[٧].

وقيل: أي: هديناه الرُّشد، أي: بيَّنَّا له سبيل التوحيد بنصب الأدلة عليه؛ ثم إنْ

(١) النكت والعيون ٦/ ١٦٣ .

(٢) الكشاف ٤/ ١٩٥ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٤ . وقد رده النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٩٥ - ٩٦ ، والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩٥ .

(٤) لفظة: قلت، ليست في (ز) و(ظ) و(ي).

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٦٤ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٣٧ - ٥٣٨ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢١٤ .

(٧) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٨٢ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٩٦ .

خلقنا له الهدايةَ اهتدى وآمن، وإن خذلناه كَفَر. وهو كما تقول: قد نصحت لك، إن شئت فاقبل، وإن شئت فاترك، أي: فإن شئت، فتحذف الفاء. وكذا «إمَّا شاكرًا»، والله أعلم.

ويقال: هديته السبيلَ وللسبيل وإلى السبيل[١]. وقد تقدَّم في «الفاتحة» وغيرها[٢].

وجمع بين الشاكر والكفور، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة؛ نفيًا للمبالغة في الشكر، وإثباتًا لها في الكفر؛ لأن شكر الله تعالى لا يُؤدَّى، فانتفت عنه المبالغة، ولم تنتفِ عن الكفر المبالغة، فقَلَّ شكره لكثرة النِّعم عليه، وكَثرة كفره[٣] وإن قَلَّ مع الإحسان إليه. حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ بيَّن حال الفريقين، وأنه تَعبَّد العقلاءَ وكَلَّفهم ومَكَّنهم مما أمرهم، فمن كَفَر فله العقاب، ومن وَحَّد وشكرَ فله الثواب. والسلاسل: القيود في جهنم، طول كلِّ سلسلةٍ سبعون ذراعًا، كما مضى في «الحاقة»[٤].

وقرأ نافع والكسائيُّ وأبو بكر عن عاصم وهشامٌ عن ابن عامر: «سَلَاسِلًا» منوَّنًا. الباقون بغير تنوين. ووقف قُنْبُل عن ابن كثير[٥] وحمزةُ بغير ألف. الباقون بالألف. فأما «قواريرَ» الأوَّل، فنوَّنه نافع وابن كثير والكسائيُّ وأبو بكر عن عاصم، ولم ينوِّن الباقون. ووقف يعقوب وحمزة بغير ألف. والباقون بالألف. وأما «قَوَارِير» الثانية، فنوَّنه أيضًا نافع والكسائيُّ وأبو بكر، ولم ينوِّن الباقون. فمَن نوَّن قرأها بالألف، ومن

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٤ .

(٢) ١/ ٢٢٦ - ٢٢٧ ، ٢٤٧ فما بعد.

(٣) في النكت والعيون ٦/ ١٦٤ (والكلام منه): وكثر كفره .

(٤) ص٢١٠ من هذا الجزء.

(٥) في (د) و(م): وابن كثير. وهو خطأ.

لم ينوِّن أسقط منها الألف(١)، واختار أبو عُبيد التنوينَ في الثلاثة، والوقفَ بالألف اتِّباعًا لخطِّ المصحف؛ قال: رأيت في مصحف عثمان «سَلَاسِلًا» بالألف، و«قَوَارِيرًا» الأوَّل بالألف، وكان الثاني مكتوبًا بالألف، فَحُكَّت، فرأيت أثرَها هناك بَيِّنًا.

فمن صَرَفَ فله أربع حُجج:

أحدها: أنَّ الجموع أشبهت الآحاد، فجمعت جمع الآحاد، فجعلت في حكم الآحاد، فصرفت.

الثانية: أنَّ الأخفش حكى عن العرب صَرْفَ جميع ما لا ينصرف، إلَّا: أَفْعَل منك، وكذا قال الكسائيُّ والفرَّاء: هو على لغة من يُجرِي الأسماءَ كلَّها، إلَّا قولهم: هو أظرف منك، فإنهم لا يُجْرُونه؛ وأنشد ابن الأنباريِّ(٢) في ذلك قولَ عمرو بنِ كُلْثوم:

كأنَّ سيوفنا فينا وفيهمْ مَخَاريقٌ بأيدي لاعبينا(٣)

وقال لَبِيد:

وجَزُورِ أَيْسارٍ دَعوتُ لِحَتْفها بمَغالِقٍ مُتشابهٍ أجسامُها(٤)

---

(١) الكلام بنحوه في الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٣٦٨، والمقنع للداني ص١٥، وينظر النشر ٢/ ٣٩٥.

(٢) في الوقف والابتداء ١/ ٣٦٩، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٩٧، والحجة لأبي علي ٦/ ٣٤٩، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٨٣، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٣٥٢ ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٤، وللزجاج ٥/ ٢٦٠. قوله: لا يُجرونه، أي: يمنعونه من الصرف، والإجراء يعني الصرف. ينظر تعليق الشيخ محمود شاكر رحمه الله على تفسير الطبري ٦/ ٣٤٧.

(٣) شرح القصائد المشهورات لابن النحاس ص١٠٤. المخاريق: ما مُثِّل بالشيء وليس به، نحو ما يلعب به الصبيان، يشبهونه بالحديد وليس به.

(٤) شرح ديوان لبيد ص٣١٨. الأيسار: المضاربون بالقداح. لحتفها: لنحرها. المغالق: القِداح؛ لأنه يغلق بها الرهن. متشابه أجسامها: يشبه بعضها بعضاً؛ لأنها على نسق واحد.

وقال لبيد أيضاً:

فَضلًا وذو كرم يُعِينُ على النَّدَى ... سَمْحٌ كَسُوبُ رغائبٍ غَنَّامُها[١]

فصَرَفَ مَخاريق ومَغَالق ورَغائب، وسبيلُها ألَّا تُصرَف.

والحجَّة الثالثة: أن يقول: نوِّنت «قوارير» الأوَّل؛ لأنه رأس آية، ورؤوس الآي جاءت بالنون، كقوله جلَّ وعزَّ: «مَذْكُورًا» «سَمِيعًا بَصِيرًا» فنوَّنَّا الأوَّل ليوافقَ[٢] بين رؤوس الآي، ونوَّنَّا الثاني على الجِوار للأوَّل.

والحجة الرابعة: اتِّباع المصاحف، وذلك أنهما جميعًا في مصاحف مكة والمدينةِ والكوفةِ بالألف.

وقد احتجَّ مَن لم يصرفهنَّ بأن قال: إنَّ كلَّ جمع بعد الألف منه ثلاثةُ أحرف أو حرفان أو حرف مشدَّد؛ لا يُصرَف في معرفة ولا نكرة؛ فالذي بعد الألف منه ثلاثة أحرف قولُك: قناديل، ودنانير، ومناديل، والذي بعد الألف منه حرفان قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ [الحج: ٤٠] لأنَّ بعد الألف حرفين، وكذلك قوله: ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠] والذي بعد الألف منه حرف مُشَدَّد: شَوَابّ ودَوَابّ.

وقال خلف: سمعت يحيى بنَ آدم يحدِّث عن ابن إدريس قال: في المصاحف الأُوَل الحرفُ الأوَّل[٣] والثاني بغير ألف؛ فهذا حُجَّةٌ لمذهب حمزة. وقال خلف: رأيت في مصحفٍ ينسب إلى قراءة ابنِ مسعود الأولَ بالألف، والثانيَ بغير ألف.

وأما أَفْعَل مِنْك، فلا يقول أحدٌ من العرب في شِعره ولا في غيره: هو أفعل منك، منوَّنًا؛ لأنَّ «مِن» تقوم مَقامَ الإضافة، فلا يُجمعُ بين تنوين وإضافةٍ في حرف؛

---

(١) شرح ديوان لبيد ص٣٢٠ . فضلاً: رغبة في الفضل. وذو كرم: أي: ومنا ذو كرم.

(٢) في (د): لتوقف، وفي (م): ليوقف، وفي (ي): ليوفق، والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في المطبوع من الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٣٦٩ ، والكلام منه.

(٣) بعدها في (د) و(م): بالألف، وهو خطأ.

لأنهما دليلان من دلائل الأسماء، ولا يجمع بين دليلين؛ قاله الفرَّاء وغيره[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ جمع غُلّ، تُغَلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم. وعن جُبَير بن نُفَير، عن أبي الدرداء كان يقول: اِرفعوا هذه الأيديَ إلى الله جلَّ ثناؤه قبل أن تُغلَّ بالأغلال. قال الحسن: إنَّ الأغلال لم تُجعل في أعناق أهل النار لأنهم أعجزوا الربَّ سبحانه، ولكن إذا طغى [بهم اللهب، أرسبتهم في النار][(٢)]. ﴿وَسَعِيرًا﴾ تقدَّم القولُ فيه[(٣)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ الأبرار: أهل الصِّدق، واحدهم بَرٌّ، وهو مَن امتثل أمرَ الله تعالى. وقيل: البَرّ: الموحِّد، والأبرار: جمع بارّ، مثل: شاهد وأشهاد، وقيل: هو جمع بَرّ، مثل: نَهْر وأنهار؛ وفي الصحاح[(٤)]: وجمع البَرّ: الأبرار، وجمع البارّ: البَرَرة، وفلان يَبَرُّ خالقَه وَيَتَبَرَّرُه، أي يُطِيعه، والأمُ بَرَّةٌ بولدها.

وروى ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمَّاهم اللهُ جلَّ ثناؤه الأبرار؛ لأنهم بَرُّوا الآباء والأبناء، كما أنَّ لوالدك عليك حقًّا، كذلك لولدك عليك حقًّا»[(٥)].

---

(١) نقله المصنف عن الوقف والابتداء ١/ ٣٧٠ . والكلام بتمامه فيه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٧٠ ، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٤٤ ، وما بين حاصرتين منهما. ووقع في (ظ) و(م): ... ولكن إذلالاً.

(٣) ١٣/ ١٧٩ - ١٨٠ .

(٤) مادة (برر)، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٩٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢٧ .

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٦٣٠ من طريق عبيد الله بن الوليد الوصَّافي وقال: لا يتابع عليه. وأخرجه من هذا الطريق البخاري في الأدب المفرد (٩٤)، وابن أبي حاتم ٣/ ٨٤٦ (٤٦٨٠) موقوفاً. قال ابن كثير عند تفسير الآية (١٩٨) من سورة آل عمران: والموقوف أشبه، والله أعلم. وقال السيوطي في الدر المنثور ٢/ ١١٣ : والموقوف أصح.

وقال الحسن: البَرّ: الذي لا يؤذي الذَّرّ[١]. وقال قتادة: الأبرار: الذين يؤدُّون حقَّ الله ويوفون بالنَّذْر[٢]. وفي الحديث: «الأبرار الذين لا يؤذون أحدًا»[٣].

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ أي: من إناء فيه الشراب. قال ابن عباس: يريد الخمر. والكأس في اللغة: الإناء فيه الشراب، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يُسمَّ كأسًا[٤]. قال عمرو بن كُلْثوم:

صَبَنْتِ[٥] الكأسَ عنَّا أُمَّ عَمرٍو ... وكان الكأسُ مَجْراها اليمينا

وقال الأصمعيّ: يقال: صَبَنْتَ عنّا الهديةَ أو ما كان من معروف تَصْبِنُ صَبْنًا: بمعنى كَفَفْتَ؛ قاله الجوهري.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي: شَوْبُها وخِلْطُها؛ قال حسَّان:

كأنَّ سَبِيئةً من بيتِ رأسٍ ... يكون مِزاجُها عسلٌ وماءُ[٦]

ومنه مِزاج البدن، وهو ما يمازجه من الصفراء والسوداء، والحرارة والبرودة.

﴿كَافُورًا﴾ قال ابن عباس: هو اسم عينِ ماءٍ في الجنة، يقال له: عين الكافور. أي: يمازجه ماءُ هذه العينِ التي تسمَّى كافورًا. وقال سعيد عن قتادة: تُمزَج لهم بالكافور وتُختَم بالمسك. وقاله مجاهد. وقال عِكرمة: مِزَاجها طعمها[٧]. وقيل: إنما

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٣/ ٨٤٦ (٤٦٨١).

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٦٥ .

(٣) لم نقف عليه.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٥٨ .

(٥) في (ظ): صددت، وهو موافق لما في شرح القصائد المشهورات لابن النحاس ص٩١ ، وشرح التبريزي ص٢٥٦ . والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في شرح الزوزني ١١٩ ، والصحاح (صبن).

(٦) الديوان ص٨ ، والخزانة ٩/ ٢٢٤ . قال البغدادي: السبيئة: الخمر التي تُسبأ، أي: تشترى. وبيت رأس: موضع. وقيل: بيت: موضع الخمر، ورأس: اسم للخمَّار. وقيل: الرأس هنا بمعنى الرئيس، أي: من بيت رئيس. قال اللخمي: وهذا أحسن الأقوال.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٧ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٣٩ .

الكافور في ريحها لا في طعمها[١]. وقيل: أراد كالكافور في بياضه وطيبِ رائحته وبَرْده؛ لأن الكافور لا يشرب؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ [الكهف:٩٦] أي: كنارٍ. وقال ابن كَيْسان: طُيِّب بالمسك والكافور والزَّنجبيل[٢]. وقال مقاتل: ليس بكافور الدنيا. ولكن سمَّى اللهُ ما عنده بما عندكم حتى تهتديَ لها القلوب[٣]. وقوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ «كان» زائدة، أي: مِن كأسٍ مِزاجُها كافورٌ.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ قال الفرَّاء[٤]: إنَّ الكافور اسمٌ لعين ماءٍ في الجنة؛ فـ«عَيْنًا» بدل من «كافور» على هذا. وقيل: بدل من «كأس» على الموضع. وقيل: هي حال من المضمَر في «مِزاجها». وقيل: نصب على المدح؛ كما يُذكَر الرَّجلُ فتقول: العاقلَ اللبيبَ، أي: ذكرتم العاقلَ اللبيبَ؛ فهو نصب بإضمار: أعني. وقيل: يشربون عينًا[٥]. وقال الزجَّاج[٦]: المعنى: مِن عين.

ويقال: كافور وقافور. والكافور أيضًا: وعاء طلع النخل، وكذلك الكُفُرَّى؛ قاله الأصمعيّ.

وأما قولُ الراعي:

تَكسو المفارِقَ واللَّبَّاتِ ذا أَرَجٍ ... مِن قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكافورِ دَرَّاجِ

فإنَّ الظَّبي الذي يكون منه المسك إنما يرعى سُنبل الطِّيب، فجعله كافورًا[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٥/٩٧ .

(٢) تفسير البغوي ٤/٤٢٧ .

(٣) ذكر قوله مختصراً الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٠٠ ، وينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٤٣٠ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢١٥ ، وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٩ .

(٥) هذه الأقوال في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٢٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٩٧ - ٩٨ ، والكشاف ٤/ ١٩٦ .

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٢٥٨ .

(٧) الصحاح (كفر)، وبيت الراعي في ديوانه ص٣٢ . اللَّبَّات: جمع لَبَّة: وهو المنحر. القُصْب: المِعَى. الأرَج: الطيّب الرائحة. دَرَّاج: يذهب ويجيء. قال ابن قتيبة في الشعر والشعراء ١/ ٤١٧: أراد المسك، فجعله من قُصب ظبي المسك.

﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ قال الفرَّاء[١]: يشرب بها ويشربها سواءٌ في المعنى، وكأنَّ «يشرب بها» يَرْوَى بها ويَنْقَع[٢]؛ وأنشد:

شَرِبْنَ بماءِ البحرِ ثم ترفَّعتْ   متى لُجَجٍ خُضْرٍ لهُنَّ نَئيجُ[٣]

قال: ومثله: فلان يتكلَّم بكلام حسن، ويتكلَّم كلامًا حسنًا. وقيل: المعنى: يشربها، والباء زائدة[٤]. وقيل: الباء بدل «مِن»، تقديره: يشرب منها؛ قاله القُتَبيّ[٥].

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ فيقال: إنَّ الرجل منهم ليَمشي في بيوتاته ويصعد إلى قصوره، وبيده قضيبٌ يشير به إلى الماء، فيجري معه حيثما دار في منازله على مستوى الأرض في غير أخدود، ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره؛ وذلك قولُه تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يُشقِّقونها شَقًّا، كما يفجِّر الرجلُ النهرَ هاهنا وهاهنا إلى حيث يريد.

وعن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد[٦]: «يُفَجِّرُونَها تَفْجِيرًا»: يقودونها حيث شاؤوا، وتتبعهم؛ حيثما مالوا مالت معهم.

وروى أبو مقاتل عن صالح بن سعيد، عن أبي سهل، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع عيون في الجنة: عينان تجريان من تحت العرش، إحداهما التي ذكر اللهُ: «يُفَجِّرُونَها تَفْجِيرًا»، والأخرى [الزنجبيل]، والأخريان نَضَّاختان من فوق العرش، إحداهما التي ذَكَرَ الله: «سَلْسَبِيلًا»، والأخرى التَّسْنيم». ذكره الترمذيُّ

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢١٥ .

(٢) في مختار الصحاح: نقع بالماء: رَوِيَ، وشَرِبَ حتى نقع، أي: شفى غليله.

(٣) قائله أبو ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ٥٢ ، والخزانة ٣/ ١٩٣ (دار صادر). قال البغدادي: متى لجج، أي: من لجج، أو في لجج، أو وسط لجج. ونئيج: مرٌّ سريع.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٠ .

(٥) في تأويل مشكل القرآن ص٤٣٠ .

(٦) أخرج قوله الطبري ٢٣/ ٥٤٠ بنحوه.

الحكيم في «نوادر الأصول»[١]؛ وقال: فالتسنيم للمقرَّبين خاصَّةً شربًا لهم، والكافور للأبرار شرباً لهم؛ يُمزج للأبرار من التسنيم شرابُهم، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مِزاج. هكذا ذكره في التنزيل، وسكت عن ذكر ذلك لمن هي شِرْب، فما كان للأبرار مزاج، فهو للمقرَّبين صِرف، وما كان للأبرار صِرف، فهو لسائر أهل الجنة مِزاج. والأبرار هم الصادقون، والمقرَّبون هم الصِّدِّيقون.

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ أي: لا يُخلِفون إذا نَذَروا. وقال مَعْمَر عن قتادة: بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحجِّ والعُمْرة وغيره من الواجبات[٢]. وقال مجاهد وعكرمة: يوفون إذا نذروا في حقِّ الله جلَّ ثناؤه[٣]. وقال الفرَّاء[٤] والجرجاني: وفي الكلام إضمار، أي: كانوا يوفون بالنذر في الدنيا. والعرب قد تزيد مرة «كان» وتحذف أخرى.

والنذر: حقيقته ما أوجبه المكلَّف على نفسه من شيء يفعله. وإن شئت قلت في حَدِّه: النذر: هو إيجاب المكلَّف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يَلْزمه.

وقال الكَلْبيّ: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ» أي: يتمِّمون العهود[٥]. والمعنى واحد؛ وقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] أي: أعمال نسكهم التي ألزموها أنفسَهم بإحرامهم بالحجّ. وهذا يقوِّي قولَ قتادة، وأنَّ النذر يندرج فيه ما

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع منه، وقد ذكره المصنف في التذكرة ص٥٠٧ ونسبه أيضاً للحكيم الترمذي في نوادر الأصول في الأصل التاسع والثمانين، ونقل كلامه الآتي. وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠١ وعزاه لنوادر الأصول أيضاً، وما بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٤١ - ٥٤٢ ، وذكره البغوي ٤/ ٤٢٨ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٨ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢١٦ .

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٦٦ بنحوه.

التزمه المرءُ بإيمانه مِن امتثال أمر الله؛ قاله القُشيري.

وروى أشهب عن مالك أنه قال: «يوفُون بالنَّذْرِ»: هو نذر العتق والصيام والصلاة. وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال: قال مالك: «يوفُون بالنَّذْر» قال: النذر هو اليمين[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ﴾ أي: يحذرون ﴿يَوْمًا﴾ أي: يوم القيامة. ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ أي: عاليًا داهيًا فاشيًا، وهو في اللغة: ممتَدًّا، والعرب تقول: استطار الصَّدع في القارورة والزُّجاجة واستطال: إذا امتدَّ[٢]؛ قال الأعشى:

وبانتْ وقد أسأرتْ[٣] في الفؤا د صَدْعًا على نأيها مستطيرا

ويقال: استطار الحريق: إذا انتشر. واستطار الفجر: إذا انتشر الضوء[٤].

وقال حسان:

وهانَ على سَرَاة بني لُؤَيٍّ حريقٌ بالبُوَيرة مستطيرُ[٥]

وكان قتادة يقول: استطار واللهِ شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السماواتِ والأرض[٦].
وقال مقاتل: كان شرُّه فاشيًا في السماوات فانشقَّت، وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وفي الأرض نُسِفت الجبالُ وغارت المياه[٧].

قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: على قِلَّته وحبِّهم

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٨٥ .

(٢) الكلام في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٦ بنحوه.

(٣) في (د) وتفسير الطبري ٢٣/ ٥٤٣ : أثأرت، وفي الديوان ص١٤٣ : أورثت، والمثبت من (ظ) و(م) وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٥/ ٤١٠، وأَسْأَرَتْ، أي: أَبْقَتْ .

(٤) تفسير غريب القرآن ص٥٠٢ ، وينظر الصحاح (طير).

(٥) الديوان ص١١٠ . وسلف ٢٠/ ٣٤١ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٤٢ .

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٢٨ .

إيَّاه وشهوتِهم له. وقال الداراني: على حبِّ الله[١]. وقال الفُضَيل بن عِياض: على حبِّ إطعام الطعام. وكان الربيع بن خُثَيم إذا جاءه السائل قال: أطعموه سُكَّرًا، فإنَّ الربيع يحبُّ السُّكَّر[٢].

﴿مِسْكِينًا﴾ أي: ذا مسكنة. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو الطوَّاف يسألك مالَك.

﴿وَيَتِيمًا﴾ أي: من يتامى المسلمين. وروى منصور عن الحسن: أنَّ يتيمًا كان يحضر طعامَ ابن عمر، فدعا ذات يوم بطعامه، وطلب اليتيمَ فلم يجده، وجاءه بعد ما فرغ ابن عمر من طعامه، فلم يجد الطعام، فدعا له بسَوِيق وعسل؛ فقال: دونَك هذا، فوالله ما غُبِنتَ؛ قال الحسن وابن عمر: والله ما غُبِن.

﴿وَأَسِيرًا﴾ أي: الذي يؤسر فيحبس. فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: الأسير من أهل الشِّرك يكون في أيديهم. وقاله قتادة. وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال: الأسيرُ هو المحبوس[٣]. وكذا قال سعيد بن جُبير وعطاء: هو المسلم يُحبس بحقّ[٤]. وعن سعيد بن جبير مثل قول قتادة وابنِ عباس. قال قتادة: لقد أَمَرَ الله بالأسرى أن يُحسَنَ إليهم، وإنَّ أسراهم يومئذ لَأهلُ الشِّرك، وأخوك المسلم أحقُّ أن تطعمه[٥]. وقال عِكرمة: الأسير العبد[٦]. وقال أبو حمزة الثُّمَالي: الأسير المرأة، يدلُّ عليه قولُه عليه الصلاة والسلام: «استوصوا بالنساء خيرًا، فإنهنَّ عَوَانٍ عندكم»[٧] أي: أسيرات.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤١٠، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٤٣.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٠١ - ٤٠٢، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ١١٥.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٤٤ - ٥٤٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٨ بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٤٤.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٦٦.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٤١١، والحديث أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (١٨٥١) من حديث عمرو بن الأحوص ﷺ. وقوله منه: «استوصوا بالنساء خيراً» أخرجه البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨) من حديث أبي هريرة ﷺ. وسلف ٣/ ٩٤.

وقال أبو سعيد الخُدري: قرأ رسول الله ﷺ: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا» فقال: «المسكين: الفقير، واليتيم: الذي لا أب له، والأسير: المملوك والمسجون» ذكره الثعلبي.

وقيل: نَسَخَ إطعامَ المسكين آيةُ الصَّدقات؛ وإطعامَ الأسير السيفُ؛ قاله سعيد بن جُبير[١]. وقال غيره: بل هو ثابتُ الحكم، وإطعام اليتيم والمسكين على التطوُّع، وإطعام الأسير لحفظ نفسه، إلَّا أن يتخيَّرَ فيه الإمام.

الماورديُّ[٢]: ويحتمل أن يريد بالأسير الناقصَ العقل؛ لأنه في أَسْر خَبْله وجنونه، وأسرُ المشرك انتقام يقف على رأي الإمام؛ وهذا بِرٌّ وإحسان.

وعن عطاء قال: الأسير من أهل القِبلة وغيرهم[٣].

قلت: وكأنَّ هذا القولَ عامٌّ يجمع جميع الأقوال، ويكون إطعام الأسير المشرك قُربةً إلى الله تعالى، غير أنه من صدقة التطوع، فأما المفروضةُ فلا. والله أعلم. ومضى القولُ في المسكين واليتيم والأسير واشتقاقِ ذلك من اللغة في «البقرة» مستوفًى، والحمد لله[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي: يقولون بألسنتهم للمسكين واليتيم والأسير: «إِنَّما نُطْعمكم» في الله جلَّ ثناؤه فزعًا من عذابه وطمعًا في ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ أي: مكافأة ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ أي: ولا أن تُثْنُوا علينا بذلك؛ قال ابن عباس: كذلك كانت نيَّاتهم في الدنيا حين أطعموا. وعن سالم، عن مجاهد قال: أما إنهم ما تكلَّموا به، ولكن عَلِمه الله جلَّ ثناؤه منهم، فأثنى به عليهم؛ ليرغب في ذلك راغب. وقاله سعيد بن جُبير[٥]، حكاه عنه القُشيريّ.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٦٦ ، وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٤١٠ .

(٢) في النكت والعيون ٦/ ١٦٧ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٤٥ .

(٤) ٢/ ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ .

(٥) أخرج قولهما الطبري ٢٣/ ٥٤٦ .

وقيل: إنَّ هذه الآيةَ نزلت في مُطْعِم بن ورقاء الأنصاريِّ؛ نذرَ نذرًا فوفَّى به[١].

وقيل: نزلت فيمن تكفَّل بأسرى بدر، وهم سبعة من المهاجرين: أبو بكر، وعمر، وعليّ، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد[٢]، وأبو عبيدة ﷺ؛ ذكره الماورديّ.

وقال مقاتل: نزلت في رجل من الأنصار؛ أطعم في يوم واحد مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا[٣].

وقال أبو حمزة الثُّمَالي: بلغني أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، أطعمني فإني واللهِ مجهود؛ فقال: «والذي نفسي بيده ما عندي ما أُطعمك، ولكن اطلب». فأتى رجلًا من الأنصار وهو يتعشَّى مع امرأته، فسأله، وأخبره بقول النبيِّ ﷺ؛ فقالت المرأة: أطعمه واسقِه. ثم أتى النبيَّ ﷺ يتيمٌ فقال: يا رسول الله، أطعمني فإني مجهود. فقال: «ما عندي ما أطعمك، ولكن اطلب» فاستطعم ذلك الأنصاريَّ، فقالت المرأة: اطعمه واسقِه، فأطعمه. ثم أتى النبيَّ ﷺ أسير فقال: يا رسول الله أطعمني فإني مجهود. فقال: «والله ما معي ما أطعمك، ولكن اطلب» فجاء الأنصاريَّ فطلب، فقالت المرأة: أطعمه واسقِه. فنزلت: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ذكره الثعلبيّ. وقال أهل التفسير: نزلت في عليٍّ وفاطمة رضي الله عنهما وجاريةٍ لهما اسمُها فضة.

قلت: والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار، ومَن فعل فعلًا حسنًا؛ فهي عامَّة. وقد ذكر النقَّاش والثَّعلبيُّ والقشيريُّ وغير واحدٍ من المفسِّرين في قصة عليٍّ وفاطمة وجاريتهما حديثًا لا يصحُّ ولا يثبت، رواه ليث عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله

(١) نسبه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٦٨ لجابر.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ١٦٧ : وسعيد، وهي غير واضحة في (ي).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٨، وأورده أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٣٢، وذكر أن الأنصاريَّ هو أبو الدحداح.

عزَّ وجلَّ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ قال: مرض الحسن والحسين فعادهما رسولُ الله ﷺ، وعادهما عمومة العرب؛ فقالوا: يا أبا الحسن ـ ورواه جابر الجُعْفيُّ عن قَنْبَر مولى عليٍّ قال: مرض الحسن والحسين حتى عادهما أصحاب رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر ﷺ: يا أبا الحسن. رجع الحديث إلى حديث ليث بن أبي سُليم ـ لو نذرتَ عن ولدك نذرًا[1]، وكلُّ نذر ليس له وفاء فليس بشيء. فقال ﷺ: إنْ بَرأَ ولدي[2]، صمت لله ثلاثةَ أيام شكرًا. وقالت جارية لهم نوبيَّة: إن بَرأَ سيِّداي، صمت لله ثلاثة أيام شكرًا. وقالت فاطمة مثلَ ذلك. وفي حديث الجُعْفي: فقال الحسن والحسين: علينا مثلُ ذلك. فأُلْبِس الغلامان العافية، وليس عند آل محمد قليلٌ ولا كثير، فانطلق عليٌّ إلى شمعون بن حاريا[3] الخيبريّ، وكان يهوديًّا، فاستقرض منه ثلاثة أَصْوُع[4] من شعير، فجاء به، فوضعه ناحيةَ البيت، فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته واختبزته، وصلَّى عليٌّ مع النبيِّ ﷺ، ثم أتى المنزل، فوُضع الطعامُ بين يديه. وفي حديث الجُعْفيّ: فقامت الجارية إلى صاع من شعير فخبزت منه خمسة أقراص، لكل واحدٍ منهم قرص، فلما مضى صيامهم الأوَّل، وضع بين أيديهم الخبز والملح الجريش؛ إذ أتاهم مسكين، فوقف بالباب وقال: السلام عليكم أهلَ بيت محمد. في حديث الجُعْفي: أنا مسكين من مساكين أمة محمدٍ ﷺ، وأنا والله جائع؛ أطعموني أطعمكم الله على موائد الجنة. فسمعه عليٌّ ﷺ، فأنشأ يقول:

فاطمَ[5] ذاتَ الفضل[6] واليقينْ يا بنتَ خيرِ الناس أجمعينْ

(١) في (م): ولديك شيئاً، وفي نوادر الأصول ص٦٤: ولديك نذراً.
(٢) في (م): ولداي.
(٣) في (د): جبار، وفي (ظ): جابر، وفي (ز) و(ي): جار. والمثبت من (م).
(٤) في النسخ الخطية: آصع.
(٥) في (د) و(ز) و(ي): أفاطم، وفي (ظ): أفاطمة.
(٦) في النسخ الخطية: السداد.

أما تَرَينَ البائسَ المسكين قد قام بالباب له حنين
يشكو إلى الله ويستكين يشكو إلينا[1] جائعٌ حزين
كلُّ امرئٍ بكسبه رهين وفاعلُ الخيرات يستبين[2]
موعدُنا جنةُ علِّيين حرَّمها اللهُ على الضَّنين
وللبخيل موقفٌ مهين تَهوي به النار إلى سجِّين
شرابه الحميم والغِسْلين من يفعلِ الخيرَ يقم سمين
ويدخلِ الجنة أيَّ حِين

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول:

أمرُكَ عندي يا ابنَ عمٍّ طاعهْ ما بيَ من لؤم ولا وَضاعهْ
عَدَلتُ[3] في الخبز له صناعه أُطعِمه ولا أُبالي السَّاعه
أرجو إذا أَشبعتُ ذا المجاعه أنْ أَلحقَ الأخيارَ والجماعه
وأدخلَ الجنةَ لي شفاعه

فأطعموه الطعام، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئًا إلَّا الماءَ القَرَاح، فلما أن كان في اليوم الثاني، قامت إلى صاع فطحنته واختبزته، وصلَّى عليٌّ مع النبيِّ ﷺ، ثم أتى المنزل، فوضع الطعام بين أيديهم؛ فوقف بالباب يتيم فقال: السلام عليكم أهلَ بيتِ محمد، يتيمٌ من أولاد المهاجرين، استشهد والدي يومَ العَقَبة. أطعموني أطعمكم الله على موائد الجنة. فسمعه عليٌّ فأنشأ يقول:

فاطمَ بنتَ السَّيدِ الكريمْ بنتَ نبيٍّ ليس بالزَّنيمْ[4]

(١) في (د) و(ي): إليها، وفي (ز) و(ظ): إلى الله.

(٢) في النسخ الخطية: وفاعل الخير سيستبين.

(٣) في (د) و(ز) و(ي): عديت، وفي (م): غديت.

(٤) الزنيم: المستلحقَ في قوم ليس منهم، والدَّعي، واللئيم المعروف بلؤمه أو شره. القاموس (زنم).

لقد أتى الله بذي اليتيم من يرحم اليومَ يكن رحيم
ويدخل الجنة أي سليم قد حرَّم الجنةَ للئيم[١]
ألَّا يجوزَ الصراطَ المستقيم يزلُّ في النار إلى الجحيم
شرابُه الصديدُ والحميم

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول:

أُطعِمه اليوم ولا أبالي وأوثر الله على عيالي
أَمسَوا جياعًا وهُم أَشْبالي أصغرهم يُقتَلُ في القتال
بِكَرْبَلَا يُقتَلُ باغتيال يا ويل لِلقاتل معْ وبال
تَهوي به النارُ إلى سَفَال وفي يديه الغُلُّ والأغلال
كُبُولةٌ زادت على الأكبال

فأطعموه الطعام، ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئًا إلَّا الماء القَرَاح[٢]؛ فلمَّا كانت في اليوم الثالث، قامت إلى الصاع الباقي فطحنته واختبزته، وصلَّى عليٌّ مع النبيِّ ﷺ، ثم أتى المنزل، فوضع الطعام بين أيديهم؛ إذ أتاهم أسيرٌ، فوقف بالباب فقال: السلام عليكم أهلَ بيت محمد، تأسِروننا وتَشُدُّوننا ولا تُطْعِموننا! أطعموني فإنِّي أسيرُ محمد. فسمعه عليٌّ فأنشأ يقول:

فاطمُ[٣] يا بنتَ النبيِّ أحمدْ بنت نبيٍّ سيِّدٍ مُسوَّدْ
سمَّاه[٤] الله فهو محمد قد زانه الله بحُسْنٍ أغيد
هذا أسِيرٌ للنبي المهتد مُثقَّلٌ في غُلِّه مُقيَّد

---

(١) في (م): قد حرم الخلد على اللئيم. وليس بشيء.

(٢) أي: الذي لا يشوبه شيء. الصحاح (قرح).

(٣) في (د) و(ز) و(ي): أفاطم.

(٤) في (م): وسماه.

يشكو إلينا الجوعَ قد تمدَّد   من يُطعمِ اليومَ يجِده في غد
عند العليِّ الواحد الموحَّد   ما يزرع الزارعُ سوف يَحصُد
أَعطيه لا لا تجعليه أقعد

فأنشأت فاطمة رضي الله تعالى عنها تقول:

لم يَبْقَ ممَّا جاء غيرُ صاعْ   قد ذهبت كفِّي مع الذِّراعْ
ابناي والله هُما جِياع   يا ربِّ لا تتركهما ضِياع
أبوهما للخير ذو اصطناع[١]   يَصطنع المعروفَ بابتداع
عَبْلُ[٢] الذِّراعين شديدُ الباع   وما على رأسيَ مِن قِناع
إلَّا قناعًا نَسْجُه أَنْساع[٣]

فأعطوه الطعام، ومكثوا ثلاثة أيام وليالَيها لم يذوقوا شيئًا إلَّا الماء القَراح، فلما أن كان في اليوم الرابع، وقد قضى اللهُ النذر، أخذ عليٌّ بيده اليمنى الحسنَ، وبيده اليسرى الحسين، وأقبل نحو رسول الله ﷺ وهم يرتعشون كالفراخ من شدَّة الجوع؛ فلمَّا أبصرهم رسولُ الله ﷺ قال: «يا أبا الحسن! ما أشدَّ ما يسوؤني ما أرى بكم، انطلق بنا إلى ابنتي فاطمة». فانطلقوا إليها وهي في محرابها قد لَصِقَ بطنها بظهرها، وغارت عيناها من شدة الجوع، فلما أن رآها رسولُ الله ﷺ وعرف المجاعة في وجهها، بكى وقال: «واغوثاه يا الله، أهلُ بيت محمدٍ يموتون جوعًا». فهبط جبريل عليه السلام وقال: السلام عليك، ربُّك يقرئك السلام يا محمد، خذه هنيئًا في أهل بيتك. قال: «وما آخذ يا جبريل؟» فأقرأه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ إلى

(١) في (د) و(ز) و(ظ): هو صناع، والبيت ساقط من (ي).

(٢) أي: ضخمهما. الصحاح (عبل).

(٣) في (د): بساع، وفي (ظ): سباع، وفي (ز) و(ي): نساع، والمثبت من (م)، والأنساع: جمع نِسْع: سَيْر ينسج عريضاً على هيئة أعنة النعال، تشد به الرحال. القاموس (نسع).

قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

قال الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله في «نوادر الأصول»[١]: فهذا حديثٌ مُزوَّق مُزيَّف، قد تَطرَّف فيه صاحبه حتى تَشبَّه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث يَعَضُّ شفتيه تلهُّفًا ألَّا يكونَ بهذه الصفة، ولا يعلمُ أنَّ صاحب هذا الفعل مذموم؛ وقد قال الله تعالى في تنزيله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وهو الفضل الذي يَفْضُل عن نفسك وعيالك، وجرت الأخبار عن رسول الله ﷺ متواترة بأنَّ «خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى»[٢] «وابدأ بنفسك ثم بمن تعول»[٣] وافترض الله على الأزواج نفقةَ أهاليهم وأولادِهم. وقال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيِّع مَن يَقُوت»[٤]، أفيحسب عاقلٌ أنَّ عليًّا جهل هذا الأمرَ، حتى أجهد صبيانًا صغارًا من أبناء خمسٍ أو ستٍّ على جوع ثلاثة أيام ولياليهنّ، حتى تَضوَّروا من الجوع، وغارت العيون منهم؛ لخَلاء أجوافهم، حتى أبكى رسولَ الله ﷺ ما بهم من الجهد. هَبْ أنه آثَرَ على نفسه هذا السائلَ، فهل كان يجوز له أن يَحْمِلَ أهله على ذلك؟! وهَبْ أنَّ أهله سمحت بذلك لعليّ، فهل جاز له أن يحمل على أطفاله جوعَ ثلاثةِ أيامٍ بلياليهنّ؟! ما يروج مثلُ هذا إلَّا على حَمْقى جهَّال؛ أبى الله لقلوب متنبهة أن تظنَّ بعليٍّ مثلَ هذا. وليت شعري! مَن حفظ هذه الأبياتَ كلَّ ليلة عن عليٍّ

---

(١) ص٦٥ .

(٢) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٧٧٤١)، والبخاري (١٤٢٦). وسلف ٣/ ٤٤٧ .

(٣) قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ١٨٤ : لم أره هكذا، بل في الصحيحين من حديث أبي هريرة: «... وابدأ بمن تعول» ولمسلم عن جابر في قصة المدبر في بعض الطرق: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك». اهـ.
وحديث أبي هريرة أخرجه أحمد (٧١٥٥)، والبخاري (١٤٢٦)، ومسلم (١٠٤٢)، وسلف ٦/ ٤٠ .
وحديث جابر أخرجه أحمد (١٤٩٧٠)، ومسلم (٩٩٧).

(٤) أخرجه أحمد (٦٤٩٥)، وأبو داود (١٦٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وسلف ٥/ ٢٢٥.

وفاطمة، وإجابةَ كلِّ واحدٍ منهما صاحبَه، حتى أدَّاه إلى هؤلاء الرُّواة؟! فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السُّجونِ فيما أرى. بلغني أنَّ قوماً يُخلَّدون في السجون فيبقون بلا حيلة، فيكتبون أحاديثَ في السَّمَر وأشباهه، ومثل هذه الأحاديثِ مفتعلة، فإذا صارت إلى الجهابذة رمَوا بها وزَيَّفوها، وما من شيء إلَّا وله آفةٌ ومكيدة، وآفة الدِّين وكَيْده أكثر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَاهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ «عَبُوسًا» من صفة اليوم، أي: يومًا تَعْبِس فيه الوجوه مِن هوله وشدَّته، فالمعنى: نخاف يومًا ذا عُبوس. وقال ابن عباس: يَعْبِس الكافر يومئذ حتى يسيلَ منه عرَقٌ كالقَطِران. وعن ابن عباس: العَبُوس: الضَّيِّق، والقَمْطَرِير: الطويل[(١)]؛ قال الشاعر:

شديدًا عبوسًا قَمْطَريرًا[(٢)]

وقيل: القَمطرير: الشديد؛ تقول العرب: يوم قَمْطرير وقُمَاطِر وعَصِيب بمعنًى؛ وأنشد الفرَّاء[(٣)]:

بني عَمِّنا هل تَذْكُرون بلاءَنا ... عليكم إذا ما كان يومٌ قُمَاطِرُ

بضمِّ القاف. واقْمَطَرَّ: إذا اشتدّ.

وقال الأخفش: القَمْطرير: أشدُّ ما يكون من الأيام وأطولُه في البلاء[(٤)]؛ قال الشاعر:

---

(١) أخرجهما الطبري ٢٣/ ٥٤٧ ، ٥٤٩ .

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٦٧ دون نسبة. وتمامه:

شديداً عبوساً قمطريراً تخاله ... تزول الضحى فيه قرون المناكب

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢١٦ ، وهو في تفسير الطبري ٢٣/ ٥٤٧ ، والصحاح (قمطر).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٩ ، وقاله أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٧٩ .

فـفِـرُّوا إذا مـا الـحـربُ ثـار غـبـارهـا ولـجَّ بـهـا الـيـومُ الـعَـبُـوسُ الـقُـمـاطِـرُ(١)

وقال الكسائي: يقال: اقْمَطَرَّ اليومُ وازْمَهَرَّ اقمطرارًا وازمِهرارًا، وهو القَمْطرير والزَّمْهرير، ويوم مُقْمَطِرٌ: إذا كان صعبًا شديدًا؛ قال الهذليّ:

بـنـو الـحـربِ أُرْضِـعـنـا لـهـم مُـقْـمَـطِـرَّةً ومَـن يُـلْـقَ مِـنَّـا ذلـك الـيـومَ يَـهـربُ(٢)

وقال مجاهد: إنَّ العُبوس بالشفتين، والقَمْطَرير بالجبهة والحاجبين؛ فجعلها من صفات الوجه المتغيِّر من شدائد ذلك اليوم؛ وأنشد ابن الأعرابيّ:

يَـغْـدو عـلـى الـصَّـيـد يـعـودُ مُـنـكـسِـرْ ويَـقْـمَـطِـرُّ سـاعـةً ويَـكْـفَـهِـرّْ(٣)

وقال أبو عبيد(٤): يقال: رجل قَمْطرير، أي: منقبض(٥) ما بين العينين.

وقال الزجَّاج(٦): يقال: اقْمَطَرَّت الناقة: إذا رَفَعت ذَنَبها وجَمَعت قُطْرَيها، وزَمَّت بأنفها. فاشتقَّه من القُطْر، وجعل الميم مزيدة. قال أسد بن ناعِصة(٧):

واصـطـلـيـتُ الـحـروبَ فـي كـلِّ يـومٍ بـاسـلِ الـشَّـر قَـمْـطَـريـرِ الـصَّـبـاحِ

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: دفع عنهم ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ أي: بأسَه وشدَّته وعذابَه ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ أي: آتاهم وأعطاهم حين لَقُوه، أي: رأوه ﴿نَضْرَةً﴾ أي: حسناً ﴿وَسُرُورًا﴾ أي: حُبوراً.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤١١ .

(٢) البيت لحذيفة بن أنس الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ٣/ ٢٥ ، وروايته: فمَن يُلقَ منا يُلقَ سِيْدٌ مدرَّبُ. قال شارحه: المُقْمَطِرَّة: الكالحة الشنيعة، يقول: أُرضعنا بها وقد تهيأت للشر. السِّيْد في كلام هذيل: الأسد.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٦٧ .

(٤) في (د) و(ظ) و(م): أبو عبيدة، والمثبت من (ز) و(ي)، وهو الموافق لما في تهذيب اللغة ٩/ ٤٠٨ .

(٥) في (م): متقبض، وفي (ي): مقتبض، وفي تهذيب اللغة: مقبض.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٢٥٩ ، ونقل كلامه الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩٧ .

(٧) التنوخي. شاعر جاهلي قديم. له في أشعاره ألفاظ غريبة وحشية. وكان هو وأهل بيته نصارى. المؤتلف والمختلف للآمدي ص٢٩٩ . والبيت في الكشاف.

قال الحسن ومجاهد: «نَضْرَةً» في وجوههم «وَسُرُورًا» في قلوبهم.

وفي النضرة ثلاثةُ أوجه: أحدها: أنها البياض والنَّقاء؛ قاله الضحَّاك. الثاني: الحُسْن والبهاء؛ قاله ابن جبير. الثالث: أنها أثر النعمة؛ قاله ابن زيد(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ على الفقر(٢). وقال القُرَظيّ: على الصوم. وقال عطاء: على الجوع(٣) ثلاثة أيام، وهي أيام النذْر. وقيل: بصبرهم على طاعة الله(٤)، وصبرِهم عن معصية الله ومحارمه(٥). و«ما»: مصدرية، وهذا على أنَّ الآية نزلت في جميع الأبرار ومَن فعل فعلًا حسنًا.

وروى ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ سئل عن الصبر فقال: «الصبر أربعة: أوَّلها الصبر عند الصدمة الأولى، والصبر على أداء الفرائض، والصبر على اجتناب محارم الله، والصبر على المصائب»(٦).

﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي: أدخلهم الجنةَ وألبسهم الحرير. أي: يسمَّى بحرير الدنيا(٧). وكذلك الذي في الآخرة ما شاء الله عزَّ وجلَّ من الفضل. وقد تقدَّم(٨) أنَّ مَن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإنما أُلبسه مَن أُلبسه في الجنة عوضًا عن

---

(١) النكت والعيون ٦/١٦٨ - ١٦٨ ، وقول الحسن أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٥٠ .

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٤٢٩ عن الضحاك.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٩ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٦٨ .

(٥) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٥/ ١٠٠ عن قتادة.

(٦) لم نقف عليه، وقوله منه: «الصبر عند الصدمة الأولى» أحمد (١٢٤٥٨)، والبخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦) من حديث أنس ﷺ. وسلف ٢/ ٤٦٣ .

(٧) في (ظ): أي بدل حرير الدنيا.

(٨) ١٤/ ٣٤٧ .

حبسهم أنفسَهم في الدنيا عن الملابس التي حرَّم الله فيها.

قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة؛ ونصب «مُتَّكِئِينَ» على الحال من الهاء والميم في «جَزَاهُمْ»، والعامل فيها «جزى» ولا يعمل فيها «صَبَرُوا»؛ لأن الصبر إنما كان في الدنيا، والاتِّكاء في الآخرة[١]. وقال الفرَّاء[٢]: وإن شئت جعلت «مُتَّكِئِينَ» تابعًا، كأنه قال: جزاهم جنةً «مُتَّكئين فيها».

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: السُّرُر في الحِجَال[٣]، وقد تقدَّم[٤]. وجاءت عن العرب أسماءٌ تحتوي على صفات: أحدها الأريكة، لا تكون إلَّا في حَجَلة على سرير، ومنها السَّجْل، وهو الدَّلْو الممتلئ ماءً، فإذا صَفِرت لم تُسمَّ سَجْلًا، وكذلك الذَّنُوب لا تُسمَّى ذَنُوبًا حتى تُملأ، والكأس لا تسمى كأسًا حتى تُترَع من الخمر. وكذلك الطَّبَق الذي تُهْدى عليه الهدية: مِهْدَى، فإذا كان فارغًا قيل: طَبَق أو خِوان؛ قال ذو الرُّمَّة:

خُدُوداً جَفَتْ في السَّير حتى كأنَّما يُباشِرْنَ بالمَعْزاء مَسَّ الأرائكِ[٥]

أي: الفرش على السرر.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ أي: لا يرون في الجنة شدَّةَ حرٍّ كحرِّ الشمس ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾

---

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٠ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢١٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٩ . والحِجال جمع: حَجَلة، وهي بيت يزين بالثياب والأَسِرَّة والستور. الصحاح (حجل).

(٤) ١٣/ ٢٦٨ .

(٥) في النسخ: خدودٌ جفت. . . ، والمثبت من ديوان ذي الرمة، وشرحه ٣/ ١٧٢٩ ، وقبله:

إذا وقَّعوا وهْناً كسَوْا حيث موَّتت من الجهد أنفاس الرياح الحواشك

قال شارحه: وهناً: بعد هُدُوٌ من الليل. الحشك: أن تمر الرياح مختلفة مندفعة مجتهدة. جفت في السير، أي: لم تطمئن. وقوله: كأنما يباشرن، يعني الخدود. المَعْزاء: أرض غليظة ذات حصى. يقول: كأنهن إذا وقَّعن على المَعْزَاء وجدن بها مسَّ الأرائك من التعب. أي: ألقوا أنفسهم بالموضع الذي ماتت الريح فيه، أي: سكنت من الجهد. أي: ألقوا أنفسهم فكانوا كسوة للمكان. وأراد: كسوا خدودهم، أي: صيروا المكان [الذي] ناموا فيه كسوة للخدود.

أي: ولا بردًا مُفْرِطًا؛ قال الأعشى:

مُـنَـعَّـمَـةٍ طَـفْـلَـةٍ كـالْـمَـهَـا ة لـم تَـرَ شـمـسًـا ولا زَمْـهـريـرا(١)

وعن أبي صالح، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النارُ إلى ربِّها عزَّ وجلّ، قالت: يا ربّ! أَكَلَ بعضي بعضًا، فجَعَلَ لها نَفَسَين: نَفَسًا في الشتاء، ونَفَسًا في الصّيف، فشدَّةُ ما تجدون من البرد مِن زمهريرها، وشدَّة ما تجدون من الحرِّ في الصيف من سَمُومها»(٢).

وعن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ هواء الجنة سَجْسَج؛ لا حرٌّ ولا بردٌ»(٣) والسَّجْسَج: الظِّلُّ الممتدُّ كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

وقال مُرَّة الهمداني: الزمهرير: البرد القاطع. وقال مقاتل بن حيَّان: هو شيءٌ مثل رؤوس الإبر ينزل من السماء في غاية البرد. وقال ابن مسعود: هو لونٌ من العذاب(٤)، وهو البرد الشديد، حتى إنَّ أهل النار إذا أُلْقوا فيه سألوا الله أن يعذِّبهم بالنار ألفَ سنة أهونَ عليهم من عذاب الزمهرير يومًا واحدًا. قال أبو النَّجْم:

أو كـنـت ريـحًـا كـنـت زَمْـهـريـرا(٥)

وقال ثعلب: الزَّمْهرير: القمر بلغة طيِّئ؛ قال شاعرهم:

ولـيـلـةٍ ظـلامُـهـا قـد اعـتَـكَـرْ قَـطَـعْـتُـهـا والـزَّمْـهـريـرُ مـا زَهَـرْ(٦)

---

(١) ديوانه ص١٤٥، وفيه: مبتَّلةِ الخَلْق، مثل المهاة...، وقبله:

فَـبـانَ بـحـسـنـاءَ بـرَّاقـةٍ على أنَّ في الـطـرف مـنـهـا فـتـورا

طفلة: رَخْصة ناعمة. مبتلة الخلق: متناسقة الأعضاء بالغة الحسن. المهاة: بقرة الوحش.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٩٢)، وابن ماجه (٤٣١٩) واللفظ له. وأخرجه أحمد (٧٧٢٢)، والبخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧) من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة ﷺ. وسلف الحديث ١٧/ ٣٧٠.

(٣) لم نقف عليه مرفوعاً، وقد أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٢٥)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١٠٠ عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفاً.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٥٢.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٦٩، والكشاف ٤/ ١٩٧، ووقع في (د)، والنكت والعيون: ما ظهر.

ويروى: ما ظهر، أي: لم يطلع القمر. فالمعنى: لا يرون فيها شمسًا كشمس الدنيا ولا قمرًا كقمر الدنيا، أي: إنهم في ضياء مستديم، لا ليل فيه ولا نهار؛ لأنَّ ضوء النهار بالشمس، وضوء الليل بالقمر. وقد مضى هذا المعنى مجوَّدًا في سورة مريم عند قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [الآية: ٦٢].

وقال ابن عباس: بينما أهل الجنة في الجنة إذ رأوا نوراً ظنُّوه شمسًا، قد أشرقت بذلك النور الجنة، فيقولون: قال ربنا: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ فما هذا النور؟ فيقول لهم رضوان: ليست هذه شمس ولا قمر، ولكنَّ هذه فاطمة وعليٌّ ضحكا، فأشرقت الجِنَان من نور ضحكهما، وفيهما أنزل الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ وأنشد:

أنا مولًى لفتًى أُنْزِلَ فيه هل أتى
ذاك عليٌّ المرتَضَى وابنُ عمِّ المصطفَى[(١)]

قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ أي: ظِلُّ الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار، فهي مُظِلَّة عليهم زيادةً في نعيمهم، وإن كان لا شمس ولا قمر ثَمَّ؛ كما أن أمشاطهم الذهبُ والفضة، وإن كان لا وسخ ولا شَعَث ثَمَّ. ويقال: إنَّ ارتفاع الأشجار في الجنة مقدار مئة عام، فإذا اشتهى وليُّ الله ثمرتَها تدانت منه حتى يتناولَها.

وانتصب «دانيةً» على الحال عطفًا على «مُتَّكئين» كما تقول: في الدار عبدُ الله متكئًا ومرسَلةً عليه الحِجَال. وقيل: انتصب نعتًا للجنة، أي: وجزاهم جنةً دانيةً، فهي صفةٌ لموصوف محذوف. وقيل: على موضع «لا يرَوْنَ فيها شمسًا ولا زَمْهريرًا» ويرون دانيةً. وقيل: على المدح، أي: دنت دانيةً. قاله الفراء[(٢)]. «ظِلَالُهَا» الظلال مرفوعة بدانية، ولو قُرئ برفع «دانية» على أن تكون الظلال مبتدأً و«دانية» الخبر

(١) خبر واضح البطلان.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢١٦، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٠، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٨٤ - ٧٨٥.

لجاز، وتكون الجملة في موضع الحال من الهاء والميم في «وجزاهُمْ». وقد قرئ بذلك[(١)]. وفي قراءة عبد الله: «وَدَانِيًا عَلَيْهِمْ»[(٢)]؛ لتقدُّم الفعل. وفي حرف أُبيّ: «وَدَانٍ»[(٣)] رفع على الاستئناف.

﴿وَذُلِّلَتْ﴾ أي: سُخِّرت لهم ﴿قُطُوفُهَا﴾ أي: ثمارها ﴿تَذْلِيلًا﴾ أي: تسخيرًا، فيتناولها القائمُ والقاعد والمضطجع، لا يَرُدُّ أيديَهم عنها بُعدٌ ولا شوك؛ قاله قتادة. وقال مجاهد: إن قام أحد ارتفعت له، وإن جلس تدلَّت عليه، وإن اضطجع دنت منه فأكل منها[(٤)]. وعنه أيضًا: أرض الجنة من وَرِق، وترابها الزعفران، وطيبها مِسْكٌ أذفر، وأصول شجرها ذهبٌ ووَرِق، وأفنانها اللؤلؤ والزَّبرجد والياقوت، والثمر تحت ذلك كلِّه؛ فمَن أكل منها قائماً لم تؤذِه، ومَن أكل منها قاعدًا لم تؤذِه، ومَن أكل منها مضطجعًا لم تؤذِه[(٥)]. وقال ابن عباس: إذا هَمَّ أن يتناول من ثمارها، تدلَّت إليه حتى يتناولَ منها ما يريد[(٦)].

وتذليل القطوف: تسهيل التناول. والقطوف: الثمار، الواحد: قِطْف، بكسر القاف، سمِّي به لأنه يُقطَف، كما سمِّي الجَنَى لأنه يُجنى. «تَذْلِيلًا» تأكيد لما وُصف به من الذِّلّ؛ كقوله: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

الماورديُّ[(٧)]: ويحتمل أن يكون تذليلُ قطوفها أن تَبْرُزَ لهم من أكمامها، وتَخْلُصَ لهم مِن نواها.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٩٧، والقراءة شاذة.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٦، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠١.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٦، وإعراب القرآن ٥/ ١٠١.

(٤) أخرجهما الطبري ٢٣/ ٥٥٣ - ٥٥٤.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٩٥.

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٣.

(٧) في النكت والعيون ٦/ ١٧٠.

قلت: وفي هذا بُعد؛ فقد روى ابن المبارك قال: أخبرنا سفيان، عن حماد، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: نخل الجنة: جذوعها زُمُرُّد أخضر، وكَرَبُها ذهب أحمر، وَسَعفها كُسْوة لأهل الجنة، منها مُقطَّعاتهم وحُلَلهم، وثمرها أمثال القِلَال والدِّلاء، أشدُّ بياضًا من اللَّبَن، وأحلى من العسل، وألينُ من الزُّبْد، ليس فيه عَجَم(١).

قال أبو جعفر النحَّاس: ويقال: المذلَّل: الذي قد ذلَّله الماءُ، أي: أرواه. ويقال: المذلَّل: الذي يُفَيِّئُه أدنى ريح؛ لنَعْمته، ويقال: المذلَّل: المُسَوَّى؛ لأنَّ أهل الحجاز يقولون: ذَلِّلْ نَخْلك، أي: سَوِّه، ويقال: المُذَلَّل: القريب المتناوَل؛ من قولهم: حائط ذَليلٌ، أي: قصير. قال أبو جعفر: وهذه الأقوال التي حكيناها ذكرها أهل العلم باللغة وقالوها في قول امرئ القيس:

وساقٍ كأُنبوب السَّقيِّ المُذَلَّلِ(٢)

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: يدور على هؤلاء الأبرارِ الخَدَمُ إذا أرادوا الشراب «بآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ». قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيءٌ ممَّا

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (٤٣٨٤) من طريق ابن المبارك بهذا الإسناد. وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ٩٧/٢ ، وهناد في الزهد (٩٩)، وابن أبي حاتم ٣٣٢٨/١٠ (١٨٧٥٨)، والحاكم ٤٧٥/٢ - ٤٧٦ من طرق عن سفيان، به. وأخرجه المروزي في زيادات الزهد (١٤٨٨) عن عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن حماد، عن سعيد بن جبير قال.. ولم يذكر ابن عباس. قال محققه: زاد في (ك): عن ابن عباس. اهـ. وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٢٠٨٧٠) عن معمر، عن قتادة أو غيره، عن سعيد بن جبير قال.. ولم يذكر ابن عباس رضي الله عنهما. الكَرَب، بالتحريك: أصل السَّعَف. وقيل: ما يبقى من أصوله في النخلة بعد القطع. العَجَم، بالتحريك: النوى. النهاية (كرب) (عجم).

(٢) شرح الديوان ص١٧ . وصدره: وكشحٍ لطيف كالجديل مخصَّرٍ. قال شارحه: الكشح: الخصر. الجديل: زمام يتخذ من سيور، وهو ليِّن. السقي: النخل المسقي.

في الجنة إلَّا الأسماء، أي: ما في الجنة أشرفُ وأعلى وأنقى. ثم لم تُنْفَ الأواني الذهبية، بل المعنى: يُسقون في أواني الفضة، وقد يسقون في أواني الذهب. وقد قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف:٧١]. وقيل: نَبَّه بذِكْر الفضَّة على الذهب؛ كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١] أي: والبرد؛ فنبَّه بذكر أحدهما على الثاني.

والأكواب: الكِيزان العِظَام التي لا آذان لها ولا عُرًى، الواحد منها كوب؛ وقال عَدِيّ:

مُتَّكِئًا تُقْرَعُ أبوابُهُ يَسعى عليه العبدُ بالكوبِ

وقد مضى في «الزخرف»[١].

﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ . قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: في صفاء القوارير وبياضِ الفِضَّة؛ فصفاؤها صفاء الزجاج وهي من فضّة. وقيل: أرض الجنة من فضّة، والأواني تتخذ من تربة الأرض التي هي منها. ذكره ابن عباس، وقال: ليس في الجنة شيءٌ إلَّا قد أُعطيتم في الدنيا شِبْهَه، إلَّا القواريرَ من فضة[٢]. وقال: لو أخذتَ فضَّةً من فضّة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذُّبَاب، لم تَرَ مِن ورائها الماء، ولكن قوارير الجنة مثل الفضّة في صفاء القوارير[٣].

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ قراءة العامة بفتح القاف والدال؛ أي: قَدَّرها لهم السُّقاة الذين يطوفون بها عليهم. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: أُتوا بها على قَدْر رِيِّهم بغير زيادة ولا نقصان. الكلبي[٤]: وذلك ألذُّ وأشهى؛ والمعنى: قدَّرتها الملائكة التي

---

(١) ١٩/ ٨١ - ٨٢ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٣٠١ .

(٣) بعدها في النسخ الخطية: المكاعب. والأثر ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٤٣١ ، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٣٨ ، والبيهقي في البعث والنشور (٣٤٨).

(٤) ذكر قوله وقول مجاهد الماوردي في النكت والعيون ٦/ ١٧٠ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٥٨ .

تطوف عليهم. وعن ابن عباس أيضًا: قدَّروها على مِلء الكفِّ لا تزيد ولا تنقص، حتى لا تؤذيَهم بثقل أو بإفراطِ صِغَر. وقيل: إنَّ الشاربين قَدَّروا لها مقادير في أنفسهم، على ما اشتهوا وقدَّروا.

وقرأ عبيد بن عمير[١] والشَّعْبيُّ وابن سيرين: «قُدِّروها» بضم القاف وكسر الدال؛ أي: جعلت لهم على قدر إرادتهم. وذكر هذه القراءةَ المهدويُّ عن عليٍّ وابن عباس رضي الله عنهما[٢]؛ وقال: ومَن قرأ: «قُدِّروها» فهو راجعٌ إلى معنى القراءة الأخرى، وكأنّ الأصل: قُدِّروا عليها، فحذف حرف الجر؛ والمعنى قُدِّرت عليهم؛ وأنشد سيبويه:

آلَيْتَ حَبَّ العِراقِ الدَّهرَ آكُلُهُ ... والحَبُّ يأكله في القرية السُّوسُ[٣]

وذهب إلى أنَّ المعنى: على حَبِّ العراق.

وقيل: هذا التقدير هو أنَّ الأقداح تطير فتغترف بمقدار شهوة الشارب؛ وذلك قولُه تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: لا يَفْضُلُ عن الرِّيِّ ولا ينقص منه، فقد أُلْهِمت الأقداحُ معرفةَ مقدار رِيِّ المشتهي حتى تغترف بذلك المقدار. ذكر هذا القولَ الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾ وهي الخمر في الإناء. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ «كَانَ» صِلَة؛ أي: مزاجها زنجبيل، أو كان في حكم الله زنجبيلًا. وكانت العرب تستلذُّ من الشراب ما يُمزج بالزنجبيل لِطيب رائحتِهِ؛ لأنه يَحْذُو اللسان، ويَهضِم المأكول[٥]،

---

(١) في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠١ - ١٠٢ : عبد الله بن عبيد بن عمير، وينظر القراءات الشاذة ص١٦٦ .

(٢) وذكرها عنهما وعن الشعبي ابن خالويه في القراءات الشاذة.

(٣) قائله المتلمس، وهو في ديوانه ص٩٥ ، وسلف ٤/ ٣١٩ .

(٤) ص٣٣٩ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٧٠ ، وقوله: يحذو، أي: يقرص .

فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهايةَ النعمة والطيب.

وقال المسيَّب بن عَلَس[(١)] يصف ثَغْرَ المرأة:

وكـأن طَـعْـمَ الـزنـجـبـيـل بـه ... إذْ ذُقْـتَـهُ وسُـلَافَـةَ الـخـمـرِ[(٢)]

ويروى: الكَرْم. وقال آخر:

كـأنَّ جَـنِـيًّـا مِـن الـزَّنْـجَـبِـيـ ... ـل بـاتَ بِـفِـيـهـا وأرْيًـا مَـشُـورا[(٣)]

ونحُوه قولُ الأعشى:

كـأنَّ الـقَـرَنْـفُـلَ والـزَّنْـجَـبِـيـ ... ـلَ بـاتـا بِـفـيـهـا وأريًـا مَـشُـورا[(٤)]

وقال مجاهد: الزنجبيل: اسم للعين التي منها مزاج شراب الأبرار. وكذا قال قتادة: الزَّنجبيل: اسم للعين التي يشرب بها المقرَّبون صِرفًا، وتُمزج لسائر أهل الجنة[(٥)]. وقيل: هي عينٌ في الجنة يوجد فيها طعمُ الزنجبيل[(٦)]. وقيل: إنَّ فيه معنى الشراب الممزوجِ بالزنجبيل. والمعنى: كأنَّ فيها زنجبيلًا.

﴿عَيْنًا﴾ بدل من كأس. ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل، أي: يُسقون عينًا[(٧)]. ويجوز نصبه بإسقاط الخافض، أي: مِن عين، على ما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٦]. ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة.

﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ السَّلْسبيل: الشراب اللذيذ، وهو فَعْلَلِيل من السَّلَاسة[(٨)]؛ تقول

---

(١) هو من شعراء بكر بن وائل المعدودين، وخال الأعشى، يكنى أبا الفضة، واسمه زهير بن علس، وإنما لقب «المسيَّب» ببيت قاله. وهو جاهلي لم يدرك الإسلام. الشعر والشعراء ١/ ١٧٤ .

(٢) الشعر والشعراء، والنكت والعيون ٦/ ١٧١ ، والكشاف ٤/ ١٩٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٢ .

(٣) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٤٣ ، وفيه: خالط فاها، بدل: بات بفيها. الأري: عسل النحل. شار العسل واشتاره: جمعه.

(٤) الكشاف ٤/ ١٩٨، وينظر ما قبله .

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٦١ ، وقول مجاهد في النكت والعيون ٦/ ١٧٠ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٠ .

(٧) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٨٥ .

(٨) في (د) و(م): السلالة، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٢ . والكشاف ٤/ ١٩٩ .

العرب: هذا شراب سَلِسٌ وسَلْسَال وسَلْسَلٌ وسَلْسَبِيل بمعنًى؛ أي: طَيِّبُ الطعم لذيذُه. وفي الصحاح[(١)]: وتسلسل الماء في الحلق: جرى، وسَلْسَلْتُه أنا: صببته فيه، وماء سَلْسَل وسَلْسَال: سهل الدخول في الحلق؛ لعذوبته وصفائه، والسُّلاسل بالضمِّ مثلُه. وقال الزجَّاج[(٢)]: السَّلْسبيل في اللغة: اسمٌ لما كان في غاية السَّلَاسة؛ فكأنَّ العين سمِّيت بصفتها.

وعن مجاهد قال[(٣)]: سَلْسَبيلاً: حديدة الجَرْية، تسيل في حلوقهم انسلالًا. ونحوه عن ابن عباس: إنها الحديدة الجَرْي. ذكره الماورديّ[(٤)]؛ ومنه قول حسان بنِ ثابت ﷺ:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ عليهمُ   بَرَدى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلسَلِ[(٥)]

وقال أبو العالية ومقاتل: إنما سمِّيت سَلْسَبيلًا؛ لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم، تنبع من أصل العرش من جنة عَدْنٍ إلى أهل الجنة[(٦)]. وقال قتادة: سَلِسةٌ منقادٌ ماؤها حيث شاؤوا[(٧)]. ونحوه عن عِكرمة. وقال القَفَّال: أي: تلك عين شريفة فَسَلْ سَبِيلًا إليها. وروي هذا عن عليٍّ ﷺ[(٨)].

وقوله: ﴿تُسَمَّىٰ﴾ أي: إنها مذكورةٌ عند الملائكة وعند الأبرار وأهلِ الجنة بهذا

---

(١) مادة (سلل).

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٦١ .

(٣) أخرج قوله الطبري ٢٣/ ٥٦٢ .

(٤) في النكت والعيون ٦/ ١٧١ عن مجاهد.

(٥) ديوانه ص١٨٠ . البريص: موضع بدمشق كما في القاموس (برص). وفي التاج: يقال: البريص اسم للغوطة بأجمعها.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٣٠ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٦١ .

(٨) الكشاف ٤/ ١٩٨ ، والنكت والعيون ٦/ ١٧١ . قال الزمخشري: وهذا غير مستقيم على ظاهره، إلا أن يراد أن جملة قول القائل: سل سبيلًا، جعلت علماً للعين كما قيل: تأبط شراً... وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع، وعزوه إلى مثل علي ﷺ أبدع.

الاسم. وصرف «سلسبيل»؛ لأنه رأس آية؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠، ٦٧].

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ بيَّن مَن الذي يطوف عليهم بالآنية؛ أي: ويخدمهم ولدان مُخلَّدون، فإنهم أخفُّ في الخدمة. ثم قال: «مُخَلَّدُونَ» أي: باقون على ما هم عليه من الشَّباب والغَضاضة والحُسْن، لا يَهْرَمون ولا يتغيَّرون، ويكونون على سِنٍّ واحدة على مَرِّ الأزمنة. وقيل: مُخلَّدون لا يموتون. وقيل: مُسوَّرون مُقرَّطون، أي: مُحلَّون، والتخليد: التحلية. وقد تقدَّم هذا[(١)].

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي: ظننتهم من حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم لؤلؤًا مفرَّقًا في عَرْصة المجلس، واللؤلؤ إذا نُثِر على بساط كان أحسنَ منه منظومًا[(٢)].

وعن المأمون أنه ليلة زُفَّت إليه بُوران بنت الحسن بنِ سهل، وهو على بساط منسوج من ذهب، وقد نَثَرَت عليه نساءُ دار الخليفة اللؤلؤَ، فنظر إليه منثورًا على ذلك البساط، فاستحسن المنظر وقال: للهِ دَرُّ أبي نُواس كأنه أبصر هذا حيث يقول:

كأنَّ صُغرى وكُبرى مِن فَوَاقِعِها[(٣)] حَصْباءُ درٍّ على أرضٍ مِن الذَّهبِ

وقيل: إنما شبَّههم بالمنثور؛ لأنهم سراعٌ في الخدمة، بخلاف الحور العين إذ شبَّههنَّ باللؤلؤ المكنون المخزون؛ لأنهنَّ لا يُمتَهنَّ بالخدمة.

---

(١) ٢٠/١٨٦ - ١٨٧.

(٢) الوسيط للواحدي ٤/٤٠٤، وتفسير البغوي ٤/٤٣٠.

(٣) في (ز) و(م): فقاقعها، وكذا في العقد الفريد ٦/٧٧، والخزانة ٨/٢٧٧. والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الديوان ص٤٠، وثمار القلوب للثعالبي ص١٦٦، ودرة الغواص ص٥٩، ومجمع الأمثال ١/٣٤، والكشاف ٤/١٩٩، والكلام منه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ «ثَمَّ»: ظرف مكان، أي: هناك في الجنة، والعامل في «ثَمَّ» معنى «رَأَيْتَ» أي: وإذا رأيت ببصرك «ثَمَّ». وقال الفرَّاء[(١)]: في الكلام «ما» مضمرة؛ أي: وإذا رأيت ما ثَمّ؛ كقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] أي: ما بينكم. وقال الزجَّاج[(٢)]: «ما» موصولة بـ «ثم» على ما ذكره الفرَّاء، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصِّلة، ولكن «رَأَيْتَ» يتعدَّى في المعنى إلى «ثَمَّ»، والمعنى: إذا رأيت ببصرك «ثَمَّ». ويعني بـ «ثَمَّ» الجنة، وقد ذكر الفرَّاء[(٣)] هذا أيضًا.

والنعيم: سائر ما يُتنعَّم به. والمُلْك الكبير: استئذان الملائكة عليهم؛ قاله السُّدِّيُّ وغيره. قال الكلبيّ: هو أن يأتيَ الرسولُ من عند الله بكرامة من الكُسْوة والطعام والشراب والتحف إلى وليِّ الله وهو في منزله، فيستأذن عليه؛ فذلك المُلْك العظيم. وقاله[(٤)] مقاتل بن سليمان.

وقيل[(٥)]: المُلْك الكبير: هو أن يكون لأحدهم سبعون حاجبًا، حاجبًا دون حاجب؛ فبينما وليُّ الله فيما هو فيه من اللَّذَّة والسرور، إذ يستأذن عليه مَلَكٌ من عند الله، قد أرسله الله بكتاب وهدية وتحفةٍ من ربِّ العالمين، لم يرها ذلك الوليُّ في الجنة قطّ، فيقول للحاجب الخارج: استأذن على وليِّ الله، فإنَّ معي كتابًا وهديةً من ربِّ العالمين. فيقول هذا الحاجب للحاجب الذي يليه: هذا رسولٌ من ربِّ العالمين، معه كتاب وهديَّة يستأذن على وليِّ الله؛ فيستأذن كذلك حتى يبلغ إلى الحاجب الذي يلي وليَّ الله، فيقول له: يا وليَّ الله! هذا رسولٌ من ربِّ العالمين يستأذن عليك،

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢١٨.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٦١، ومثله في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٣، والكشاف ٤/ ١٩٩.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢١٨.

(٤) في (ظ): وقال. وقول مقاتل والكلبي في الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٤، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣٠ بمعناه.

(٥) قوله: وقيل، من (م).

معه كتاب وتُحْفة من ربِّ العالمين، أفيؤذن له؟ فيقول: نعم! فأذنوا له. فيقول ذلك الحاجب الذي يليه: نَعَم فأذنوا له. فيقول الذي يليه للآخر كذلك، حتى يبلغ الحاجب الآخر، فيقول له: نَعَم أيها المَلَك؛ قد أذن لك، فيدخل، فيسلِّم عليه ويقول: السَّلامُ يُقرئك السَّلام، وهذه تحفة، وهذا كتاب من ربِّ العالمين إليك. فإذا هو مكتوب عليه: من الحيِّ الذي لا يموت، إلى الحيِّ الذي لا يموت[١]. فيفتحه فإذا فيه: سلام على عبدي ووليّي ورحمتي وبركاتي. يا وليّي، أمَا آن لك أن تشتاق إلى رؤية ربِّك؟ فيستخفُّه الشوق، فيركب البُرَاق، فيطير به البُرَاق شوقًا إلى زيارة علَّام الغيوب، فيعطيه ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقال سفيان الثوريّ: بلغَنا أنَّ المُلْك الكبير تسليمُ الملائكة عليهم[٢]؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

وقيل: المُلْك الكبير: كون التِّيجان على رؤوسهم كما تكون على رأس مَلِك من الملوك[٣].

وقال الترمذيُّ الحكيم: يعني مُلْك التكوين، فإذا أرادوا شيئًا قالوا له: كن. وقال أبو بكر الورَّاق: مُلْك لا يتعقَّبه هُلْك. وفي الخبر عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ المُلك الكبير هو: أدناهم منزلة ينظر في مُلْكه مسيرة ألفي عام، يَرَى أقصاه كما يرى أدناه» قال: «وإنَّ أفضلهم منزلةً مَن ينظر في وجه ربِّه تعالى كلَّ يومٍ مرتين»[٤].

قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قرأ نافع وحمزة وابن محيصن:

---

(١) كذا في النسخ، ولعل المراد أنه خالدٌ فيها لا يموت.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٦٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٣٢.

(٤) بعدها في (م): سبحان المنعم. والخبر لم نقف عليه، وأخرجه الترمذي (٣٣٣٠) بنحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

«عَالِيْهِمِ» ساكنةَ الياء[١]، واختاره أبو عبيد اعتباراً بقراءة ابن مسعود وابن وثَّاب وغيرهما: «عالِيَتُهُم»[٢] وبتفسير ابن عباس: أما رأيت الرجل عليه ثيابٌ يعلوها أفضلُ منها.

الفرَّاء: وهو مرفوع بالابتداء، وخبرُه: «ثِيَابُ سُنْدُسٍ» واسم الفاعل يراد به الجمع. ويجوز في قول الأخفش أن يكون إفراده على أنه اسم فاعل متقدِّم، و«ثِيابُ» مرتفعة به وسَدَّت مسدَّ الخبر، والإضافة فيه في تقدير الانفصال؛ لأنه لم يمضِ[٣]، وابتدئ به لأنه اختصَّ بالإضافة.

وقرأ الباقون: «عَالِيَهُمْ» بالنصب. وقال الفرَّاء[٤]: هو كقولك: فَوْقَهم، والعرب تقول: قومُك داخلَ الدار، فينصبون «داخل» على الظرف، لأنه مَحلّ. وأنكر الزجَّاج هذا وقال[٥]: هو مما لا نعرفه في الظروف، ولو كان ظرفًا لم يجز إسكان الياء، ولكنه نصب على الحال من شيئين: أحدهما: الهاء والميم في قوله: «يطُوفُ عَلَيْهِمْ» أي: على الأبرار «وِلْدانٌ» عالياً الأبرارَ ثيابُ سندس؛ أي: يطوف عليهم في هذه الحال، والثاني: أن يكون حالًا من الوِلدان، أي: «إذا رأَيتَهم حَسِبْتَهم لؤلؤًا منثورًا» في حال علوِّ الثيابِ أبدانَهم.

وقال أبو عليّ[٦]: العامل في الحال إمَّا «لقَّاهم نَضْرةً وسرورًا» وإمَّا «جزاهم بما صبروا» قال: ويجوز أن يكون ظرفًا فصُرِف.

المهدوي: ويجوز أن يكون اسم فاعل ظرفًا؛ كقولك: هو ناحيةً من الدار،

---

(١) السبعة ص٦٦٤، والتيسير ص٢١٨. وقراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٥/ ٤١٣.

(٢) قراءة ابن مسعود في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٩، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٤.

(٣) في (م): يخصّ، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في الحجة لأبي علي ٦/ ٣٥٦.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢١٨ - ٢١٩.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٢٦٢.

(٦) في الحجة ٦/ ٣٥٤.

وعلى أنَّ «عاليًا» لمَّا كان بمعنى «فوق» أُجْرِي مُجْراه فجعل ظرفًا.

وقرأ ابن محيصن وابن كثير وأبو بكر عن عاصم: «خُضْرٍ» بالجرِّ على نعت السُّنْدس، «وَإِسْتَبْرَقٌ» بالرفع نَسْقًا على الثياب، ومعناه: عاليهم[١] سندسٌ وإستبرقٌ.

وقرأ ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب: «خُضْرٌ» رفعًا نعتًا للثياب «وَإِسْتَبْرَقٍ» بالخفض نعتًا للسُّنْدس، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم لجودة معناه؛ لأنَّ الخضر أحسنُ ما كانت نعتًا للثياب، فهي مرفوعة، وأحسن ما عطف الإستبرق على السُّنْدس عطفَ جنسٍ على جنس، والمعنى: عاليَهم ثيابٌ خُضْرٌ مِن سندسٍ وإستبرقٍ، أي: من هذين النوعين.

وقرأ نافع وحفص كلاهما بالرفع، ويكون «خُضْرٌ» نعتًا للثياب؛ لأنهما جميعًا بلفظ الجمع «وإِسْتَبْرَقٌ» عطفًا على الثياب.

وقرأ الأعمش وابن وَثَّاب وحمزة والكسائيُّ كلاهما بالخفض[٢]، ويكون قوله: «خُضْرٍ» نعتًا للسُّندس، والسُّندس اسم جنس، وأجاز الأخفش[٣] وصفَ اسم الجنس بالجمع على استقباح له؛ وتقول: أهلك الناسَ الدينارُ الصُّفْرُ والدرهمُ البِيضُ؛ ولكنه مستبعَدٌ في الكلام. والمعنى على هذه القراءة: عالِيهم ثِيابُ سُندسٍ خضرٍ وثيابُ إستبرقٍ.

وكلُّهم صرف الاستبرق إلا ابنَ محيصن، فإنه فتحه ولم يصرفه، فقرأ: «وإستبرقَ» نصبًا في موضع الجرّ، على منع الصرف[٤]، لأنه أعجميّ، وهو غلط، لأنه نكرة يدخله حرفُ التعريف؛ تقول: الإستبرق؛ إلَّا أن يزعم ابن محيصن أنه قد

(١) في النسخ الخطية: عليهم، والمثبت من (م).

(٢) السبعة ص٦٦٥، والتيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٣٩٠. وقراءة الأعمش في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٤، وقراءة ابن وثاب في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٩.

(٣) كلامه في الحجة للفارسي ٦/ ٣٥٧.

(٤) نسب هذه القراءة لابن محيصن الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٢٦٢، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩٩ - والكلام منه - دون نسبة.

يجعل علمًا لهذا الضرب من الثياب. وقرئ: «وَاسْتَبْرَقَ» بوصل الهمزة والفتح على أنه مسمًّى باستفعل من البريق[١]، وليس بصحيح أيضًا؛ لأنه مُعرَّب مشهور تعريبه، وأنَّ أصله: اسْتَبْرَه[٢].

والسُّندس: ما رَقَّ من الديباج. والإستبرق: ما غَلُظ منه. وقد تقدَّم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓا﴾ عطف على «ويطوف»[٤] ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وفي سورة فاطر: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الآية: ٣٣] وفي سورة الحج: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الآية: ٢٣]، فقيل: حُليُّ الرجل الفضة، وحُليُّ المرأة الذهب. وقيل: تارةً يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضَّة. وقيل: يجمع في يد أحدهم سواران من ذهب وسواران من فضَّة وسواران من لؤلؤ، ليجتمع لهم محاسنُ الجنة؛ قاله سعيد ابن المسيّب. وقيل: أي: لكل قومٍ ما تميل إليه نفوسُهم.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ قال عليٌّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ قال: إذا توجَّه أهلُ الجنة إلى الجنة، مرُّوا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فيشربون من إحداهما، فتجري عليهم بنضرة النَّعيم، فلا تتغير أبشارهم، ولا تتشعَّث أشعارهم أبدًا، ثم يشربون من الأخرى، فيخرج ما في بطونهم من الأذى، ثم تستقبلهم خَزنة الجنة، فيقولون لهم: «سَلَامٌ عليكم طِبتُم فادخلوها خالدين» [الزمر: ٧٣].

وقال النَّخعيُّ وأبو قِلابة: هو إذا شربوه بعد أكلهم طَهَّرهم، وصار ما أكلوه وما

---

(١) هي قراءة ابن محيصن كما في القراءات الشاذة ص١٦٦، والمحتسب ٢/ ٣٤٤، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٤.

(٢) في النسخ: استبرق، والمثبت من الكشاف ٤/ ١٩٩ والكلام منه، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٦٢. وفي القاموس (برق): استروه، وينظر التاج (برق).

(٣) ١٣/ ٢٦٦.

(٤) الكشاف ٤/ ١٩٩.

شربوه رَشْحَ مِسْك، وضَمَرت بطونهم[١].

وقال مقاتل: هو من عينِ ماءٍ على باب الجنة، تنبع من ساق شجرة، مَن شرب منها نزع اللهُ ما كان في قلبه من غِلّ وغشٍّ وحسدٍ، وما كان في جوفه من أذًى وقَذَر[٢].

وهذا معنى ما روي عن عليّ، إلَّا أنه في قول مقاتل عينٌ واحدة، وعليه فيكون فَعولًا للمبالغة، ولا يكون فيه حُجَّةٌ للحنفيِّ أنه بمعنى الطاهر. وقد مضى بيانه في سورة الفرقان، والحمد لله[٣].

وقال طيِّب[٤] الجمَّال: صَلَّيْتُ خَلْفَ سهل بنِ عبد الله العَتَمة، فقرأ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ وجعل يُحرِّك شفتيه وفمه، كأنه يَمَصُّ شيئًا، فلما فرغ قيل له: أتشرب أم تقرأ؟ فقال: واللهِ لو لم أجد لذَّته عند قراءته كلذَّته عند شربه ما قرأته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي: يقال لهم: إنما هذا جزاءٌ لكم، أي: ثواب. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ أي: عملكم ﴿مَّشْكُورًا﴾ أي: من قبل الله، وشكره للعبد قبول طاعته، وثناؤه عليه، وإثابتُه إياه.

وروى سعيد عن قتادة قال: غَفَرَ لهم الذَّنب، وشَكَرَ لهم الحَسَن[٥]. وقال مجاهد: «مَشْكُورًا» أي: مقبولًا، والمعنى متقارب؛ فإنه سبحانه إذا قبل العمل شكره، فإذا شكره أثاب عليه بالجزيل؛ إذ هو سبحانه ذو الفضل العظيم.

روي عن ابن عمر: أنَّ رجلًا حَبَشِيًّا قال: يا رسول الله! فُضِّلتم علينا بالصُّوَر

(١) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٦٩ - ٥٧٠ عن إبراهيم التيمي وأبي قلابة بنحوه. ونسبه للنخعي وأبي قلابة ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤١٤ ، وينظر الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣٠ .

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣١ بنحوه.

(٣) ١٥/ ٤٢٢ فما بعد.

(٤) في النسخ الخطية: طبيب، ولم نقف عليه.

(٥) في (م): الحسنى. والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق لما في تفسير الطبري ٢٣/ ٥٧١ .

والألوان والنبوَّة، أفرأيت إن آمنتُ بما آمنتَ به، وعملتُ بما عملت، أكائنٌ أنا معك في الجنة؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده إنه ليُرَى بياضُ الأسود في الجنة وضياؤه من مسيرة ألفِ عام» ثم قال النبيُّ ﷺ: «مَن قال: لا إله إلا الله، كان له بها عند الله عَهْد، ومَن قال: سبحان الله والحمد لله، كان له بها عند الله مئة ألفِ حسنةٍ وأربعةٌ وعشرون ألفَ حسنة»، فقال الرجل: كيف نَهلِك بعد هذا يا رسول الله؟ فقال: «إنَّ الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وُضع على جبل لأثقله. فتجيء النعمة من نِعم الله، فتكاد أن تستنفد ذلك كلَّه، إلَّا أن يلطف اللهُ برحمته». قال: ثم نزلت: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ قال الحبشيّ: يا رسول الله! وإنَّ عينيَّ لترى ما ترى عيناك في الجنة؟ فقال النبيُّ ﷺ: «نعم» فبكى الحبشيُّ حتى فاضت نَفْسُه. قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يُدْليه في حفرته[1] ويقول: «إنَّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكُم مشكوراً» قلنا: يا رسول الله، وما هو؟ قال: «والذي نفسي بيده لقد أوقفه الله ثم قال: أي عبدي! لأبيضنَّ وجهك، ولأُبوِّئَنَّك من الجنة حيث شئت، فنعم أجر العاملين».

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ ما افتريتَه ولا جئتَ به مِن عندك، ولا من تلقاء نفسك كما يدَّعيه المشركون. ووجه اتصال هذه الآيةِ بما قبلُ أنه سبحانه لمَّا ذكر أصناف الوعد والوعيد، بيَّن أنَّ هذا الكتابَ يتضمن ما بالناس حاجةٌ إليه، فليس بسِحر ولا كَهانة، ولا شِعر، وأنه حقّ. وقال ابن عباس: أُنزل القرآن متفرِّقًا،

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٦٠٤)، والكبير (١٣٥٩٥)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣١٩ دون الزيادة الآتية. بعده. قال أبو نعيم: هذا حديث غريب من حديث عطاء، تفرد به عفيف عن أيوب بن عتبة اليمامي. وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٤٢٠ : فيه أيوب بن عتبة، وهو ضعيف.

آية بعد آيةً، ولم ينزل جملةً واحدة[١]؛ فلذلك قال: «نَزَّلْنَا». وقد مضى القولُ في هذا مبيَّنًا، والحمد لله[٢].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لقضاء ربِّك. وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: اصبر على أذى المشركين؛ هكذا قضيت. ثم نسخ بآية القتال[٣]. وقيل: أي: اصبر لما حكم به عليك من الطاعات، أو انتظر حكم الله إذ وَعَدَكَ أنه ينصرك عليهم، ولا تستعجل فإنه كائنٌ لا محالة.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا﴾ أي: ذا إثم ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ أي: لا تطع الكفار. فروى مَعْمَر عن قتادة قال: قال أبو جهل: إنْ رأيتُ محمدًا يُصلِّي لأطأنَّ على عنقه. فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[٤].

ويقال: نزلت في عتبة بنِ ربيعة والوليد بنِ المغيرة، وكانا أتيا رسولَ الله ﷺ يَعْرِضان عليه الأموالَ والتزويج، على أن يترك ذكر النبوَّة، ففيهما نزلت: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾. قال مقاتل: الذي عرض التزويج عُتبة بنُ ربيعة؛ قال: إنَّ بناتي من أجمل نساء قريش، فأنا أزوِّجك ابنتي بغير مهر وارجع عن هذا الأمر. وقال الوليد: إن كنتَ صنعت ما صنعتَ لأجل المال، فأنا أعطيك من المال حتى ترضى وارجع عن هذا الأمر. فنزلت[٥].

ثم قيل: «أو» في قوله تعالى: ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أوْكَد من الواو؛ لأنَّ الواو إذا قلت: لا تطع زيدًا وعَمرًا، فأطاع أحدهما كان غيرَ عاص؛ لأنه أمرَه ألَّا يطيع الاثنين، فإذا قال: ﴿لَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ فـ «أو» قد دلَّت على أنَّ كلَّ واحد

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٣١ .

(٢) ١٥/ ٤٠٦ فما بعد.

(٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٤٠ : والمفسرون يقولون: هذا منسوخ بآية السيف، ولا يصح.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٧٢ .

(٥) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٤٣١ ، وينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٤٣٢ - ٤٣٣ .

منهما أهلٌ أن يُعصَى؛ كما أنك إذا قلت: لا تخالف الحسن أو ابنَ سيرين، أو اتَّبع الحسن أو ابن سَيرين، فقد قلت: هذان أهلٌ أن يُتَّبعا، وكلٌّ واحد منهما أهلٌ لأن يُتَّبع؛ قاله الزجَّاج(١).

وقال الفرَّاء: «أو» هنا بمنزلة «لا»، كأنه قال: ولا كفورًا؛ قال الشاعر:

لا وَجْدُ ثَكْلَى كما وَجِدْتُ ولا وَجْدُ عَجُولٍ أَضَلَّها رُبَعُ
أو وَجْدُ شيخٍ أَضلَّ ناقَتَه يومَ تَوافَى الحجيجُ فاندفعوا

أراد: ولا وجدُ شيخ(٢).

وقيل: الآثم: المنافق، والكفور: الكافر الذي يُظهر الكفر، أي: لا تطع منهم آثمًا ولا كفورًا. وهو قريبٌ من قول الفرَّاء.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: صلِّ لربِّك أولَ النهار وآخرَه، ففي أوَّله صلاةُ الصبح، وفي آخره صلاةُ الظهر والعصر ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء الآخرة ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ يعني التطوُّع في الليل؛ قاله ابن حبيب.

وقال ابن عباس وسفيان: كلُّ تسبيح في القرآن فهو صلاة(٣). وقيل: هو الذِّكر المطلَق، سواءٌ كان في الصلاة أو في غيرها.

وقال ابن زيد وغيره: إنَّ قوله: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ منسوخٌ بالصلوات

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٦٣ .

(٢) معاني القرآن ٣/ ٢١٩ - ٢٢٠ ، والبيتان في أمالي أبي علي ٢/ ١٢٣ منسوبين لمالك بن حريم، والبيت الثاني في الكامل ٢/ ٦٠٩ غير منسوب، وذكر محققه: أنه جاء في زيادات إحدى النسخ: لرجل من قضاعة يقال له: مالك بن عمرو. قوله: العجول: الثَّكلى، والواله من النساء والإبل؛ لعجلتها في حركاتها جزعاً. رُبَع: الفصيل يُنتج في الربيع، وهو أول النِّتاج. القاموس (عجل) (ربع).

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٧٢ - ١٧٣ ، وليس فيه: قاله ابن حبيب.

الخمس. وقيل: هو ندب. وقيل: هو مخصوصٌ بالنبيِّ ﷺ[١]. وقد تقدَّم القولُ في مثله في سورة المزَّمِّل[٢]. وقول ابن حبيب حسن.

وجمع الأصيل: الأصائل والأُصُل؛ كقولك: سَفَائن وسُفُن؛ قال:

ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُلُ[٣]

وقال في الأصائل، وهو جمع الجمع:

لَعَمْري لَأَنْتَ البيتُ أُكْرِمُ أَهلَه وأَقعدُ في أَفيائه بالأَصائلِ[٤]

وقد مضى هذا في آخر «الأعراف» مستوفًى. ودخلت «مِن» على الظرف للتبعيض، كما دخلت على المفعول في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[٥] [نوح: ٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾: توبيخٌ وتقريع، والمراد أهل مكة. والعاجلة: الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي: ويَدَعون ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ أي: بين أيديهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ أي: عسيرًا شديدًا[٦]، كما قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي: يتركون الإيمان بيوم القيامة.

---

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن ٥/ ١٠٨ ، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٣٣ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٨٧ ، وتفسير أبي الليث ٣/ ٤٣٣ . ورجح ابن العربي أنه للندب.

(٢) ص٣٢٠ من هذا الجزء.

(٣) قائله الأعشى، وهو في ديوانه ص١٠٧ ، وصدره: يوماً بأطيب منها نشر رائحة، وسلف ٩/ ٤٣٥ .

(٤) قائله أبو ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٤١ ، وسلف ٩/ ٤٣٥ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٠٠ .

(٦) الكلام بنحوه في الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣١ ، وينظر الكشاف ٤/ ٢٠٠ - ٢٠١ .

وقيل: «وَرَاءَهُمْ» أي: خلفهم[١]، أي: ويذرون الآخرة خلف ظهورهم، فلا يعملون لها.

وقيل: نزلت في اليهود فيما كتموه من صفة الرسول ﷺ وصحةِ نبوَّته. وحبُّهم العاجلة: أخذُهم الرُّشا على ما كتموه.

وقيل: أراد المنافقين؛ لاستبطانهم الكفرَ وطلب الدنيا. والآية تعمّ. واليوم الثقيل يوم القيامة. وإنما سمِّي ثقيلًا لشدائده وأهواله. وقيل: للقضاء فيه بين عباده[٢].

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ أي: من طين. ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: خَلْقهم؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم[٣]. والأَسْر: الخَلْق؛ قال أبو عُبيد: يقال: فرس شديد الأَسْر، أي: الخَلْق. ويقال: أسره الله جلَّ ثناؤه: إذا شَدَّد خَلْقه؛ قال لبيد:

ساهِمُ الوجهِ شديدٌ أَسْرُهُ مُشْرِفُ الحارِكِ مَحبوكُ الكَتَدْ[٤]

وقال الأخطل:

مِن كلِّ مُجتَنِبٍ شديدٍ أَسْرُهُ سَلِسِ القِيادِ تَخالُه مُختالا[٥]

وقال أبو هريرة والحسن والربيع: شددنا مفاصلهم وأوصالهم بعضَها إلى بعض بالعروق والعصب[٦].

وقال مجاهد في تفسير الأَسْر: هو الشَّرْج، أي: إذا خرج الغائط والبول

---

(١) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٤٣٣ عن مجاهد.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٧٣ .

(٣) أخرج قولهم الطبري ٢٣/ ٥٧٥ - ٥٧٦ عدا قول مقاتل، وهو في تفسير البغوي ٤/ ٤٣١ .

(٤) شرح ديوانه ص١٨٧ برواية: مُغْبَط الحارك محبوك الكَفَل. الحارك: فروع الكتفين، وهو أيضًا الكاهل. الغبيط: قتب الهودج، فقوله: مغبط الحارك، أي: كأن ظهره غبيط. محبوك الكفل: مدمج فيه استواء مع ارتفاع. الكتد: موصل العنق في الظهر.

(٥) ديوانه ص٤٦ .

(٦) قول أبي هريرة ﷺ أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٧٦ ، وقول الحسن في الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣١ ، وقول الربيع في المحرر الوجيز ٥/ ٤١٥ .

تقبَّضَ الموضعُ[١].

وقال ابن زيد: الأسر: القوّة[٢]. وقال ابن أحمر يصف فرسًا:

يَـمـشـي بِـأَوظِـفـةٍ شِـدادٍ أَسْـرُهـا صُـمٍّ[٣] السَّـنابكِ لا تقي بالـجَـدْجَـدِ

واشتقاقه من الإسار، وهو القِدُّ الذي يشدُّ به الأقتاب؛ يقال: أَسَرْتُ القَتَبَ أَسْرًا، أي: شددتُه وربطتُه؛ ويقال: ما أحسن أَسْرَ قَتَبِه، أي: شدَّه ورَبْطَه[٤]؛ ومنه قولهم: خذه بِأَسْرِه: إذا أرادوا أن يقولوا: هو لك كلُّه؛ كأنهم أرادوا تَعْكِيمه[٥] وشدّه لم يُفتَح ولم يُنقَص منه شيء. ومنه الأسير، لأنه كان يُكَتَّف بالإسار. والكلام خرج مَخرجَ الامتنان عليهم بالنِّعَم حين قابلوها بالمعصية. أي: سَوَّيتُ خَلْقك وأحكمتُه بالقوى ثم أنت تكفر بي!

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ قال ابن عباس: يقول: لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوعَ للّه منهم. وعنه أيضاً: لغيَّرنا محاسنهم إلى أسمج الصُّورَ وأقبحها. كذلك روى الضحَّاك عنه. والأوَّل رواه عنه أبو صالح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي: السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: موعظة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٤٠٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣١.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٥٧٦.

(٣) في النسخ الخطية: شم، وهو موافق لما في كتاب الحيوان للجاحظ ٣/ ٥٢٣، والمثبت من (م)، وهو موافق لما في النكت والعيون ٦/ ١٧٣. الأوظفة: جمع وظيف: وهو مستدق الذراع والساق من الخيل ومن الإبل وغيرها. السنابك: جمع سُنْبُك: وهو طرف الحافر. الجدجد: الأرض الصلبة المستوية. القاموس (وظف) (سنبك) (جدد).

(٤) الكلام بنحوه في تفسير غريب القرآن ص٥٠٤.

(٥) عكم المتاع: شدّه. الصحاح (عكم).

﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طَريقًا موصلًا إلى طاعته وطلب مرضاته. وقيل: «سَبِيلًا» أي: وسيلة. وقيل: وِجْهةً وطريقًا إلى الجنة. والمعنى واحد.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أي: الطاعة والاستقامة واتخاذَ السبيل إلى الله ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فأخبر أنَّ الأمر إليه سبحانه ليس إليهم، وأنه لا تَنْفذ مشيئة أحدٍ ولا تتقدَّم. إلَّا أن تتقدَّم مشيئته.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «وَمَا يَشَاؤونَ» بالياء على معنى الخبر عنهم. والباقون بالتاء على معنى المخاطبة لله سبحانه[١]. وقيل: إنَّ الآية الأولى منسوخةٌ بالثانية. والأشبه أنه ليس بنسخ، بل هو تبيين أنَّ ذلك لا يكون إلا بمشيئته.

قال الفرَّاء[٢]: «وَما تشاؤون إِلَّا أَنْ يشاءَ الله» جوابٌ لقوله: «فمَن شاء اتَّخذ إِلى ربِّه سبيلًا» ثم أخبرهم أنَّ الأمر ليس إليهم فقال: «وَمَا تَشَاؤونَ» ذلك السبيلَ «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ» لكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأعمالكم ﴿حَكِيمًا﴾ في أمره ونهيه لكم. وقد مضى في غير موضع.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: يدخله الجنة راحمًا له ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: ويعذِّب الظالمين، فنصبه بإضمار: يعذِّب. قال الزجَّاج[٣]: نصب الظالمين لأن قبله منصوب، أي: يُدخل من يشاء في رحمته ويعذِّب الظالمين، أي: المشركين، ويكون ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيرًا لهذا المضمَر؛ كما قال الشاعر:

أصبحتُ لَا أَحمِلُ السِّلاحَ ولا ... أَمْلكُ رأسَ البعيرِ إنْ نَفَرا

والذِّئبَ أَخشاهُ إنْ مررتُ به ... وحدي وأَخشى الرِّياحَ والمَطَرا[٤]

---

(١) التيسير ص٢١٨، وينظر السبعة ص٦٦٥، وقرأ: يشاؤون، بالياء، أيضاً: ابن عامر الشامي.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٠.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢٦٤.

(٤) البيتان للربيع بن ضبع الفزاري، وهما في الأمالي لأبي علي ٢/ ١٨٥، وجمهرة الأمثال ١/ ٢٣٧، ومجمع الأمثال ٢/ ١٨٠.

أي: أخشى الذئب أخشاه.

قال الزجّاج[١]: والاختيار النصب وإن جاز الرفع؛ تقول: أعطيت زيدًا وعَمرًا أعددت له بِرًّا، فيختار النصب، أي: وبَرَرْت عَمرًا أو أَبَرُّ عَمراً. وقوله: في «حم عسق»: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[٢] ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصبَ في المعنى؛ فلم يجز العطف على المنصوب قبله، فارتفع بالابتداء، وها هنا قوله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ يدل على: ويعذِّب، فجاز النصب.

وقرأ أبان بن عثمان: «وَالظَّالِمونَ» رفعًا بالابتداء[٣]، والخبر ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾.

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: مُؤلمًا مُوجِعًا. وقد تقدَّم هذا في سورة البقرة وغيرِها[٤]، والحمدُ لله. ختمت السورة.

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٢٦٤ .

(٢) تمامها: ﴿وَٱلظَّـٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٨].

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٦ ، والمحتسب ٢/ ٣٤٤ .

(٤) ١/ ٣٠١ .

تفسير سورة الإنسان

وهى مكية .

قد تقدم في صحيح مسلم ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ الٓمٓ . تَنزِيلُ ﴾ السجدة ، و ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ ﴾ [١] .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنا ابن زيد : أن رسول الله ﷺ قرأ هذه السورة : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ ، وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود ، فلما بلغ صفة الجنان ، زفر زفرة فخرجت نفسه . فقال رسول الله ﷺ : « أخرج نفس [٢] صاحبكم ـ أو قال : أخيكم ـ الشوقُ إلى الجنة » . مرسل غريب [٣] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر [٤] ، لحقارته وضعفه ، فقال : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ ؟

ثم بين ذلك فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أى : أخلاط . والمشج والمشيج : الشىء الخَليط [٥] ، بعضه فى بعض .

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ يعنى : ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعدُ من طور إلى طور ، وحال إلى حال ،ولون إلى لون . وهكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، والربيع بن أنس : الأمشاج : هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة .

(١) تقدم حديث أبى هريرة عند تفسير أول سورة السجدة وخرجناه هناك ، أما حديث ابن عباس فلم يتقدم،وهو فى صحيح مسلم برقم (٨٧٩) .

(٢) فى أ :« روح » .

(٣) وقد جاء موصولاً ،فرواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٧٧٤) « مجمع البحرين » من طريق عفيف بن سالم ، عن أيوب بن عتبة ،عن عطاء ، عن ابن عمر : أن رجلاً من الحبشة ، فذكر قصة طويلة وفيها : أن نزلت هذه السورة وهو عند الرسول فقال : يا رسول الله ، هل ترى عينى فى الجنة مثل ما ترى عينك ؟ فقال النبى : «نعم » فبكى الحبشى حتى فاضت نفسه . وقال الطبرانى: «لا يروى عن ابن عمر إلا بهذا الإسناد ،تفرد به عفيف » . وسيأتى الحديث عند آخر السورة من رواية الطبرانى .

(٤) فى أ : « مذكوراً » .

(٥) فى م :« المختلط » .

وقوله : ﴿ نَّبْتَلِيه ﴾ أى : نختبره ، كقوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢] . ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيراً ﴾ أى : جعلنا له سمعا وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية .

وقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيل ﴾ أى : بيناه له ووضحناه وبصرناه به ، كقوله : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧] ، وكقوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠] ، أى : بينا له طريق الخير وطريق الشر . وهذا قول عكرمة ، وعطية ، وابن زيد ، ومجاهد ــ فى المشهور عنه ــ والجمهور .

ورُوى عن مجاهد ، وأبى صالح ، والضحاك ، والسدى أنهم قالوا فى قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيل ﴾ : يعنى خروجه من الرحم . وهذا قول غريب ، والصحيح المشهور الأول .

وقوله : ﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ : منصوب على الحال من « الهاء » فى قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيل ﴾ تقديره : فهو فى ذلك إما شقى وإما سعيد ، كما جاء فى الحديث الذى رواه مسلم ، عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: « كل الناس يَغْدو ، فبائع نفسه فموبقها أو مُعْتقها»(١) . وتقدم فى سورة « الروم » عند قوله : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] ، من رواية جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعربَ عنه لسانه ، فإذا أعرب عنه لسانه ، فإما شاكراً وإما كفوراً » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، عن عثمان بن محمد ، عن المقبرى ، عن أبى هُرَيرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان : رايةٌ بيد مَلَك، وراية بيد شَيطان ، فإن خرج لما يُحبّ اللهُ اتبعَه المَلَك برايته ، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته . وإن خرج لما يُسخط الله اتبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان ، حتى يرجع إلى بيته » (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن ابن خُثَيم ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن جابر بن عبد الله : أن النبى ﷺ قال لكعب بن عُجرَة : « أعاذك الله من إمارة السفهاء». قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : « أمراء يكونون من بعدى ، لا يهتدون بهداى ، ولا يستَنّونَ بسنتى، فمن صَدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا منى ولست منهم ، ولا يَرِدُون على حوضى . ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يُعنهم على ظلمهم ، فأولئك منى وأنا منهم ، وسيردون على حوضى . يا كعب بن عُجرَة ، الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة، والصلاة قربان ــ أو قال: برهان . يا كعبَ بنَ عجرَة ، إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سُحْت ، النار أولى به . يا كعب ، الناس غَاديان ، فمبتاعُ نفسَه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها » .

ورواه عن عفّان ، عن وُهَيب (٣) ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، به (٤) .

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٢٣) .

(٢) المسند (٢ / ٣٢٣) .

(٣) فى أ : « عن وهب » .

(٤) المسند (٣/ ٣٢١) .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً (٤) إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (٥) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (١٢) ﴾ .

يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير ، وهو اللهيب والحريق فى نار جهنم ، كما قال : ﴿ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١ ، ٧٢] .

ولما ذكر ما أعده (١) لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ ، وقد علم ما فى الكافور من التبريد والرائحة الطيبة ، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة فى الجنة .

قال الحسن : برد الكافور فى طيب الزنجبيل ؛ ولهذا قال : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ أى : هذا الذى مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفا بلا مزج ويَرْوَوْنَ بها ؛ ولهذا ضمن يشرَب « يروى » حتى عداه بالباء ، ونصب ﴿ عَيْناً ﴾ على التمييز .

قال بعضهم : هذا الشراب (٢) فى طيبه كالكافور . وقال بعضهم : هو من عين كافور . وقال بعضهم : يجوز أن يكون منصوباً بـ ﴿ يَشْرَبُ ﴾ . حكى هذه الأقوال الثلاثة ابنُ جرير .

وقوله : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ أى : يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا ، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم .

والتفجير هو الإنباع ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ [الإسراء: ٩٠] . وقال : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً ﴾ [الكهف: ٣٣] .

قال مجاهد : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ : يقودونها حيث شاؤوا ، وكذا قال عكرمة ، وقتادة . وقال الثورى : يصرفونها حيث شاؤوا .

وقوله : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ أى : يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من [فعل] (٣) الطاعات الواجبة بأصل الشرع ، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر .

---

(١) فى أ: « أعده الله » .
(٢) فى م : « الطعام » .
(٣) زيادة من م، أ .

قال الإمام مالك ، عن طلحة بن عبد الملك الأيلى ، عن القاسم بن مالك ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يَعصى الله فلا يَعصِه » ، رواه البخارى من حديث مالك (١) .

ويتركون المحرمات التى نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد ، وهو اليوم الذى شره مستطير ، أى : منتشر عام على الناس إلا من رَحِمَ الله .

قال ابن عباس : فاشياً . وقال قتادة : استطار ــ والله ــ شرّ ذلك اليوم حتى مَلأ السموات والأرض .

قال ابن جرير : ومنه قولهم : استطار الصدع فى الزجاجة واستطال . ومنه قول الأعشى :

فَبَانَتْ وَقَد أسْأرت فى الفُـؤا د صَدْعاً ، على نَأيها ،مُستَطيراً (٢)

يعنى : ممتدا فاشيا .

وقوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ : قيل: على حب الله تعالى . وجعلوا الضمير عائداً إلى الله عز وجل لدلالة السياق عليه . والأظهر أن الضمير عائد على الطعام ، أى : ويطعمون الطعام فى حال محبتهم وشهوتهم له ، قاله مجاهد ، ومقاتل ، واختاره ابن جرير ، كقوله تعالى : ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ [البقرة:١٧٧] ، وكقوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] .

وروى البيهقى ، من طريق الأعمش ، عن نافع قال : مرض ابن عمر فاشتهى عنبا ــ أول ما جاء العنب ــ فأرسلت صفية ــ يعنى امرأته ــ فاشترت عنقوداً بدرهم ، فاتبع الرسولَ السائل ، فلما دخل به قال السائل : السائل . فقال ابن عمر : أعطوه إياه . فأعطوه إياه . ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقوداً فاتبع الرسولَ السائلُ ، فلما دخل قال السائل : السائل . فقال ابن عمر : أعطوه إياه. فأعطوه إياه . فأرسلت صفية إلى السائل فقالت : والله إن عُدتَ لا تصيبُ منه خيراً أبداً . ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به (٣) .

وفى الصحيح : « أفضل الصدقة أن تَصَدّقَ وأنت صحيح ، شحيح ، تأمل الغنى ، وتخشى الفقر » (٤) ،أى :فى حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه؛ولهذا قال تعالى : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ . أما المسكين واليتيم،فقد تقدم بيانهما وصفتهما.وأما الأسير : فقال سعيد بن جبير ، والحسن ، والضحاك : الأسير : من أهل القبلة . وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين . ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء ، وهكذا قال سعيد بن جبير ، وعطاء ، والحسن، وقتادة .

(١) صحيح البخارى برقم (٦٦٩٦، ٦٧٠٠) .

(٢) تفسير الطبرى (٢٩/ ١٢٩) .

(٣) السنن الكبرى للبيهقى (٤/ ١٨٥) .

(٤) صحيح مسلم برقم (١٠٣٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء فى غير ما حديث ، حتى إنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول : « الصلاةَ وما ملكت أيمانكم » (١) .

وقال عكرمة : هم العبيد ــ واختاره ابن جرير ــ لعموم الآية للمسلم والمشرك .

وقال مجاهد : هو المحبوس ، أى : يطعمون لهؤلاء الطعام وهم يشتهونه ويحبونه ، قائلين بلسان الحال : ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ** ﴾ أى : رجاءَ ثواب الله ورضاه ، ﴿ **لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا** ﴾ أى : لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ولا أن تشكرونا عند الناس .

قال مجاهد وسعيد بن جبير : أما والله ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم ، فأثنى عليهم به ليرغب فى ذلك راغب .

﴿ **إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا** ﴾ أى : إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه، فى اليوم العبوس القمطرير .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ **عَبُوسًا** ﴾ : ضيقا ، ﴿ **قَمْطَرِيرًا** ﴾ : طويلا .

وقال عكرمة وغيره ، عنه ، فى قوله : ﴿ **يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا** ﴾ أى : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عَرَق مثل القَطِرَان .

وقال مجاهد : ﴿ **عَبُوسًا** ﴾ : العابس الشفتين ، ﴿ **قَمْطَرِيرًا** ﴾ قال : تقبيض الوَجه بالبُسُور .

وقال سعيد بن جبير ، وقتادة : تعبس فيه الوجوه من الهول ، ﴿ **قَمْطَرِيرًا** ﴾ : تقليص الجبين وما بين العينين ، من الهول .

وقال ابن زيد : العبوس : الشر . والقمطرير : الشديد .

وأوضح العبارات وأجلاها وأحلاها ،وأعلاها وأولاها ــ قولُ ابن عباس ، رضى الله عنه .

قال ابن جرير : والقمطرير هو : الشديد ؛ يقال : هو يوم قمطرير ويوم قُماطِر ، ويوم عَصِيب وعَصَبْصَب ، وقد اقمطرّ اليومُ يقمطرّ اقمطرارا ، وذلك أشد الأيام وأطولها فى البلاء والشدة ، ومنه قول بعضهم :

بَنِى عَمّنا ، هل تَذكُرونَ بَلاءنَا ؟ عَلَيكم إذَا مـا كَـانَ يَـومُ قُمَاطِرُ (٢)

قال الله تعالى : ﴿ **فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا** ﴾ ، وهذا من باب التجانس البليغ ، ﴿ **فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ** ﴾ أى : آمنهم مما خافوا منه ، ﴿ **وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً** ﴾ أى : فى وجوههم ، ﴿ **وَسُرُورًا** ﴾ أى : فى قلوبهم . قاله الحسن البصرى ، وقتادة ، وأبو العالية ، والربيع ابن أنس . وهذه كقوله تعالى :﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ** ﴾ [عبس:٣٨ ، ٣٩] . وذلك أن القلب إذا سُرَّ استنار الوجه ، قال كعب بن مالك فى حديثه الطويل : وكان رسول الله ﷺ

(١) رواه أحمد فى المسند (١/ ٧٨) من حديث على رضى الله عنه .
(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٩/ ١٣١) غير منسوب .

إذا سُرَّ ، استنار وجهه حتى كأنه قطعة (١) قَمَر (٢) . وقالت عائشةُ : دخل عَلَيّ رسول الله ﷺ مسرورا تَبرُقُ أسَارِيرُ وَجْهه (٣) . الحديث .

وقوله : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : بسبب صبرهم أعطاهم ونوّلهم وبوّأهم ﴿ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ أى : منزلا رحبا ، وعيشا رَغَداً (٤) ، ولباساً حَسَناً .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة هشام بن سليمان الدّارَانى قال : قرئ على أبى سليمان الداراني سورة : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ ﴾ ، فلما بلغ القارئ إلى قوله : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ ، قال بما صبروا على ترك الشهوات فى الدنيا ، ثم أنشد :

كَم قَتيل بشَهوةٍ وأسير ... أفّ مِنْ مُشتَهِى خِلاف الجَميل

شَهوَاتُ الإنْسان تورثه الذُّل ... وتُلْقيه فى البَلاء الطَّويل (٥)

﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم ، وما أسبغ عليهم من الفضل العَميم فقال : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ . وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة « الصافات » ، وذكر الخلاف فى الاتكاء : هل هو الاضطجاع ، أو التمرفق ، أو التربع ، أو التمكن فى الجلوس ؟ وأن الأرائك هى السُّرر تحت الحجال .

وقوله : ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴾ أى : ليس عندهم حَرّ مزعج ، ولا برد مؤلم ، بل هى مزاج واحد دائم سَرْمَدِيّ ، ﴿ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف:١٠٨] .

---

(١) فى م : « كأنه فلقة » .

(٢) حديث توبة كعب بن مالك فى صحيح البخارى برقم (٣٩٥١، ٤٦٧٣) ، وفى صحيح مسلم برقم (٢٧٦٩) ، وتقدم عند تفسير الآية: ١١٨ من سورة « التوبة » .

(٣) حديث عائشة فى لحاق أسامة بأبيه زيد . رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٥٥٥) ، ومسلم فى صحيحه برقم (١٤٥٩) .

(٤) فى م : « رغيدا » .

(٥) انظر : مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٨٦/٢٧) ووقع صدره فيه :

كم قتيل لشهوةٍ وأسير

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا ﴾ أى : قريبة إليهم أغصانها ، ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا ﴾ أى : متى تعاطاه دنا القطفُ إليه وتدلى من أعلى غصنه ، كأنه سامع طائع ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤] . وقال تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ٢٣] .

قال [١] مجاهد : ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا ﴾ : إن قام ارتفعت بقَدْره ، وإن قعد تَدَلَّتْ [٢] له حتى ينالها ، وإن اضطجع تَدَلَّت [٣] له حتى ينالها ، فذلك قوله : ﴿ تَذْلِيلا ﴾ .

وقال قتادة : لا يرد أيديهم عنها شوكٌ ولا بُعدٌ .

وقال مجاهد : أرض الجنة من ورَق ، وترابها المسك ، وأصول شجرها من ذهب وفضة ، وأفنانها من اللؤلؤ الرطب والزبرجد والياقوت ، والورَقُ والتمر بين ذلك . فمن أكل منها قائما لم يؤذه ، ومن أكل منها قاعدا لم يؤذه ، ومن أكل مضطجعاً لم يؤذه .

وقوله : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى : يطوف عليهم الخَدَم بأوانى الطعام ، وهى من فضة ، وأكواب الشراب وهى الكيزان التى لا عرى لها ولا خراطيم .

وقوله [٤] : ﴿ قَوَارِيرَ . قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ ، فالأول منصوب بخبر « كان » أى : كانت قوارير . والثانى منصوب إما على البدلية [٥] ، أو تمييز ؛ لأنه بينه بقوله : ﴿ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن البصرى ، وغير واحد : بياض الفضة فى صفاء الزجاج ، والقوارير لا تكون إلا من زجاج . فهذه الأكواب هى من فضة ، وهى مع هذا شفافة يرى ما فى باطنها من ظاهرها ، وهذا مما لا نظير له فى الدنيا .

قال ابن المبارك ، عن إسماعيل ، عن رجل ، عن ابن عباس : ليس فى الجنة شىء إلا قد أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أى : على قدر ريّهم ، لا تزيد عنه ولا تنقص ، بل هى مُعَدّة لذلك، مقدرة بحسب رىّ صاحبها . هذا معنى قول ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبى صالح ، وقتادة ، وابن أبزى ، وعبد الله بن عُبَيد بن عمير ، وقتادة ، والشعبى ، وابن زيد . وقاله ابن جرير وغير واحد . وهذا أبلغ فى الاعتناء والشرف والكرامة .

وقال العَوفى ، عن ابن عباس : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ : قدرت للكف . وهكذا قال الربيع بن أنس . وقال الضحاك : على قدر أكُفّ الخُدّام . وهذا لا ينافى القول الأول ، فإنها مقدرة فى القَدْر والرّى .

وقوله : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا [٦] زَنجَبِيلاً ﴾ أى : ويسقون ـ يعنى الأبرار أيضا ـ فى هذه الأكواب ﴿ كَأْسًا ﴾ أى : خمراً ، ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ ، فتارة يُمزَج لهم الشراب بالكافور

---

(١) فى م: « وقال» . (٢ ، ٣) فى أ : « تذللت » . (٤) فى م ،أ : « وهذه » .
(٥) فى أ: « على البداية » . (٦) فى أ : «كان مزاجه » وهوخطأ .

وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ، ليعتدل الأمر ، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة. وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صِرْفاً ، كما قاله قتادة وغير واحد . وقد تقدم فى قوله : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ ، وقال ههنا : ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴾ أى : الزنجبيل عين فى الجنة تسمى سلسبيلا .

قال عكرمة : اسم عين فى الجنة . وقال مجاهد : سميت بذلك لسلاسة سيلها وحِدّة جَريها .

وقال قتادة : ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴾ : عين سَلِسَة مُستَقيد [١] ماؤها .

وحكى ابنُ جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها فى الحَلْق . واختار هو أنها تَعُمّ ذلك كلَّه ، وهو كما قال .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أى : يطوف على أهل الجنة للخدْمَة ولدانٌ من ولدان الجنة ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أى : على حالة واحدة مخلدون عليها ، لا يتغيرون عنها ، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن . ومن فسرهم بأنهم مُخَرّصُونَ فى آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك ؛ لأن الصغير هو الذى يليق له ذلك دون الكبير .

وقوله : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أى : إذا رأيتهم فى انتشارهم فى قضاء حوائج السادة ، وكثرتهم ، وصباحة وجوههم ، وحُسن ألوانهم وثيابهم وحليهم ، حسبتهم لؤلؤا منثورا . ولا يكون فى التشبيه أحسن من هذا ، ولا فى المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن .

قال قتادة ، عن أبى أيوب ، عن عبد الله بن عمرو : ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم ، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه .

وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ أى : وإذا رأيت يا محمد ، ﴿ ثَمَّ ﴾ أى : هناك [٢] ، يعنى فى الجنة ونعيمها وسعتَها وارتفاعها وما فيها من الحَبْرَة والسرور ، ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ أى : مملكةً لله هُناك عظيمةً وسلطاناً باهراً .

وثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجا منها ، وآخر أهل الجنة دخولا إليها : إن لك مثلَ الدنيا وعشرة أمثالها .

وقد قَدّمنا [٣] فى الحديث المَروىّ من طريق ثُوَير بن أبى فاختة ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكه مسيرة ألفى [٤] سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه » . فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون فى الجنة ، فما ظنك بما هو أعلى منزلة ، وأحظى عنده تعالى .

وقد روى الطبرانى هاهنا حديثاً غريباً جداً فقال : حدثنا على بن عبد العزيز ، حدثنا محمد بن

---

(١) فى أ:« مستعذب » . (٢) فى أ :« أى هنالك » .

(٣) عند تفسير الآية :٢٣ من سورة « القيامة ».

(٤) فى أ : « مسيرة ألف ».

عمار الموصلى ، حدثنا عفيف [(١)] بن سالم ، عن أيوب بن عتبة ، عن عطاء ، عن ابن عمر قال : جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ : فقال له رسول الله : « سل واستفهم » . فقال: يا رسول الله ، فُضّلْتُم علينا بالصور والألوان والنبوة ، أفرأيتَ إن آمنتُ بما آمنتَ به وعملتُ بمثل ما عملتَ به ، إنى لكائن معكَ فى الجنة ؟ قال : « نعم ، والذى نفسى بيده ، إنه لَيُرَى بياض الأسود فى الجنة من مسيرة ألف عام » . ثم قال رسول الله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله ، كان له بها عَهدٌ عند الله ، ومن قال : سبحان الله وبحمده ، كتب له مائة ألف حسنة ، وأربعة وعشرون ألف حسنة » . فقال رجل : كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وُضِعَ على جبل لأثقله ، فتقوم النعمة ــ أو : نعَم الله ــ فتكاد تستنفد ذلك كله ، إلا أن يَتَغَمّده الله برحمته » . ونزلت هذه السورة : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ إلى قوله : ﴿ مُلْكًا كَبِيرًا ﴾ . فقال الحبشى : وإن عينى لترى ما ترى عيناك فى الجنة ؟ قال: « نعم » . فاستبكى حتى فاضت نفسه . قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يُدليه فى حُفرَته بيده [(٢)] .

وقوله : ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ أى : لباس أهل الجنة فيها الحرير ، ومنه سندس، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلى أبدانهم ، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان ، وهو مما يلى الظاهر ، كما هو المعهود فى اللباس[(٣)] ، ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج: ٢٣] .

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلى قال [(٤)] بعده : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أى : طهر بواطنهم من الحسَد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرّديَّة ، كما روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : إذا انتهى أهلُ الجنة إلى باب الجنة وَجَدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما [فأذهب الله] [(٥)] ما فى بطونهم من أذى ، ثم اغتسلوا من الأخرى فَجَرت عليهم نضرةُ النعيم .

وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أى : يقال لهم ذلك تكريما لهم وإحسانا إليهم كقوله : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤] ، وكقوله : ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣] .

وقوله : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أى : جزاكم الله على القليل بالكثير .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً

---

(١) فى م ، أ ، هـ:« حدثنا عقبة » و المثبت من المعجم الأوسط للطبرانى.

(٢) المعجم الأوسط برقم (٤٧٧٤) « مجمع البحرين » ، وقال :« لا يروى عن ابن عمر إلا بهذا الإسناد ، تفرد به عفيف » .

(٣) فى أ : « فى الملبس » . (٤) فى أ :« فقال » . (٥) مكانها فى هـ ، كلمة غير واضحة ، والمثبت من م ، أ .

(٢٦) إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) ﴾ .

يقول تعالى ممتناً على رسوله ﷺ بما نَزّله عليه من القرآن العظيم تنزيلا : ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** ﴾ أى : كما أكرمتُكَ بما أنزلتُ عليك ، فاصبر على قضائه وقَدَره ، واعلم أنه سيُدَبرك بحسن تدبيره ، ﴿ **وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا** ﴾ أى: لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدّك عما أنزل إليك [(١)] ، بل بَلّغ ما أنزل إليك من ربك ، وتوكل على الله ؛ فإن الله يعصمك من الناس . فالآثم هو الفاجر فى أفعاله ، والكفور هو الكافر بقلبه .

﴿ **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ أى : أولَ النهار وآخره . ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً** ﴾ ،كقوله : ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ [الإسراء:٧٩] ، وكقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً . نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** ﴾ [المزمل: ١ ــ ٤] .

ثم قال تعالى منكراً على الكفار ومن أشبههم فى حُبّ الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها ، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم : ﴿ **إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً** ﴾ يعنى : يوم القيامة .

ثم قال : ﴿ **نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ** ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : يعنى خَلْقَهم . ﴿ **وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً** ﴾ أى : وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة ، وبَدلناهم فأعدناهم خلقا جديدا . وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة .

وقال ابن زيد ، وابن جرير : ﴿ **وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً** ﴾ [أى] [(٢)] : وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم ، كقوله : ﴿ **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ** [(٣)] **قَدِيرًا** ﴾ [النساء:١٣٣] ، وكقوله : ﴿ **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠ ، وفاطر ١٦ ، ١٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ **إِنَّ هَذِهِ** ﴾ يعنى : هذه السورة ﴿ **تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً** ﴾ أى : طريقا ومسلكا ، أى: من شاء اهتدى بالقرآن ، كقوله : ﴿ **وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**

---

(١) فى أ :« عليك » .　　(٢) زيادة من م.　　(٣) فى أ : « وكان الله على كل شيء » وهو خطأ .

وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً ﴾ [النساء:٣٩] .

ثم قال : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله** ﴾ أى : لا يقدر أحد أن يَهدى نفسه ، ولا يدخل فى الإيمان [(١)] ولا يجر لنفسه نفعاً ، ﴿ **إلا أن يشاء الله . إن الله كان عليماً حكيماً** ﴾ أى : عليم بمن يستحق الهداية فَيُيَسِّرها له ، ويقيض له أسبابها ، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن الله كان عليماً حكيماً** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً** ﴾ أى : يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، ومن يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

[آخر سورة « الإنسان »] [(٢)] **[والله أعلم]** [(٣)]

---

(١) فى م :« فى إيمان » .

(٢) زيادة من م ،أ .

(٣) زيادة من أ .

سورة الإنسان

مكيّة، وهي إحدى وثلاثون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤﴾

﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾ استفهامُ تقرير وتقريب، فإنّ "هل" بمعنى "قد"، والأصل "أهَلْ أتى" ﴿عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ قبل زمان قريب ﴿حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ أي: طائفة محدودة كائنةٌ مِن الزمن الممتدّ ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ بل كان شيئًا منسيًّا غير مذكور بالإنسانيّة أصلًا، كالعُنصر والنُّطفة وغير ذلك. والجملة المنفيّة حالٌ مِن ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾، أي: غيرَ مذكور، أو صفة أخرى لـ﴿حِينٞ﴾ على حذف العائد إلى الموصوف، أي: لم يكن فيه شيئًا مذكورًا.

والمراد بـ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ الجنس، فالإظهار في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ﴾ لزيادة التقرير، أو آدم عليه السلام، وهو المروي عن ابن عبّاسٍ وقتادةَ والثوري وعكرمةَ والشعبي.[1] قال ابن عبّاس في رواية أبي صالح عنه: «مرّت به أربعون سنةً قبل أن يُنفخ فيه الروح وهو ملقًى بين مكّة والطائف». وفي رواية الضحّاك عنه أنّه خُلق مِن طين فأقام أربعين سنةً، ثمّ مِن حمأ مسنون فأقام أربعين سنةً، ثمّ مِن صلصال فأقام أربعين سنةً، فتمّ خَلْقه بعد مائة وعشرين سنةً، ثمّ نُفخ فيه الروح. وحكى الماوردي عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما أنّ "الحِين" المذكور ههنا هو الزمن الطويل الممتدّ الذي لا يُعرَف مقداره فيكون الأوّل إشارةً إلى خَلْقه عليه السلام وهذا بيانًا لخلق بنيه.[2]

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٣/٥٢٩-٥٣٠؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/٥.

[2] هذه الروايات كلّها في اللباب لابن عادل، ٢٠/٥.

﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاطٍ، جمع مَشَج أو مَشيج، مِن "مَشجتُ الشيءَ" إذا خلطتَه. وُصِف النطفة به لِما أنّ المراد بها مجموع الماءين، ولكلّ منهما أوصاف مختلفة مِن اللون والرّقة والغِلَظ، وخواصّ متباينة، فإنّ ماء الرجل أبيضُ غليظ فيه قوّة العَقد وماءَ المرأة أصفرُ رقيق فيه قوّة / الانعقاد، يُخلَق منهما الولد، فما كان مِن عصَب وعَظْم وقوّة فمِن ماء الرجل، وما كان مِن لحم ودمٍ وشَعْر فمِن ماء المرأة. قال القرطبي: وقد رُوي هذا مرفوعًا.[١] وقيل: مفرد كـ"أعشار" و"أكياش".[٢] وقيل: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ ألوان وأطوار،[٣] فإنّ النطفة تصير علقةً، ثمّ مضغةً، إلى تمام الخِلقة. [٢٤٨و]

وقوله تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ حال مِن فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾، أي: مُريدين ابتلاءه بالتكليف فيما سيأتي أو ناقلين له مِن حال إلى حال على طريقة الاستعارة، كما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: نُصرّفه في بطن أمّه نطفةً ثمّ علقةً إلى آخره.[٤]

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ليتمكّن مِن استماع الآيات التنزيليّة ومشاهدةِ الآيات التكوينيّة، فهو كالمسبَّب مِن الابتلاء، فلذلك عُطف على الخَلْق المقيَّد به بـ"الفاء"، ورُتّب عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ بإنزال الآياتِ ونَصْبِ الدلائل. ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالان مِن مفعول ﴿هَدَيْنَا﴾، أي: مكّناه وأقدرناه على سلوك الطريق الموصِل إلى البغية في حالتيه جميعًا. أو للتفصيل أو التقسيم، أي: هديناه إلى ما يُوصِل إليها في حالَيه جميعًا أو مقسومًا إليهما، بعضُهم شاكر بالاهتداء والأخذ فيه وبعضُهم كفور بالإعراض عنه.

وقيل: مِن السبيل،[٥] أي: عرّفناه السبيل إمّا سبيلًا شاكرًا أو كفورًا، على وصف السبيل بوصف سالكه مجازًا. وقُرئ: "أمّا"[٦] بالفتح على حذف الجواب،

---

١ الكلام كلُّه مع قول القرطبي مذكور بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ٨/٢٠. وانظر: تفسير القرطبي، ١٢١/١٩.

٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٢/٤.

٣ مرويّ عن ابن عبّاس وقتادة في جامع البيان للطبري، ٥٣٣/٢٣-٥٣٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٩٢/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٢/٤.

٤ بمعناه في جامع البيان للطبري، ٥٣٣/٢٣؛ واللباب لابن عادل، ٩/٢٠.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٧٧/٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ وابن مسعود أبي السَّمّال ورؤبة بن العجّاج والرّبيع بن خُثيم وأبي زيد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٦٣.

أي: أمّا شاكرًا فبتوفيقنا، وأمّا كفورًا فبسوء اختياره لا بمجرّد إجبارنا مِن غير اختيار مِن قِبَله. وإيرادُ "الكفور" لمراعاة الفواصل والإشعار بأنّ الإنسان قلّما يخلو مِن كفران ما وإنّما المُؤاخَذ عليه الكفر المُفرِط.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ مِن أفراد الإنسان الذي هديناه السبيل ﴿سَلَٰسِلَا۟﴾ بها يقادون ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ بها يقيّدون ﴿وَسَعِيرًا﴾ بها يحرقون. وتقديمُ وعيدهم مع تأخّرهم للجَمْع بينهما في الذِّكر، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الآية [آل عمران، ١٠٦/٣]، ولأنّ الإنذار أهمّ وأنفع، وتصديرُ الكلام وخَتْمه بذِكر المؤمنين / أحسنُ، على أنّ في [٢٤٨ظ] وصفهم تفصيلًا ربّما يُخلّ تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم. وقُرئ: "سَلَاسِلًا"[١] للتناسب.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ شروع في بيان حُسن حال الشاكرين إثرَ بيان سوء حال الكافرين. وإيرادُهم بعنوان البرّ للإشعار بما استحقّوا به ما نالوه مِن الكرامة السنيّة. و﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع "بَرّ" أو "بارّ" كـ"ربّ" و"أرباب" و"شاهد" و"أشهاد". قيل: هو مَن يَبرّ خالقه، أي: يطيعه. وقيل: مَن يمتثل بأمره تعالى. وقيل: مَن يؤدّي حقّ الله تعالى ويُوفي بالنَّذْر.[٢] وعن الحسن: البَرّ مَن لا يؤذي الذرّ.[٣]

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ هي الزجاجة إذا كانت فيها خَمْر، وتُطلق على نفس الخمر أيضًا، فـ﴿مِن﴾ على الأوّل ابتدائيّة وعلى الثاني تبعيضيّة أو بيانيّة. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي: ما تُمزَج به ﴿كَافُورًا﴾ أي: ماءَ كافور، وهو اسم عين في الجنّة ماؤها في بياض الكافور ورائحتِه وبَرْدِه. والجملة صفة ﴿كَأْسٍ﴾.

---

١ قرأ بها نافع والكسائي وأبو جعفر وأبو بكر ورُويس بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٩٤/٢.

٢ الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠-١٦.

٣ اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠.

وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا﴾ بدل مِن ﴿كَافُورًا﴾، وعن قتادة: تُمزَج لهم بالكافور وتُختَم لهم بالمِسك.[١] وقيل: تُخلَق فيها رائحة الكافور وبياضه وبَرْده، فكأنّها مُزِجت بالكافور،[٢] فـ﴿عَيْنًا﴾ على هذين القولين بدل مِن محلّ ﴿مِن كَأْسٍ﴾ على تقدير مضاف، أي: يشربون خمرًا خمرَ عين، أو نصب على الاختصاص.

وقوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ صفة ﴿عَيْنًا﴾، أي: يشربون بها الخمر لكونها ممزوجةً بها. وقيل: ضُمّن ﴿يَشْرَبُ﴾ معنى يلتذّ. وقيل: "الباء" بمعنى "مِن". وقيل: زائدة، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة: "يَشْرَبُهَا عِبَادُ اللهِ".[٣] وقيل: الضمير للكأس، والمعنى يشربون العين بتلك الكأس.[٤]

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يُجرونها حيثما شاءوا مِن منازلهم إجراءً سهلًا لا يمتنع عليهم؛ بل يجري جريًا بقوّة واندفاع، والجملة صفة أخرى لـ﴿عَيْنًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ استئناف مَسوقٌ لبيان ما لأجله رُزقوا ما ذُكر مِن النعيم مشتمِل على نوع تفصيل لِما ينبئ عنه اسم الأبرار / إجمالًا، كأنّه [٢٤٩و]
قيل: ماذا يفعلون حتّى ينالوا تلك الرُّتبة العالية؟ فقيل: يُوفون بما أوجبوه على أنفسهم، فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم؟

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ﴾ عذابه ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ فاشيًا منتشِرًا في الأقطار غاية الانتشار، مِن "استطار الحريقُ والفجرُ"، وهو أبلغ مِن "طار" بمنزلة استنفر مِن نفَر.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: كائنين على حبّ الطّعام والحاجة إليه، كما في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران، ٩٢/٣]، أو على حبّ الإطعام بأن يكون ذلك بطيب النفس، أو كائنين على حبّ الله تعالى، أو إطعامًا كائنًا على حبّه تعالى، وهو الأنسب لِما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾.

﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أيّ أسيرٍ كان، فإنّه صلّى الله عليه وسلّم يُؤتى بالأسير

---

١ جامع البيان للطبري، ٥٣٩/٢٣؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٩٣/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٤.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٦٤.

٤ هذه الوجوه الثلاثة مع الاستدلال بالقراءة في اللباب لابن عادل، ١٨/٢٠. وأصل الكلام في التبيان للعكبري، ١٢٥٨/٢.

فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول: «أحسِنْ إليه»،[١] أو أسيرًا مؤمِنًا، فيدخُل فيه المملوك والمسجون، وقد سمّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الغريمَ أسيرًا فقال: «غريمُك أسيرُك، فأحسِن إلى أسيرك».[٢]

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝﴾

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ على إرادة قولٍ هو في موقع الحال مِن فاعل ﴿يُطْعِمُونَ﴾ أي: قائلين ذلك بلسان الحال أو بلسان المقال إزاحةً لتوهُّم المنّ المُبطِل للصدقة وتوقُّع المكافأة المُنقِصة للأجر. وعن الصِّدِّيقة رضي الله تعالى عنها: أنّها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت، ثمّ تسأل الرسول ما قالوا؟ فإذا ذكَر دعاءهم دعتْ لهم بمِثله؛[٣] ليبقى ثواب الصدقة لها خالصًا عند الله تعالى.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي: شكرًا، وهو تقرير وتأكيد لِما قبله.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا﴾ أي: عذابَ يوم ﴿عَبُوسًا﴾ يعبس فيه الوجوه، أو يُشبه الأسدَ العبوسَ في الشدّة والضراوة. ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ شديدَ العبوس فلذلك نفعل بكم ما نفعل رجاءَ أن يَقِيَنا ربُّنا بذلك شرَّه. وقيل: هو تعليل لعدم إرادة الجزاء والشكور،[٤] أي: / إنّا نخاف عِقابَ الله تعالى أن أردناهما. [٢٤٩ظ]

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝﴾

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ بسبب خوفهم وتحفُّظهم عنه ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي: أعطاهم بدل عبوس الفجّار وحُزنهم نَضرةً في الوجوه وسُرورًا في القلوب.

---

[١] بمعناه في جامع البيان للطبري، ٥٤٤/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٩٤/٨؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٤.

[٢] لم أقف عليه في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٤.

[٣] لم أقف عليه في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٤.

[٤] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٤.

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على مشاقّ الطاعات ومُهاجرة هوى النفس في اجتناب المحرَّمات وإيثار الأموال ﴿جَنَّةً﴾ بستانًا يأكلون منه ما شاءوا ﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسونه ويتزيَّنون به.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما مرِضا فعادهما النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في ناس معه فقالوا لِعليّ رضي الله تعالى عنه: «لو نذَرت على ولدك»، فنذر عليٌّ وفاطمةُ رضي الله عنهما وفِضَّةُ جارية لهما إن برئا ممّا بهما أن يصوموا ثلاثة أيام، فشُفيا وما معهما شيء، فاستقرض عليٌّ رضي الله عنه مِن شمعون الخَيبري ثلاث[1] أصوُع مِن شعير فطحنت فاطمةُ رضي الله عنها صاعًا واختبزت خمسةَ أقراص على عددهم، فوضعوها بين أيديهم ليُفطروا، فوقف عليهم سائل فقال: «السّلام عليكم أهل بيت محمّد، مسكين مِن مساكين المسلمين، أطعِموني أطعَمكم الله تعالى مِن موائد الجنّة»، فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلّا الماء، وأصبحوا صيامًا، فلمّا أمسَوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه، ثمّ وقف عليهم في الثالثة أسيرٌ ففعلوا مثل ذلك، فلمّا أصبحوا أخذ عليٌّ بيد الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم فأقبلوا إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا أبصرهم وهم يرتعِشون كالفِراخ مِن شدّة الجوع قال عليه السلام: «ما أشدَّ ما يسوءني ما أرى بكم»، وقام فانطلق معهم فرأى فاطمةَ في مِحرابها قد التصق ظهرُها ببطنها / وغارت عيناها فساءه ذلك، فنزل جبريلُ عليه السلام وقال: [٢٥٠و]
«خُذها يا محمّد هنأك الله تعالى في أهل بيتك»، فأقرأه السورة.[2]

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ⑬ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ⑭ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ⑮ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ⑯ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ⑰ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ⑱ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ⑲﴾

---

١ كذا في م س.

٢ لم أقف عليه في مظانّه. وهو بمعناه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨/٢٢٣-٢٣٢، وفصّل محقّقوه الكلام على وضع هذا الحديث؛ وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٥/٤.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ حال مِن ﴿هُم﴾ في ﴿جَزَىٰهُم﴾ والعامل فيها ﴿جَزَىٰ﴾. وقيل: صفة لـ﴿جَنَّةً﴾ مِن غير إبراز الضمير.[1] و"الأرائك" هي السُّرر في الحِجال.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ إمّا حال ثانية مِن الضمير أو المستكنّ في ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، والمعنى أنّه يمرّ عليهم هواء معتدِل لا حارّ مُحمٍ ولا بارد مُؤذٍ. وقيل: الزَّمْهرير: القمر في لغة طيّئ،[2] والمعنى أنّ هواءها مضيء بذاته لا يحتاج إلى شمس ولا قمر.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ عطفٌ على ما قبلها حال مثلَها، أو صفة لمحذوف معطوف على ﴿جَنَّةً﴾، أي: وجنةً أخرى دانيةً عليهم ظلالها، على أنّهم وُعدوا جنّتين كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن، ٥٥/٤٦].

وقُرئ: "دَانِيَةٌ"[3] بالرفع على أنّه خبر لـ﴿ظِلَٰلُهَا﴾، والجملة في حيّز الحال، والمعنى لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا، والحال أنّ ظلالها دانية. قالوا: معناه أنّ ظلال أشجار الجنّة قريبة مِن الأبرار مَظلّة عليهم زيادةً في نعيمهم، على معنى أنّه لو كان هناك شمس مؤذِية لكانت أشجارها مظلّةً عليهم مع أنّه لا شمسَ ثمّة ولا قمر.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي: سُخِّرت ثمارها لمتناوليها وسُهِّل أَخْذها، مِن "الذلّ" وهو ضدّ الصعوبة. والجملة حال مِن ﴿دَانِيَةً﴾، أي: تدنو ظلالها عليهم مذلَّلة لهم قطوفها، أو معطوفة على ﴿دَانِيَةً﴾، أي: دانيةً عليهم ظلالها ومذلَّلةً قطوفها، وعلى تقدير رفع ﴿دَانِيَةً﴾، فهي جملة فعليّة معطوفة على جملة اسميّة.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ الكوبُ: الكوز العظيم الذي لا أُذنَ له ولا عروةَ.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٠٦.

٢ نقله الزمخشري عن ثعلب في الكشّاف، ٤/٥٠٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٦.

﴿كَانَتْ قَوَارِيرَاْ ۞ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: تكوَّنت جامعةً بين صفاء الزجاجة وشفيفها ولِين الفضّة وبياضها، والجملة صفة الأكواب. وقُرئ بتنوين ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الثاني أيضًا،[١] وقُرئا بغير تنوين،[٢] وقُرئ الثّاني بالرفع،[٣] على "هي قواريرُ".

[٢٥٠ظ] / ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ صفة لـ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ ومعنى تقديرهم لها أنّهم قدّروها في أنفسهم وأرادوا أن تكون على مقاديرَ وأشكال معيَّنة موافقةً لشهواتهم، فجاءت حسبما قدّروها، أو قدّروها بأعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها. وقيل: الضمير للطائفين بها المدلول عليهم بقوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾، فالمعنى قدّروا شرابها على قدر اشتهائهم.[٤] وقُرئ: "قُدِّرُوهَا"[٥] على البناء للمفعول، أي: جُعلوا قادرين لها كما شاءوا مِن "قدَّر" منقولًا مِن "قَدَرت الشيءَ".

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ أي: ما يُشبه الزنجبيل في الطعم، وكان الشراب الممزوج به أطيبَ ما تستطيبه العرب وألذَّ ما تستلذّ به.

﴿عَيْنًا﴾ بدل مِن ﴿زَنجَبِيلًا﴾. وقيل: تُمزج كأسهم بالزَّنجبيل بعينه، أو يخلُق الله تعالى طعمَه فيها،[٦] فـ﴿عَيْنًا﴾ حينئذ بدل مِن ﴿كَأْسًا﴾، كأنّه قيل: ويُسقَون فيها كأسًا كأس عين، أو نصب على الاختصاص. ﴿فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ لسلاسة انحدارها في الحَلْق وسهولة مَساغها، يقال: شراب سَلسَل وسلسال وسلسبيل، ولذلك حُكم بزيادة "الباء"، والمراد بيانُ أنّها في طعم الزنجبيل، وليس فيها لذعة؛ بل نقيض اللذع الذي هو السَّلاسة.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: دائمون على ما هم عليه مِن الطراوة والبهاء ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ لحُسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم وانعكاس أشعّة بعضهم إلى بعض.

---

١ قرأ بها نافع والكسائي وأبو جعفر أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٩٥/٢.

٢ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر وحفص ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣٩٥/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٦.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٦/٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وابن عبّاس والضحّاك وقتادة، والجَحدري وأبان وشيبان وحمّاد بن زيد وحمّاد بن عمرو، كلُّهم عن عاصم، والواقدي عن حفص بن عاصم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٦٦.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٤.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾[1] ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدَّر ولا مَنويّ؛ بل معناه أنّ بصرَك أينما وقع في الجنّة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي: هنيئًا واسعًا. وفي الحديث: «أدنى أهلِ الجنّة منزلةً ينظر في مُلكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه».[2] وقيل: لا زوالَ له.[3] وقيل: إذا أرادوا شيئًا كان.[4] وقيل: يُسلِّم عليهم الملائكة ويستأذنون عليهم.[5]

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ قيل: ﴿عَالِيَهُمْ﴾ ظرف على أنّه خبر مقدَّم و﴿ثِيَابُ﴾ مبتدأ مؤخَّر، والجملة صفة أخرى لـ﴿وِلْدَانٌ﴾، كأنّه قيل: يطوف عليهم ولدان فوقهم ثياب... إلخ، وقيل: حال مِن ضمير ﴿عَالِيَهُمْ﴾ أو ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾، أي: يطوف عليهم ولدان عاليًا / للمَطوف عليهم ثياب... إلخ، أو حسبتَهم لؤلؤًا [٢٥١و]
منثورًا عاليًا لهم ثياب... إلخ.[6]

وقُرئ: "عَالِيْهِمْ"[7] بالرفع على أنّه مبتدأ خبره ﴿ثِيَابُ﴾، أي: ما يعلوهم مِن لباسهم ثياب سندس. وقُرئ: "خُضْرٍ"[8] بالجرّ حملًا على ﴿سُندُسٍ﴾ بالمعنى، لكونه اسم جنس. ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بالرفع عطفًا على ﴿ثِيَابُ﴾. وقُرئ برفع الأوّل وجرّ الثاني،[9] وقُرئ بالعكس،[10] وقُرئ بجرّهما،[11] وقُرئ: "وَاسْتَبْرَقَ"[12] بوصل "الهمزة"

---

١ م س: ثمّة.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٥٦٦/٢٣؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٩٤/٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٩٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٤.

٣ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٩٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٤.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٤.

٥ مرويّ عن سفيان في جامع البيان للطبري، ٥٦٧/٢٣.

٦ الوجهان في اللباب لابن عادل، ٤٤٢/٢٠؛ وثانيهما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٠/٣.

٧ قرأ بها نافع وحمزة وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢. | ضُبطت في س: "عاليُهم".

٨ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.

٩ قرأ بها ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.

١٠ قرأ بها ابن كثير وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.

١١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.

١٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن وأبي البَرَهسم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٦-١٦٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٧.

والفتح على أنّه "استفعل" مِن البريق، جُعل عَلَمًا لهذا النوع مِن الثياب.

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ عطفٌ على ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف، ٣١/١٨]، لإمكان الجمع والمُعاقبة والتبعيض، فإنّ حليّ أهل الجنّة تختلف حسب اختلاف أعمالهم، فلعلّه تعالى يُفيض عليهم جزاءً لِما عملوه بأيديهم حُلِيًّا وأنوارًا تتفاوت تفاوتَ الذهب والفضّة، أو حالٌ مِن ضمير ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ بإضمار "قد"، وعلى هذا يجوز أن يكون هذا للخدَم وذاك للمخدومين.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ هو نوع آخرُ يفوق النوعين السالفين، كما يُرشد إليه إسنادُ سقيِه إلى ربّ العالمين ووصفُه بالطهوريّة، فإنّه يُطهِّر شاربه عن دنَس المَيل إلى الملاذّ الحسّيّة والركون إلى ما سوى الحقّ، فيتجرّد لمطالعة جماله مُلتذًّا بلقائه باقيًا ببقائه. وهي الغاية القاصية مِن منازل الصدّيقين، ولذلك خُتم بها مقالة ثواب الأبرار.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ على إضمار القول، أي: يقال لهم: إنّ هذا الذي ذُكر مِن فنون الكرامات ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ بمقابلة أعمالكم الحسَنة ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ مَرضيًّا مقبولًا مقابِلًا بالثواب.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ أي: مفرّقًا منجّمًا لحِكَم بالغة مقتضية له لا غيرُنا، كما يعرِب عنه تكرير الضمير مع "إنّ".

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير نصرك على الكفّار فإنّ له عاقبةً حميدةً. ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي: كلّ واحد مِن مرتكب / الإثم الداعي لك إليه، [٢٥١ظ]
ومِن الغالي في الكفر الداعي إليه. و﴿أَوْ﴾ للدلالة على أنّهما سِيّان في استحقاق العصيان والاستقلال به، والتقسيمُ باعتبار ما يدعُونه إليه، فإنّ ترتّب النهي على الوصفين مُشعِر بعليّتهما له، فلا بدّ أن يكون النهي عن الإطاعة في الإثم والكفر،

لا فيما ليس بإثم ولا كفر. وقيل: الآثم عُتبةُ، فإنّه كان ركّابًا للمآثم متعاطيًا لأنواع الفُسوق، والكَفور الوليدُ، فإنّه كان غاليًا في الكفر شديدَ الشكيمة في العتوّ.[١]

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وداوِمْ على ذِكره في جميع الأوقات، أو دُمْ على صلاة الفجر والظهر والعصر، فإنّ الأصيل ينتظِمهما.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ وبعضَ الليل فصلِّ له، ولعلّه صلاة المغرب والعشاء. وتقديم الظرف لِما في صلاة الليل مِن مزيد كُلفةٍ وخُلوص. ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ وتهجّد له قِطْعًا مِن الليل طويلًا.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ۝٢٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣١﴾

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفَرة ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وينهمِكون في لذّاتها الفانية ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ أي: أمامهم لا يستعدُّون أو ينبِذون وراء ظهورهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ لا يعبئون به، ووَصْفُه بالثقل لتشبيه شدّته وهَوله بثِقل شيء فادح باهظ لحامله بطريق الاستعارة، وهو كالتعليل لِما أُمِر به ونُهِي عنه.

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ لا غيرُنا ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب، ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ بعد إهلاكهم ﴿تَبْدِيلًا﴾ بديعًا لا ريبَ فيه هو البعث، كما ينبئ عنه كلمة ﴿إِذَا﴾، أو بدّلنا غيرَهم ممّن يُطيع، كقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة، ٣٩/٩]، و﴿إِذَا﴾ للدلالة على تحقّق القدرة وقوّة الداعية.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ إشارة إلى السورة أو الآيات القريبة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: فمَن شاء أن يتّخذ إليه تعالى سبيلًا، أي: وسيلةً تُوصله إلى ثوابه اتّخذه، أي: تقرّب إليه بالعمل بما في تضاعيفها.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٨/٤.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ تحقيق للحقّ ببيان أنّ مجرّد
[٢٥٢و] مشيئتهم غيرُ كافية في اتّخاذ السبيل، كما هو المفهوم مِن ظاهر الشرطيّة، / أي: وما تشاءون اتّخاذ السبيل، ولا تقدِرون على تحصيله في وقت مِن الأوقات إلّا وقتَ مشيئته[1] تعالى تحصيلَه لكم؛ إذ لا دَخْلَ لمشيئة العبد إلّا في الكسب، وإنّما التأثير والخلقُ لمشيئة الله عزّ وجلّ. وقُرئ: "يَشَاءُوْنَ"[2] بـ"الياء"، وقُرئ: "إِلَّا مَا يَشَاءُ اللهُ".[3]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بيان لكون مشيئته تعالى مبنيّةً على أساس العِلم والحكمة، والمعنى أنّه تعالى مبالغ في العِلم والحكمة، فيعلم ما يستأهله كلّ أحد فلا يشاء لهم إلّا ما يستدعيه عِلمه ويقتضيه حكمته.

وقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ بيان لأحكام مشيئته المترتِّبة على عِلمه وحكمته، أي: يُدخل في رحمته مَن يشاء أن يُدخله فيها، وهو الذي يصرف مشيئته نحو اتّخاذ السبيل إليه تعالى، حيث يوفِّقه لِما يؤدّي إلى دخول الجنّة مِن الإيمان والطاعة.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الذين صرفوا مشيئتهم إلى خِلاف ما ذُكر ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: متناهيًا في الإيلام. قال الزجّاج نصب ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنّ ما قبله منصوب، أي: يُدخل مَن يشاء في رحمته ويعذِّب الظالمين، ويكون ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيرًا لهذا المضمر.[4] وقُرئ بالرفع[5] على الابتداء.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ كان جزاؤه على الله تعالى جنّةً وحريرًا».[6]

---

[1] س: مشيئة الله.
[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٧.
[4] انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٢٦٤/٥؛ ونقله ابن عادل في اللباب، ٥٧/٢٠.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن الزُّبير وأبان بن عثمان وإبراهيم النخَعي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٧.
[6] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٠/٢٨ (الإنسان، ١/٧٦)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٩٨/٤ (الإنسان، ١/٧٦)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٩/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الإنسان

وتسمَّى سورة الدهر، والأبرار، والأمشاج، و«هل أتى».

وهي مكِّيَّة عند الجمهور على ما في «البحر»[1]، وقال مجاهد وقتادة: مدنيَّة كلُّها. وقال الحسن وعكرمة والكلبيُّ: مدنيَّة إلا آيةً واحدةً فمكِّيَّة وهي: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الآية: ٢٤]. وقيل: مدنيَّة إلا مِن قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الآية: ٢٤] إلى آخرها، فإنَّه مكِّيٌّ، وعن ابنِ عادل حكاية مدنيَّتها على الإطلاق عن الجمهور[2]، وعليه الشيعة.

وآيها إحدى وثلاثون آيةً بلا خلاف، والمناسبة بينها وبين ما قبلها في غاية الوضوح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ أصله على ما قيل: أَهَلْ، على أنَّ الاستفهامَ للتقرير، أي: الحمل على الإقرار بما دخلت عليه، والمقرَّر به مَن ينكر البعث، وقد عُلمَ أنَّهم يقولون: نعم قد مضى على الإنسان حين لم يكن كذلك، فيقال: فالذي أوجده بعد أن لم يكن كيف يمتنع عليه إحياؤه بعد موته؟! و«هل» بمعنى «قد»، وهي للتقريب، أي: تقريب الماضي مِن الحال، فلما سدَّت «هل» مسدَّ الهمزة دلَّت على معناها ومعنى الهمزة معاً، ثم صارت

---

(١) ٨/ ٣٩٣.

(٢) اللباب ٢٠/ ٣.

حقيقة في ذلك، فهي للتقرير والتقريب، واستدلَّ على ذلك الأصل بقول زيد الخيل:

سائل فوارسَ يَرْبُوعٍ بشدَّتنا ... أَهَلْ رَأَونا بسَفْح القاعِ ذي الأَكَمِ[1]

وقيل: هي للاستفهام ولا تقريبَ، وجمعها مع الهمزة في البيت للتأكيد كما في قوله:

ولا لِلِما بهم أبداً دواء[2]

بل التأكيد هنا أقربُ؛ لعدم الاتحاد لفظاً، على أنَّ السيرافيَّ قال: الرواية الصحيحة: أم هل رَأَونا، على أنَّ «أم» منقطعة بمعنى «بل». وقال السيوطيُّ في «شرح شواهد المغني»: الذي رأيته في نسخة قديمة مِن ديوان زيد: فهل رَأَونا، بالفاء[3].

وعن ابنِ عباس وقتادة: هي هنا بمعنى «قد»، وفسَّرها بها جماعة مِن النحاة كالكسائيِّ وسيبويه[4] والمبرِّد[5] والفرَّاء[6]، وحُملت على معنى التقريب، ومن الناس مَن حَمَلها على معنى التحقيق، وقال أبو عبيدة: مجازها: قد أتى على الإنسان، وليس باستفهام[7]. وكأنَّه أراد ليس باستفهام حقيقةً، وإنَّما هي للاستفهام التقريري، ويرجع بالآخرة إلى «قد أتى»، ولعلَّ مرادَ مَن فسَّرها بذلك كابن عباس وغيره ما ذُكرَ، لا أنَّها بمعنى «قد» حقيقةً، وفي «المغني»[8] ما تفيدك مراجعتُه بصيرةً، فراجعه.

---

(١) سلف عند تفسير الآية (٢٢١) من سورة الشعراء.

(٢) عجز بيت لمسلم بن معبد الوالبي، وسلف ٢/ ٦، وصدره:

فلا والله لا يُلفى لما بي

(٣) شرح شواهد المغني ٢/ ٧٧٣.

(٤) الكتاب ١/ ١٠٠.

(٥) المقتضب ١/ ٤٣-٤٤ و٣/ ٢٨٩.

(٦) معاني القرآن ٣/ ٢١٣.

(٧) مجاز القرآن ٢/ ٢٧٩.

(٨) ص٤٦٠ وما بعدها.

والمراد بـ «الإنسان» الجنس على ما أخرجه ابنُ المنذر عن ابنِ عباس[1]، والحين: طائفةٌ محدودة مِن الزمان شاملةٌ للكثير والقليل، والدهر: الزمان الممتدُّ الغيرُ المحدود، ويقع على مدَّة العالَم جميعِها، وعلى كلِّ زمانٍ طويل غيرِ معيَّن، والزمان عامٌّ للكلِّ. والدهر وعاءُ الزمان، كلام فلسفيٌّ.

وتوقَّف الإمام أبو حنيفة في معنى الدهر منكَّراً ـ أي: في المراد به عرفاً ـ في الأيمان، حتى يقال: بماذا يَحنثُ إذا قال: واللهِ لا أُكلِّمه دهراً، والمعرَّفُ عنده مدَّةُ حياةِ الحالف عند عدم النيَّة، وكذا عند صاحبيه، والمنكَّر عندهما كالحين، وهو معرَّفاً ومنكَّراً كالزمان ستَّةُ أشهر إن لم تكن نيَّة أيضاً، وبها ما نوى على الصحيح، وما اشتهر مِن حكاية اختلاف فتاوى الخلفاء الأربعة في ذلك على عهدِه عليه الصلاة والسلام مستدلًّا كلٌّ بدليل، وقوله ﷺ بعد الرَّفْع إليه: «أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقتديتُم اهتديتُم»[2] إلَّا أنَّه اختار فتوى الأمير كرَّم الله تعالى وجهه بأنَّ الحينَ يومٌ وليلةٌ، لما فيه مِن التيسير، لا يصحُّ، كما لا يخفى على الناقد البصير، ولو صحَّ لم يعدل عن فتوى الأمير معدنِ البسالة والفتوَّة بعد أن اختارها مدينةُ العلم ومفخرُ الرسالة والنبوَّة.

والمعنى هنا: قد أتى ـ أو: هل أتى ـ على جنس الإنسان قَبْلَ زمانٍ قريب طائفةٌ محدودةٌ مقدَّرة كائنة مِن الزمان الممتدِّ لم يكن شيئاً مذكوراً، بل كان شيئاً غيرَ مذكور بالإنسانيَّة أصلاً، أي: غيرَ معروف بها، على أنَّ النفيَ راجع إلى القيد، والمراد أنَّه معدومٌ لم يُوجَد بنفسِه، بل كان الموجودُ أصلَه ممَّا لا يُسمَّى إنساناً، ولا يُعرَف بعنوان الإنسانيَّة وهو مادته البعيدة ـ أعني العناصر ـ أو المتوسِّطة وهي الأغذية، أو القريبة وهي النُّطفة المتولِّدة من الأغذية المخلوقة مِن العناصر. وجملة «لم يكن» إلخ حال مِن «الإنسان» أي: غير مذكور، وجوّز أن تكون صفة لـ «حين» بحذف العائدِ عليه، أي: لم يكن فيه شيئاً مذكوراً، كما في قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ١٢٣] وإطلاق الإنسان على مادته مجازٌ بجَعْل ما هو بالقوَّة منزَّلاً منزلةَ ما هو بالفعل، أو هو مِن مجاز الأوْل.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٩٧.

(٢) سلف عند تفير الآية (٢٢) من سورة الشورى.

وقيل: المراد بالإنسان آدمُ عليه السلام. وأيِّد الأوَّل بقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ فإنَّ الإنسان فيه معرفة معادَة، فلا يفترقان، كيف وفي إقامة الظاهر مقامَ المُضمر فَضْل التقرير والتمكين في النفس، فإذا اختلفا عموماً وخصوصاً فاتت الملاءمة، ولا شَكَّ أنَّ الحَمْلَ على آدمَ عليه السلام في هذا لا وَجْهَ له ولا نقض به على إرادة الجنس بناء على أنَّه لا عمومَ فيه ولا خصوصَ، نعم دلَّ قولُه سبحانه: «من نطفة» على أنَّ المراد غيرُه، أو هو تغليب، وقيل: يُجعَل ما للأكثر للكلِّ مجازاً في الإسناد، أو الطرف، ورُويت إرادته عن قتادة والثوريِّ وعكرمة والشعبيِّ وابنِ عباس أيضاً. وقال في رواية أبي صالح عنه: مرَّت به أربعون سنةً قَبْلَ أن ينفخَ فيه الروح وهو ملقًى بين مكَّة والطائف.

وفي رواية الضحاك عنه: أنَّه خُلقَ مِن طين فأقام أربعين سنة، ثم مِن حَمَأ مسنونٍ فأقام أربعين سنة، ثم مِن صلصال فأقام أربعين سنة، فتمَّ خَلْقُه بعد مئة وعشرين سنة، ثم نفخ فيه الروح.

وحكى الماورديُّ عنه أنَّ الحينَ المذكور هاهنا هو الزمنُ الطويل الممتدُّ الذي لا يُعرَف مقدارُه[1]. وروي نحوه عن عكرمة، فقد أخرج عبد بنُ حميد وابنُ المنذر عنه أنَّه قال: إنَّ مِن الحين حيناً لا يُدرَك. وتلا الآيةَ، فقال: واللهِ ما يُدرَى كم أتى عليه حتى خَلَقه اللهُ تعالى[2].

ورأيتُ لبعض المتصوِّفة أنَّ «هل» للاستفهام الإنكاري، فهو في معنى النفي، أي: ما أَتى على الإنسان حينٌ مِن الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، وظاهره القولُ بقِدَم الإنسان في الزمان على معنى أنَّه لم يكن زمان إلا وفيه إنسان وهو القِدَم النوعيُّ، كما قال به مَن قال مِن الفلاسفة، وهو كُفْرٌ بالإجماع، ووجِّه بأنَّهم عَنَوا شيئيَّة الثبوت لقِدَم الإنسان عندهم بذلك الاعتبار، دون شيئيَّة الوجود ضرورةَ أنَّه بالنسبة إليها حادثٌ زماناً، ويرشد إلى هذا قول الشيخ محيي الدين في الباب الثامن والخمسين وثلاث مئة من «الفتوحات المكِّيَّة»: لو لم يكن في العالَم مَن هو على صورة الحقِّ

(١) النكت والعيون ٦/ ١٦٢.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٩٧ ولم ينسبه لابن المنذر.

ما حصل المقصود مِن العلم بالحقِّ، أعني: العِلْم الحادثَ في قوله سبحانه: «كنتُ كنزاً لم أُعرَف، فأحببتُ أن أُعرَف فخلقتُ الخَلْقَ وتعرَّفت إليهم فعرفوني» فجعل نفسه كنزاً، والكنز لا يكون إلا مُكتَنَزاً في شيءٍ، فلم يكن كنز الحقِّ نفسه إلا في صورة الإنسان الكامل في شيئيَّة ثبوتِه هناك، كان الحقُّ مكنوزاً فلما ألبسَ الحقُّ الإنسانَ ثوبَ شيئيَّة الوجود، ظهر الكنز بظهوره، فعرفه الإنسان الكامل بوجوده، وعَلِمَ أنَّه كان مكنوزاً فيه في شيئيَّة ثبوته، وهو لا يَشعُر به[1]. انتهى.

ولا يخفى أنَّ الأشياء كلَّها في شيئيَّة الثبوت قديمةٌ لا الإنسان وحدَه، ولعلَّهم يقولون: الإنسان هو كلُّ شيءٍ؛ لأنَّه الإمام المبين، وقد قال سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

والكلام في هذا المقام طويل، ولا يَسَعنا أن نطيل، بَيْدَ أنَّا نقول: كون «هل» هنا للإنكار مُنكَر، وأنَّ دعوى صحَّة ذلك لإحدى الكُبَر، والذي فهمه أجلَّةٌ من الصحابة رضي الله عنهم من الآية الإخبارَ الإيجابيَّ، أخرج عبد بن حميد وغيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه سمع رجلاً يقرأ: «هل أتى على الإنسان شيء مِن الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً» فقال: ليتها تمَّت[2].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه سمع رجلاً يتلو ذلك، فقال: يا ليتها تمَّت. فعُوتِبَ في قوله هذا، فأخذ عموداً مِن الأرض، فقال: يا ليتني كنتُ مثلَ هذا[3].

﴿أَمْشَاجٍ﴾ جمع: مَشَج، بفتحتين، كسبب وأسباب، أو: مَشِج، بفتح فكسر ككتِف وأكتاف، أو مَشِيْج[4] كشهيد وأشهاد، ونصير وأنصار. أي: أخلاط، جمع:

---

(١) الفتوحات المكية ٣/ ٢٦٧ والحديث المذكور سلف الكلام عليه ١/ ١٩٩ و٢٦/ ٥١.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٩٧ وعزاه أيضاً لابن المبارك في الزهد ص٧٩، وأبي عبيد في فضائل القرآن (١٦)، وابن المنذر، وورد في المصادر كلها: حين، بدل: شيء. في الآية.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٩٧ وعزاه لابن أبي شيبة في المصنف ١٣/ ٢٩٨، وعبد بن حميد وابن المنذر، وورد فيهما: حين، بدل: شيء.

(٤) جاء في هامش الأصل: وفعيل يجمع على أفعال، وإن قال في «التسهيل»: إنه غير مقيس. انتهى منه.

خِلْط، بمعنى مختلط ممتزج، يقال: مشجتُ الشيءَ: إذا خلطته ومزجته، فهو مشيج وممشوج، وهو صفة لـ «نطفة»، ووُصفَ بالجمع وهي مفرَدة؛ لأنَّ المرادَ بها مجموعُ ماء الرجل والمرأة، والجمع قد يقال على ما فوق الواحد، أو باعتبار الأجزاء المختلفة فيهما رقَّة وغِلَظاً، وصُفْرة وبياضاً، وطبيعة وقوَّة وضعفاً، حتى اختصَّ بعضُها ببعض الأعضاء على ما أراده اللهُ تعالى بحكمته، فخلقه بقدرته، وفي بعض الآثار: أنَّ ما كان مِن عَصَب وعَظْم وقوَّة فمِن ماء الرجل، وما كان مِن لحم ودمٍ فمِن ماء المرأة.

والحاصل أنَّه نُزِّل الموصوفُ منزلةَ الجمع، ووصف بصفة أجزائه.

وقيل: هو مفرَد جاء على أَفْعَال كأعشار وأكياش في قولهم: بُرْمَة أعشار، أي: متكسِّرة، وبُرْد أكياش، أي: مغزولٌ غَزْله مرَّتين. واختاره الزمخشريُّ[١]، والمشهور عن نصِّ سيبويه وجمهور النحاة أنَّ أفعالاً لا يكون [إلَّا] جمعاً[٢]، وحكي عنه أنَّه ذهب إلى ذلك في أنعام[٣].

ومعنى نطفة مختلطة عند الأكثرين: نطفةٌ اختلطَ وامتزج فيها الماءان، وقيل: اختلط فيها الدمُ والبَلْغم والصفراء والسوداء، وقيل: الأمشاج نفسُ الأخلاط التي هي عبارة عن هذه الأربعة، فكأنَّه قيل: «مِن نطفة» هي عبارة عن أخلاط أربعة.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أنَّه قال: «أمشاج» أي: ألوان، أي: ذات ألوان، فإنَّ ماءَ الرجل أبيضُ وماءَ المرأة أصفرُ، فإذا اختلطا ومَكَثا في قَعْر الرَّحِم اخْضَرَّا كما يخضرُّ الماءُ بالمكثِ[٤]. وروي عن الكلبي.

وأخرج عن زيد بنِ أسلم أنَّه قال: الأمشاج: العروق التي في النطفة. وروي ذلك عن ابنِ مسعود، أي: ذات عروق.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٩٤.

(٢) ما بين معقوفين لم يرد في الأصل و(م)، وهي زيادة يقتضيها السياق، ولأن سيبويه صرَّح في الكتاب ٣/ ٤٩٦ بأن أفعالاً لا يكون إلا جمعاً، وكذا ذكر في البحر المحيط ٨/ ٣٩٤ بأن أفعالاً لا يكون مفرداً، وينظر الدر المصون ١٠/ ٥٩١-٥٩٣، وينظر كذلك ما سلف ١٤/ ١٨٢.

(٣) الكتاب ٣/ ٢٢٠.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٩٨بنحوه، وعزاه أيضاً لعبد بن حميد.

وروي عن عكرمة، وكذا ابن عباس أنَّه قال: «أمشاج»: أطوار، أي: ذات أطوار، فإنَّ النطفةَ تصير علقةً ثم مضغةً، وهكذا إلى تمام الخِلْقة ونَفْخِ الروح.

وقوله تعالى: ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ حالٌ مِن فاعل «خلقنا»، والمراد: مريدينَ ابتلاءَه واختبارَه بالتكليف فيما بَعْدُ، على أنَّ الحالَ مقدَّرة، أو ناقلين له مِن حالٍ إلى حال ومِن طورٍ إلى طور، على طريقة الاستعارة؛ لأنَّ المنقولَ يَظهرُ في كلِّ طورٍ ظهوراً آخرَ كظهور نتيجة الابتلاءِ والامتحان بَعْدَه، وروي نحوه عن ابنِ عباس. وعلى الوجهين ينحلُّ ما قيل: إنَّ الابتلاءَ بالتكليف، وهو يكون بعد جَعْله سميعاً بصيراً لا قَبْلُ، فكيف يترتَّب عليه قوله سبحانه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢﴾. (١وقيل: الكلام على التقديم والتأخير١)، والجملة استئناف تعليليٌّ، أي: فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه، وحكي ذلك عن الفرَّاء(٢)، وعُسِّفَ، لأنَّ التقديمَ لا يقع في حاقِّ موقعه لا لفظاً لأجل الفاء، ولا معنىً؛ لأنَّه لا يتَّجه السؤال قبل الجعل، والأَوْجه الأَوَّل، وهذا الجعل كالمسبَّب عن الابتلاء؛ لأنَّ المقصود مِن جعله كذلك أن يَنظُر الآياتِ الآفاقيَّة والأنفسيَّة ويَسمعَ الأدلَّة السمعيَّة، فلذلك عطف على الخَلْق المقيَّد به بالفاء، ورتّب عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ لأنَّه جملة مستأنفةٌ تعليليَّة في معنى: لأنَّا هديناه، أي: دَلَلناه على ما يُوصِله من الدلائل السمعيَّة كالآيات التنزيليَّة، والعقليَّةِ كالآيات الآفاقيَّة والأنفسيَّة، وهو إنَّما يكون بعد التكليف والابتلاء.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ حالان مِن مفعول «هدينا»، و«إمَّا» للتفصيل باعتبار تعدُّد الأحوال مع اتِّحاد الذات، أي: هديناه ودَلَلناه على ما يُوصِل إلى البُغْية في حالتَيْه جميعاً مِن الشكر والكفر، أو للتقسيم للمُهْدى باختلاف الذوات والصفات، أي: هديناه السبيل مقسوماً إليها، بعضهم شاكر بالاهتداء للحقِّ وطريقِه بالأخذ فيه، وبعضهم كفور بالإعراض عنه، وحاصله: دَلَلناه على الهداية والإسلام، فمنهم مهتدٍ مسلم، ومنهم ضالٌّ كافر.

(١-١) ليست في الأصل.
(٢) معاني القرآن ٣/ ٢١٤.

وقيل: حالان مِن «السبيل»، أي: عرَّفناه السبيلَ إمَّا سبيلاً شاكراً، وإمَّا سبيلاً كفوراً، على وصف السبيل بوصف سَالِكِه مجازاً، والمراد به لا يَخفى.

وعن السُّدِّيِّ: أنَّ السبيلَ هنا سبيلُ الخروج مِن الرحم. وليس بشيءٍ أصلاً.

وقرأ أبو السَّمَّال وأبو العاج[١]: «أَمَّا» بفتح الهمزة في الموضعين[٢]، وهي لغة حكاها أبو زيد عن العرب، وهي التي عدَّها بعض الناس ـ على ما قال أبو حيَّان[٣] ـ في حروف العطف، وأنشدوا:

تُلَقِّحُها أَمَّا شَمالٌ عَرِيَّةٌ وأَمَّا صَبَاً جِنْحَ العَشِيِّ هَبوبُ[٤]

وجعلها الزمخشريُّ «أمّا» التفصيليَّة المتضمِّنة معنى الشرط، على معنى: أمَّا شاكراً فبتوفيقنا، وأمَّا كفوراً فبسُوءِ اختيارِه[٥]. وهذا التقدير إبراز منه للمَذْهب، قيل: ولا عليه أن يجعله مِن باب: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] كأنَّه قيل: أمَّا شاكراً فبهدايتنا، أي: دعائنا أو أقدارنا، على ما فسّر به الهداية، وأمَّا كفوراً فبها أيضاً، لاختلاف وجه الدعاء، لأنَّ الهدايةَ هاهنا ليست في مقابلة الضلال، وهذا جارٍ على المذهبين وسالم عن حذف ما لا دليلَ عليه.

وجوَّز في «الانتصاف» أن يكون التقديرُ: أمَّا شاكراً فمثاب، وأمَّا كفوراً فمعاقب.

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): قوله: وأبو العاج، وهو: كثير بن عبد الله السلمي، شامي، وَلِيَ البصرة لهشام بن عبد الملك. انتهى منه. وهو منقول من البحر ٨/ ٣٩٤.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٦، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٤.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٩٤.

(٤) البيت في المقرّب لابن عصفور ١/ ٢٣١، ورصف المباني للمالقي ص١٠١، والدر المصون ١٠/ ٥٩٥، وخزانة الأدب ١١/ ٨٧، ونسبه لأبي القمقام ـ ولم ينسب عند غيره ـ والدرر اللوامع ٦/ ١٢٠، وورد في بعض المصادر: تنفحها، وفي بعضها الآخر: يلفحها، بدل: تلقحها. وورد في بعضها: الظلام، بدل: العشي. ونقل البغدادي في خزانة الأدب رواية الفرَّاء بالياء وفتح الهمزة: أيما، بدل: أمَّا.

(٥) الكشاف ٥/ ١٩٤.

وإيراد الكفور بصيغة المبالغة؛ لمراعاة الفواصل، والإشعارِ بأنَّ الإنسان قلَّما يخلو مِن كُفرانٍ ما، وإنَّما المؤاخَذ عليه الكفرُ المفرط.

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ هيَّأنا ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ مِن أفراد الإنسان الذي هديناه السبيل ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ بها يُقادونَ ﴿وَأَغۡلَٰلٗا﴾ بها يُقيَّدون ﴿وَسَعِيرًا ۝٤﴾ بها يُحرَقون، وتقديمُ وعيدهم مع تأخُّرهم؛ للجمع بينهما في الذِّكْر، كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦] ولأنَّ الإنذارَ أنسبُ بالمقام وحقيقٌ بالاهتمام، ولأنَّ تصديرَ الكلام وخَتْمَه بذِكْر المؤمنين أحسن، على أنَّ وصفَهم تفصيلاً ربَّما يخلُّ تقديمُه بتجاوب أطراف النظم الكريم.

وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر والأعمش: «سلاسلا» بالتنوين وصلاً، وبالألف المبدلة منه وقفاً(١)، وقال الزمخشريُّ: وفيه وجهان، أحدهما: أن تكون هذه النونُ بدلاً عن حرف الإطلاق ويجري الوصل مجرَى الوقف. والثاني: أن يكون صاحبُ القراءة ممن ضَرِيَ برواية الشعر(٢) ومَرَنَ لسانُه على صرفِ غيرِ المنصرف(٣). وفي الأوَّل أنَّ الإبدال من حروف الإطلاق في غيرِ الشعر قليلٌ، كيف وضمَّ إليه إجراء الوصل مجرى الوقف، وفي الثاني تجويزُ القراءة بالتشهِّي دون سداد وجهها في العربيَّة. والوجهُ أنَّه لقصد الازدواج والمشاكلة، فقد جوّزوا لذلك صَرْفَ ما لا ينصرف، لا سيَّما الجمع فإنَّه سببٌ ضعيف لشَبَهه بالمفرَد في جمعه كـ: صواحبات يوسف، ونواكسي الأبصار(٤)، ولهذا جوّز بعضهم صَرْفَه مطلقاً، كما قيل:

---

(١) التيسير ص٢١٧، والنشر ٢/ ٣٩٤، والبحر ٨/ ٣٩٤.

(٢) ضَرِيَ بكذا وعلى كذا: لهجَ به. أساس البلاغة (ضري).

(٣) الكشاف ٤/ ١٩٥.

(٤) ومنه قول الفرزدق:

وإذا الرجال رَأَوْا يزيدَ رأيتَهم   خُضُعَ الرقاب نواكِسي الأبصار

قال السمين في الدر المصون ١٠/ ٥٩٨: بكسر السين من نواكس، وبعدها ياء تظهر خطًّا لا لفظاً، لذهابها لالتقاء الساكنين، والأصل: نواكسين، فحذفت النونُ للإضافة، والياءُ لالتقاء الساكنين.

والصَّرْفُ في الجمع أتى كَثِيرا حتَّى ادَّعى قومٌ به التخييرا[١]

وحكى الأخفش عن قوم مِن العرب أنَّ لغتهم صَرْفُ كلٍّ ما لا ينصرف إلا: أَفعل مِن. وصَرْفُ «سلاسلا» ثابت في مصاحف المدينة ومكَّة والكوفة والبصرة، وفي مصحف أُبَيٍّ وعبد الله بنِ مسعود، وروى هشام عن ابن عامر: «سلاسل» في الوصل، و«سلاسلا» بألف دون تنوين في الوقف[٢].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ شروع في بيان حُسْنِ حالِ الشاكرين إثر بيان سوء حالِ الكافرين، وإيرادهم بعنوان البرِّ للإشعار بما استحقُّوا به ما نالوه مِن الكرامة السَّنِيَّة مع تجديد صفة مَدْح لهم.

والأبرار جمع: بَرٍّ، كرَبٍّ وأرباب، أو: بَارٍّ كشاهد وأشهاد، بناء على أنَّ فاعلاً يُجمَع على أفعال، والبَرُّ: المطيعُ المتوسِّع في فعل الخير، وقيل: مَن يؤدِّي حقَّ الله تعالى ويوفي بالنذر. وعن الحسن: هو الذي لا يؤذي الذَّرَّ ولا يرضى الشَّرَّ.

﴿يَشْرَبُونَ﴾ في الآخرة ﴿مِن كَأْسٍ﴾ هي كما قال الزجَّاج: الإناء إذا كان فيه الشراب، فإذا لم يكن لم يسمَّ كأساً[٣]. وقال الراغب: الكأس: الإناءُ بما فيه من الشَّراب، ويُسمَّى كلُّ واحد منهما بانفراده كأساً[٤]. والمشهور أنَّها تُطلَق حقيقةً على الزجاجة إذا كانت فيها خمر، ومجازاً على الخمر بعلاقة المجاورة.

والمراد بها هاهنا قيل: الخمر، فـ«من» تبعيضيَّة أو بيانيَّة. وقيل: الزجاجة التي فيها الخمر، فـ«من» ابتدائيَّة.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ أظهر ملاءَمةً للأوَّل. والظاهر أنَّ هذا على منوال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧] والمجيء بالفعل للتحقيق

---

(١) سلف ١٧/ ٣٢٧.
(٢) السبعة ص٦٦٣، والنشر ٢/ ٣٩٤-٣٩٥، والبحر ٨/ ٣٩٤ والكلام منه.
(٣) معاني القرآن ٥/ ٢٥٨.
(٤) المفردات (كاس).

والدوام. وقيل: «كان» تامَّة مِن قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. والمزاج: ما يُمزَج به، كالحِزام لما يُحزَم به، فهو اسم آلة.

و«كافور» على ما قال الكلبيُّ: عَلَمُ عينٍ في الجنَّة ماؤها في بياض الكافور وعَرْفِه وبَرْدِه. وصُرِفَ لتَوَافُقِ الآي، والكلام على حذف مضاف، أي: ماء كافور، والجملة صفة «كأس»، وهذا القول خلافُ الظاهر، ولعلَّه ـ إن لم يصحَّ فيه خبرٌ ـ لا يُقبَل.

وقرأ عبد الله: «قافوراً» بالقاف بدل الكاف[1]، وهما كثيراً ما يتعاقبان في الكلمة، كقولهم: عربيٌّ قُحٌّ، وكُحٌّ.

وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا﴾ بدل مِن كافور.

وقال قتادة: يُمزَج لهم بالكافور ويُختَم لهم بالمِسْك، وذلك لبرودة الكافور وبياضِه وطِيْبِ رائحته. فالكافور بمعناه المعروف. وقيل: إنَّ خمرَ الجنَّة قد أودعها الله تعالى ـ إذ خَلَقَها ـ أوصافَ الكافور الممدوحة، فكونه مزاجاً مجازٌ في الاتِّصاف بذلك. فـ «عيناً» على هذين القولين بدلٌ مِن محلِّ «كأس» على تقدير مضاف، أي: يشربون خمراً خمر عينٍ، أو نصب على الاختصاص بإضمار: أعني، أو: أخصُّ، كما قال المبرِّد. وقيل: على الحال مِن ضمير «مزاجها». وقيل: مِن «كأس» وساغ لوصفه، وأُريدَ بذلك وصفها بالكثرة والصفاء.

وقيل: منصوب بفعل يفسِّره ما بَعْدُ، أعني قولَه تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ على تقدير مضاف أيضاً، أي: يشربون ماءَ عينٍ يشرب بها.. إلخ. وتعقّب بأنَّ الجملةَ صفةُ «عيناً» فلا يَعمل فعلها بها، وما لا يَعمل لا يفسّر عاملاً، وأُجيب بمنع كونها صفة على هذا الوجه، والتركيب عليه نحوُ: رجلاً ضربته. نعم هي صفة «عين» على غير هذا الوجه.

والباء للإلصاق وليست للتعدية، وهي متعلِّقة معنىً بمحذوف، أي: يَشربُ الخمرَ ممزوجةً بها ـ أي: بالعين ـ عبادُ الله، وهو كما تقول: شربتُ الماءَ بالعسل،

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٩٥.

هذا إذا جُعلَ «كافور» عَلَم عينٍ في الجنَّة، وأمَّا على القولين الآخَرين، فقيل: وجه الباء أنْ يُجعَل الكلامُ مِن باب:

يَـجـرَحُ فـي عَـرَاقـيـبـهـا نَـصْـلِـي[(١)]

لإفادة المبالغة. وقيل: الباء للتعدية، وضمّن «يشرب» معنى يَرْوَى، فعدِّي بها. وقيل: هي بمعنى «من». وقيل: هي زائدة، والمعنى: يشربها، كما في قول الهذلي:

شَـرِبْـنَ بـمـاءِ الـبـحـرِ ثـم تَـرَفَّـعَـتْ   مـتـى لُـجَـجٍ خُـضْـرٍ لـهـنَّ نَـئِـيْـجُ[(٢)]

ويعضد هذا قراءةُ ابنِ أبي عَبْلَة: «يَشربها»[(٣)].

وقيل: ضمير «بها» لـ «الكأس»، والمعنى: يشربون العينَ بتلك الكأسِ، وعليه يجوز أن يكون «عيناً» مفعولاً لـ «يشرب» مقدَّماً عليه. و«عباد الله» المؤمنون أهل الجنَّة.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ صفة أخرى لـ «عيناً»، أي: يُجرونها حيث شاؤوا مِن منازلهم إجراءً سهلاً لا يَمتنعُ عليهم، على أنَّ التنكيرَ للتنويع، أخرج عبد الله بنُ أحمد في «زوائد الزهد» عن ابن شوذب أنَّه قال: معهم قضبان ذهب يُفجِّرون بها، فيتبع الماءُ قضبانَهم[(٤)]. وفي بعض الآثار أنَّ هذه العين في دارِ رسول الله ﷺ تفجَّر إلى دور الأنبياء عليهم السلام والمؤمنين[(٥)].

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ استئنافٌ مسوق لبيانِ ما لأجله يرزقونَ هذا النعيمَ، مشتملٌ على نوعِ تفصيلٍ لِمَا يُنبئُ عنه اسمُ الأبرار إجمالاً، كأنَّه قيل: ماذا يفعلونَ حتى ينالوا تلك المرتبةَ العاليةَ؟ فقيل: «يوفون» إلخ، وأُفيد أنَّه استئنافٌ للبيان، ومع ذلك عدل عن أَوْفَوا إلى المضارع؛ للاستحضار والدلالة على الاستمرار.

---

(١) سلف عند تفير الآية (٥٧) من سورة الأنفال.

(٢) سلف ٧/ ٥٩.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٩٥، والدر المصون ١٠/ ٦٠٠.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٩٨.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤١٠ وعزاه للثعلبي.

والوفاء بالنذر كنايةٌ عن أداء الواجبات كلِّها لعلم ما عداه بالطريق الأولى وإشارةِ النَّصِّ، فإنَّ مَن أوفى بما أوجبه على نفسه كان إيفاءُ ما أَوجبه اللهُ تعالى عليه أهمَّ له وأَحرى، وجَعْلُ ذلك كنايةً هو الذي يقتضيه ما روي عن قتادة. وعن عكرمة ومجاهد إبقاءه على الظاهر، قالا: أي: إذا نذروا طاعةً فَعَلوها.

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ﴾ عذابُه ﴿مُسْتَطِيرًا ۝﴾ فاشياً منتشراً في الأقطار غايةَ الانتشار، مِن استَطار الحريقُ والفَجْرُ، وهو أبلغ مِن طار؛ لأنَّ زيادةَ المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، وللطلب أيضاً دلالة على ذلك؛ لأنَّ ما يُطلَب مِن شأنه أن يُبالغ فيه، وفي وَصْفهم بذلك إشعارٌ بحُسْنِ عقيدتهم واجتنابهم عن المعاصي.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: كائنين على حبِّ الطعام، أي: مع اشتهائه والحاجة إليه، فهو مِن باب التتميم، ويجاوبه مِن القرآن قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وروي عن ابنِ عباس ومجاهد.

أو: على حبِّ الإطعام، بأنْ يكون ذلك بطِيْب نَفْسٍ وعدم تكلُّف، وإليه ذهب الحسين بنُ الفضل، وهو حسن.

أو: كائنين على حبِّ الله تعالى. أو: إطعاماً كائناً على حبِّه تعالى ولوجهه سبحانه وابتغاءِ مرضاته عزَّ وجلَّ، وإليه ذهب الفضيل بنُ عياض وأبو سليمان الدارانيُّ، فـ «على حبِّه» مِن باب التكميل، وزيَّفه بعضُهم، وقال: الأول هو الوجه، ويجاوبه القرآن، على أنَّ في قوله تعالى: «لوجه الله» بَعْدُ غنية عن قوله سبحانه: «لوجه الله»[١]، وفيه نَظَر، بل لعلَّه الأنسب لذاك.

وذِكْر الطعام مع أنَّ الإطعام يُغني عنه، لتعيين مرجع الضمير على الأوَّل، ولأنَّ الطعامَ كالعلم فيما فيه قوامُ البَدَن واستقامةُ البُنْية وبقاءُ النفس، ففي التصريح به تأكيدٌ لفخامة فِعْلهم على الأخيرين، ويجوز أن يُعتبر على الأوَّل أيضاً.

ثم الظاهر أنَّ المرادَ بإطعام الطعام حقيقته، وقيل: هو كناية عن الإحسان إلى

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: «على حبه»، بدل: «لوجه الله».

المحتاجين والمواساة معهم بأيِّ وجه كان، وإن لم يكن ذلك بالطعام بعَيْنه، فكأنَّه ينفعونَ بوجوه المنافع.

﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ قيل: أيَّ أسير كان، فعن الحسن أنَّه ﷺ كان يُؤتَى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين، فيقول: «أَحْسِنْ إليه» فيكون عنده اليومين والثلاثة فيُؤْثره على نفسه. وقال قتادة: كان أسيرُهم يومئذٍ المشرك، وأخوك المسلم أحقُّ أن تُطعِمه(١). وأخرج ابن عساكر(٢) عن مجاهد أنه قال: لما صدر النبيُّ ﷺ بالأَسارى مِن بدر أنفق سبعةٌ من المهاجرين: أبو بكر وعمر وعليٌّ والزبير وعبد الرحمن وسعد وأبو عبيدة بن الجراح على أسارى مشركي بدر، فقالت الأنصار: قتلناهم في الله وفي رسوله ﷺ وتعينونهم بالنفقة؟! فأنزل اللهُ تعالى فيهم تسع عشرة آية: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾. ففيه دليل على أنَّ إطعام الأسارى وإن كانوا من أهل الشرك حَسَنٌ ويُرجَى ثوابه.

والخبر الأوَّل قال ابن حجر: لم يذكره مَن يُعتمَد عليه من أهل الحديث. وقال ابن العراقي: لم أقف عليه. والخبر الثاني لم أَرَهُ لفردٍ غير ابن عساكر، ولا وثوقَ لي بصحَّته، وهو يقتضي مدنيَّة هذه الآيات، وقد عَلِمْتَ الخلاف في ذلك، نعم عند عامة العلماء يجوز الإحسان إلى الكفار في دار الإسلام ولا تُصرَف إليهم الواجبات.

وقال ابن جبير وعطاء: هو الأسير من أهل القِبْلة. قال الطيبيُّ: هذا إنما يستقيم إذا اتفق الإطعام في دار الحرب من المسلم لأسير في أيديهم.

وقيل: هو الأسير المسلم تُرِكَ في بلاد الكفار رهينة، وخرج لطلب الفداء.

وروى محيي السُّنَّة(٣) عن مجاهد وابنِ جبير وعطاء أنَّهم قالوا: هو المسجون من أهل القِبْلة. وفيه دليل على أنَّ إطعام أهل الحبوس المسلمين حَسَنٌ، وقد يقال:

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٨٨، وقد أورده ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٠ ولم يذكر فيه شيئاً.

(٢) في تاريخ مدينة دمشق ٣٥/ ٢٨٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٢٨.

لا يحسن إطعام المحبوس لوفاءِ دَيْنٍ يَقدِر على وفائه، إنما امتنع عنه تعنُّتاً ولغرض من الأغراض النفسانية.

وعن أبي سعيد الخدري: هو المملوك والمسجون. وتسمية المسجون أسيراً مجازٌ؛ لمنعه عن الخروج، وأما تسمية المملوك فمجاز أيضاً لكن قيل: باعتبار ما كان، وقيل: باعتبار شَبَهه به في تقيُّده بإسار الأمر وعدم تمكُّنه مِن فِعْل ما يهوى، وعُدَّ الغريمُ أسيراً؛ لقوله ﷺ: «غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك»[1]، وهو على التشبيه البليغ إلا أنَّه قيل في هذا الخبر ما قيل في الخبر الأوَّل.

وقال أبو حمزة الثمالي[2]: هي الزوجة، وضعفه ها هنا ظاهر.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ على إرادة قول هو في موضع الحالِ من فاعل «يطعمون»، أي: قائلين ذلك بلسان الحال؛ لِمَا يظهر عليهم من أمارات الإخلاص. وعن مجاهد: أما إنَّهم ما تكلَّموا به ولكن علمه الله تعالى منهم، فأثنى سبحانه به عليهم ليرغب فيه راغب. أو بلسان المقال إزاحةً لتوهُّم المَنِّ المُبطِل للصدقة وتوقُّع المكافأة المُنقِصة للأجر. وعن الصِّدِّيقة رضي الله عنها أنَّها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت، ثم تسأل الرسولَ: ما قالوا؟ فإذا ذَكَر دعاءً دَعَتْ لهم بمثله ليبقى لها ثوابُ الصدقة خالصاً عند الله عزَّ وجلَّ. وجوَّز أن يكون قولهم هذا لهم؛ لطفاً وتفقيهاً وتنبيهاً على ما ينبغي أن يكون عليه مَن أخلص تعالى، وليس بذاك.

وقوله سبحانه: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ بالأفعال ﴿وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ ولا شكراً وثناءً بالأقوال، تقرير وتأكيد لما قَبْلَه.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا﴾ أي: عذابَ يومٍ، فهو على تقدير مضاف، أو أنَّ خوفه كنايةٌ عن خوف ما فيه.

﴿عَبُوسًا﴾ تعبس فيه الوجوه، على أنه مِن الإسناد المجازي كما في: نهاره

---

(١) الكشاف ٤/ ١٩٦، وتفسير الرازي ٣/ ٢١٦، وتفسير البيضاوي ٨/ ٢٨٩، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٥.

(٢) في الأصل و(م): اليماني. والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ٤١١.

صائم، فقد روي عن ابن عباس: أنَّ الكافر يعبس يومئذٍ حتى يسيلَ من بين عينيه عَرَقٌ مثل القَطِران. أو يشبه الأَسَدَ العبوس، على أنَّه من الاستعارة المكنيَّة التخييلية، لكن لا يخفى أنَّ العبوسَ ليس من لوازم الأسد، وإنَّما اشتهر وصفه به، ففي التخييلية ضعفٌ ما، وقيل: إنَّه مِن التشبيه البليغ.

﴿قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾ شديد العبوس، ويقال: شديداً صعباً، كأنَّه التَفَّ شرُّه بعضه ببعض. وقيل: طويلاً، وهو رواية عن ابن عباس، وجاء: قُماطر، وأنشدوا لأسد بن ناعصة[1]:

واصطليتُ الحروبَ في كلِّ يومٍ ... باسلِ الشَّرِّ قَمْطَريرِ الصَّباحِ

وقول آخر:

بني عمِّنا هل تَذكرونَ بلاءَنا ... عليكم إذا ما كان يومٌ قُماطِرُ[2]

وإلى الأوَّل ذهب الزجَّاج، فقال: القمطرير: الذي يَعْبسُ حتى يجتمعَ ما بين عينيه، ويقال: اقمَطرَّت الناقةُ: إذا رفعت ذَنَبها وزمَّت بأنفها، وجمعت قطريها[3]، أي: جانبيها، كأنَّها تفعل ذلك إذا لقحت[4] كبراً، وقيل: لتضع حَمْلها، فاشتقاقه عنده - على ما قيل - مِن قطر بالاشتقاق الكبير، والميم زائدة، وهذا لا يلزم الزجَّاج فيجوز أن يكون مشتقًّا كذلك من القَمْطِ، ويقال: قَمَطه: إذا شدَّه وجَمَعَ أطرافه.

وفي «البحر»: يقال: اقمطرَّ فهو مُقَمْطر وقَمْطَرير وقُماطر إذا صَعُبَ واشتدَّ، واختلف في هذا الوزن وأكثر النحاة لا يثبتون افمعلَّ في أوزان الأفعال[5].

---

(١) في الأصل و(م): ناغصة. والمثبت من ترجمته في المؤتلف والمختلف للآمدي ص٢٩٩، وهو أسد بن ناعصة بن عمرو شاعر جاهلي قديم، له في أشعاره ألفاظ غريبة وحشية. والبيت ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩٧، والقرطبي في التفسير ٢١/ ٤٦٨.

(٢) البيت ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢١٦، والطبري في التفسير ٢٣/ ٥٤٧، والجوهري في الصحاح (قمطر)، والقرطبي في التفسير ٢١/ ٤٦٧.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٥٩، والكشاف ٤/ ١٩٧.

(٤) في (م): لحقت.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٩٢.

وهذه الجملة جوّز أن تكون علَّة لإحسانهم وفِعْلِهم المذكور، كأنَّه قيل: نَفْعَلُ بكم ما نَفْعَلُ؛ لأنَّا نخاف يوماً صفته كيت وكيت، فنحن نرجو بذلك أن يَقِيَنا ربُّنا جلَّ وعلا شرَّه. وأن تكون علَّة لعدم إرادة الجزاء والشكور، أي: إنَّا لا نريد منكم المكافأة؛ لخوفِ عقاب الله تعالى على طلب المكافأة بالصدقة.

وإلى الوجهين أشار في «الكشاف»[(١)]، وقال في «الكشف»: الثاني أَوْجَهُ؛ ليبقى قولُه: «لوجه الله» خالصاً غيرَ مشوب بحظِّ النفس مِن جَلْب نفعٍ أو دفع ضرٍّ، ولو جعل علَّة للإطعام المعلَّل على معنى: إنَّما خَصَصْنا الإحسان لوجهه تعالى؛ لأنَّا نخاف يوم جزائه، ومَن خافه لازَمَ الإخلاص، لكان وجهاً.

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ بسبب خوفهم وتحفُّظهم عنه. وقرأ أبو جعفر: «فوقَّاهم» بشدِّ القاف[(٢)]، وهو أوفق بقوله تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ أي: أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنِهم نضرةً في الوجوه وسروراً في القلوب.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على مشاقِّ الطاعات، ومهاجرةِ هوى النفس في اجتناب المحرَّمات وإيثارِ الأموال مأكلاً وملبساً ﴿جَنَّةً﴾ بستاناً عظيماً يأكلون منه ما شاؤوا ﴿وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ يلبسونه ويتزيَّنون به.

ومن رواية عطاء عن ابنِ عباس: أنَّ الحسن والحسين مرضا، فعادَهما جدُّهما محمد ﷺ ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وعادَهما مَن عادَهما مِن الصحابة، فقالوا لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: يا أبا الحسن لو نَذَرت على ولدَيْك، فنذر عليٌّ وفاطمة وفضَّة ـ جارية لهما ـ إن بَرِأا مما بهما أن يصوموا ثلاثةَ أيام شكراً، فألبس اللهُ تعالى الغلامين ثوب العافية وليس عند آل محمد قليل ولا كثير، فانطلق عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه إلى شمعون اليهودي الخيبري فاستقرضَ منه ثلاثة أَصْوُع من شعير، فجاء بها، فقامت فاطمة رضي الله عنها إلى صاع فطحنته وخبزت منه خمسةَ أقراص على عددهم، وصلَّى عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه مع النبيِّ ﷺ المغربَ، ثم

---

(١) ٤/١٩٦-١٩٧.

(٢) البحر المحيط ٨/٣٩٦.

أتى المنزلَ فوضع الطعام بين يديه، فوقف بالباب سائلٌ، فقال: السلام عليكم يا أهلَ بيت محمد ﷺ، أنا مسكين مِن مساكين المسلمين أطعموني أَطْعَمَكم اللهُ تعالى مِن موائد الجنة. فآثروه وباتوا لم يذوقوا شيئاً إلا الماء، وأصبحوا صياماً، ثم قامت فاطمة رضي الله عنها إلى صاع آخر فطحنته وخبزته، وصلَّى عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه مع النبيِّ ﷺ المغرب، ثم أتى المنزلَ فوضع الطعام بين يديه، فوقف يتيم بالباب، وقال: السلام عليكم يا أهلَ بيت محمد ﷺ، يتيم مِن أولاد المهاجرين، أَطعموني أَطْعَمكم اللهُ تعالى من مِوائد الجنة. فآثروه ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القَراح، وأصبحوا صياماً، فلما كان يوم الثالث قامت فاطمة رضي الله عنها إلى الصاع الثالث وطحنته وخبزته، وصلَّى عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه مع النبيِّ ﷺ المغربَ فأتى المنزل فوضع الطعام بين يديه، فوقف أسير بالباب، فقال: السلامُ عليكم يا أهلَ بيت محمد ﷺ، أنا أسيرُ محمدٍ عليه الصلاة والسلام أَطْعِموني أَطْعَمَكم اللهُ. فَآثَروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء القَراح، فلما أصبحوا أخذ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله ﷺ ورآهم يرتعشون كالفراخِ من شدَّة الجوع، قال: «يا أبا الحسن ما أشدَّ ما يَسُوءُني ما أرى بكم» وقام فانطلق معهم إلى فاطمة رضي الله عنها فرآها في محرابها قد التصقَ بطنُها بظهرها وغارت عيناها من شدَّة الجوع، فرقَّ لذلك ﷺ وساءَه ذلك، فهبط جبريل عليه السلام، فقال: خذها يا محمد هنَّأك الله تعالى في أهلِ بيتك. قال: وما آخُذُ يا جبريل؟ فأقرأه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ السورة. وفي رواية ابن مهران: فوثب النبيُّ ﷺ حتى دخل على فاطمة فأكبَّ عليها يبكي، فهبط جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾ إلى آخره. وفي رواية عن عطاء: أنَّ الشعيرَ كان عن أجرة سَقْي نخل، وأنَّه جعل في كلِّ يوم ثلث منه عصيدة فآثروا بها[1].

---

(١) ينظر هذا الخبر ورواياته في: نوادر الأصول ص٦٤-٦٥، وأسباب النزول للواحدي ص٤٧٨، وتفسير البغوي ٤/٤٢٨، ومجمع البيان ٢٩/١٣٨-١٣٩، وتفسير القرطبي ٢١/ ٤٦١-٤٦٦ مطولاً، وعزا بعضها القرطبي إلى النقاش والثعلبي والقشيري، وقال: لا يصح ولا يثبت.. وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/٥٠٣-٥٠٥ عن الأصبغ بن نباتة، وقال: هذا حديث لا يُشَكُّ في وضعه.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنَّه قال في قوله سبحانه: «ويطعمون» إلخ نزلت في عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه وفاطمة بنت رسول الله صلَّى الله تعالى عليه وعليهما وسلَّم[1]، ولم يذكر القصة، والخبر مشهور بين الناس، وذكره الواحدي في كتاب «البسيط»، وعليه قول بعض الشيعة:

إلام أُلامُ وحتى متى ... أُعاتَب في حبِّ هذا الفتى
وهل زوّجت غيره فاطِم ... وفي غيره هل أتى هل أتى

وتعقّب بأنَّه خبر موضوع مفتعل كما ذكره الترمذيُّ[2] وابن الجوزي[3]، وآثار الوضع ظاهرة عليه لفظاً ومعنىً، ثم إنَّه يقتضي أن تكون السورة مدنيَّة؛ لأنَّ بناءَ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه على فاطمة رضي الله عنها كان بالمدينة، وهي عند ابن عباس ـ المروي هو عنه ـ على ما أخرج النَّحَّاس مكِّيَّة، وكذا عند الجمهور في قول.

وأقول: أَمْرُ مكِّيَّتها ومدنيَّتها مختلف فيه جدًّا كما سمعت، فلا جزم فيه بشيء، وابن الجوزي نقل الخبر في «تبصرته»[4] ولم يتعقَّبه، على أنَّه ممَّن يتساهل في أمر الوضع، حتى قالوا: إنَّه لا يعوَّل عليه في هذا الباب، فاحتمال أصل النزول في الأمير كرَّم الله تعالى وجهه وفاطمة رضي الله عنها قائم، ولا جزمَ بنفي ولا إثبات، لتعارض الأخبار، ولا يكاد يَسلَمُ المرجّح عن قيل وقال، نعم لعلَّه يترجَّح عدم وقوع الكيفية التي تضمَّنتها الرواية الأولى.

ثم إنَّه على القول بنزولها فيهما لا يتخصَّص حكمها بهما، بل يشمل كلَّ مَن فَعَلَ مثل ذلك، كما ذكره الطبرسي من الشيعة في «مجمع البيان»[5] راوياً له عن

(١) الدر المنثور ٦/٢٩٩.
(٢) لعله يقصد الحكيم الترمذي في كتابه نوادر الأصول ص٦٥ حيث قال: هذا حديث مزوَّق، وقد تطرَّف فيه صاحبه حتى يشبِّه على المستمعين.... إلى آخر كلامه.
(٣) كما ذُكر قريباً في كتابه الموضوعات ٢/٥٠٥.
(٤) التبصرة ١/٤٤٩.
(٥) ٢٩/١٣٩.

عبد الله بنِ ميمون عن أبي عبد الله رضي الله عنه، وعلى القول بعدم النزول فيهما لا يتطامن[1] مقامهما ولا ينقص قَدْرهما، إذ دخولهما في الأبرار أمر جليٌّ، بل هو دخول أوَّليٌّ، فهما هما، وماذا عسى يقول امرؤٌ فيهما سوى أنَّ عليًّا مولى المؤمنين وَوَصيُّ النبيِّ، وفاطمة البضعة الأحمديَّة والجزء المحمدي، وأما الحَسَنان فالروح والريحان وسيدا شباب الجِنان، وليس هذا من الرفض بشيء، بل ما سواه عندي هو الغَيُّ:

أنا عبدُ الحقِّ لا عبدُ الهوى لعنَ اللهُ الهوى فيمَن لعن[2]

ومن اللطائف على القول بنزولها فيهم أنَّه سبحانه لم يَذكُر فيها الحُورَ العِيْن وإنَّما صرَّح عزَّ وجلَّ بولدان مخلدين؛ رعايةً لحرمة البَتُول وقرَّة عينِ الرسول؛ لئلَّا تثورَ غيرتها الطبيعية إذا أحسَّت بضَرَّة، وهي في أفواه تخيُّلات الطباع البشرية ـ ولو في الجنَّة ـ مرَّة. ولا يخفى عليك أنَّ هذه زهرة ربيع لا تتحمَّل الفرك، ثم التذكير على ذلك أيضاً من باب التغليب.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه: «جازاهم» على وزن فاعَلَ[3].

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ حال من هم في «جزاهم» والعامل جزى، وخصّ الجزاء بهذه الحالة؛ لأنَّها أتمُّ حالات المتنعّم، ولا يضرُّ في ذلك قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ لأنَّ الصبر في الدنيا وما تسبَّب عليه في الآخرة. وقيل: صفة الجنة، ولم يبرز الضمير مع أنَّ الصفة جارية على غير مَن هي عليه، فلم يقل: متكئين هم فيها؛ لعدم الإلباس، كما في قوله:

قومي ذُرَا المجدِ بانوها وقد عَلِمَتْ بِكُنْهِ ذلك عدنانٌ وقَحْطانُ[4]

(١) أي: لا ينخفض. المعجم الوسيط (طمن).
(٢) البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه ٦/ ٢٥٣٢.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٩٦.
(٤) البيت في شرح ابن عقيل ١/ ٢٠٨، وأوضح المسالك ص١٠٠، وشرح الأشموني مع حاشية الصبان ١/ ١٩٣ دون نسبة. وجاء في هامش الأصل: وهو أن يكون (ذرا) مفعول بانون محذوفاً، أي: قومي بانون ذرا المجد بانوها. تدبر. انتهى منه.

وأنت تعلم أنَّ هذا رأي الكوفيَّة، ومذهب البصريَّة وجوبُ إبراز الضمير في ذلك مطلقاً، وفي البيت كلام.

وقيل: يجوز كونه حالاً مقدَّرة من ضمير «صبروا». وليس بذاك.

و«الأرائك» جمع: أريكة، وهي السرير في الحَجَلة[1] مِن دونه ستر، ولا يُسمَّى مفرداً: أريكة، وقيل: هو كلُّ ما اتُّكِئَ عليه من سرير أو فراش أو مِنَصَّة، وكأنَّ تسميته بذلك لكونه مكاناً للإقامة أخذاً من قولهم: أَرِكَ بالمكان أروكاً: أقام، وأصل الأروك: الإقامة على رعي الأَرَاك الشجر المعروف، ثم استعمل في غيره من الإقامات.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣﴾ إما حالٌ ثانية مِن الضمير، أو حالٌ من المستكنِّ في «متَّكئين»، وجوّز فيه كونه صفة لـ «جنة» أيضاً، والمراد من ذلك أنَّ هواءَها معتدلٌ لا حرُّ شمس يُحْمي، ولا شدّة برد يؤذي، وفي الحديث: «هواءُ الجنَّة سَجْسَج لا حرٌّ ولا قرٌّ»[2] فقصد بنفي الشمس نفيها ونفي لازمها معاً؛ لقوله سبحانه: «ولا زمهريراً»، فكأنَّه قيل: لا يرون فيها حرًّا ولا قرًّا، وقيل: الزمهرير: القمر، وعن ثعلب أنَّه في لغة طيِّئ، وأنشد:

وليلةٍ ظلامُها قد اعتكرْ ... قطعتُها والزَّمْهريرُ ما زَهَرْ[3]

وليس هذا لأنَّ طبيعته باردة ـ كما قيل ـ لأنَّه في حيِّز المنع، بل قيل: إنَّه بُرهن على أنَّ الأنوار كلَّها حارَّةٌ، فيحتمل أنَّ ذلك لِلَمَعانه أخذاً له مِن ازمهرَّ الكوكب: لمع، والمعنى على هذا القول: إنَّ هواءَها مضيء بذاته لا يحتاج إلى شمس

---

(١) قال الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٣٨: الحجلة بيت مربع من الثياب الفاخرة يرخى على السرير، يسمى بديارنا ناموسية.

(٢) لم نقف عليه مرفوعاً، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٢٥)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١٠٠ عن عبد الله بن مسعود موقوفاً.

(٣) الرجز في النكت والعيون ٦/ ١٦٩، والكشاف ٤/ ١٩٧، ونهاية الأرب للنويري فصل في أسماء القمر اللغوية، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٢.

ولا قمر، وفي الحديث: «إنَّ الجنَّة لا خَطَر لها، هي وربِّ الكعبة نورٌ يتلألأ، وريحانة تهتزُّ، وقَصْر مشيد» الحديث[١]. ثم إنَّها مع هذا قد يظهر فيها نور أقوى مِن نورها، كما تشهد به الأخبار الصحيحة، وفي بعض الآثار عن ابنِ عباس: بينا أهل الجنة في الجنة، إذ رَأَوْا ضوءاً كضوء الشمس وقد أشرقت الجنانُ به، فيقول أهل الجنَّة: يا رضوان ما هذا، وقد قال ربُّنا: «لا يَرَوْنَ فيها شمساً ولا زمهريراً»! فيقول لهم رضوان: ليس هذا بشمس ولا قمر، ولكن عليٌّ وفاطمة رضي الله عنهما ضَحِكا، فأشرقت الجنانُ مِن نور ثغريهما[٢].

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ عطف على الجملة وحالها حالها، أو صفة لمحذوف معطوف على «جنَّة» فيما سبق، أي: وجنَّة أخرى دانية عليهم ظلالها، على أنَّهم وُعِدوا جنَّتين كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقرأ أبو حيوة: «دانيةٌ» بالرفع[٣]، وخرِّج على أنَّ «دانية» خبرٌ مقدَّم لـ «ظلالها»، والجملة في حيِّز الحال على أنَّ الواو عاطفة أو حاليَّة، أو في حيِّز الصفة على أنَّ الواو عاطفة أيضاً، أو للإلصاق على ما يراه الزمخشري[٤]، وقال الأخفش: «ظلالها» مرفوع بـ «دانية» على الفاعليَّة، واستدلَّ بذلك على جواز عملِ اسم الفاعل مِن غير اعتماد، نحو: قائمٌ الزيدون، وقد علمت أنَّه لا يَصلُح للاستدلال؛ لقيام ذلك الاحتمال، على أنَّه يجوز أن يكون خبراً لمبتدأ مقدَّر فيعتمد، أي: وهي دانية عليهم ظلالُها.

وقرأ أبيٌّ: «وَدَانٍ»[٥] كقاضٍ، ولا يتمُّ الاستدلال به للأخفش أيضاً وإن كان

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣٣٢)، وابن حبان (٧٣٨١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما. قال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد فيه مقال، الضحاك المعافري ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الذهبي في طبقات التهذيب: مجهول، وسليمان بن موسى الأموي مختلف فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات. اهـ. وقوله ﷺ: «لا خَطَر لها» أي: لا مِثْلَ لها.

(٢) تفسير الثعلبي ١٠/ ١٠٢، وهو خبر واضح البطلان.

(٣) الإملاء للكعبري ٤/ ٤٣٨، والكشاف ٤/ ١٩٧، وتفسير القرطبي ٢١/ ٤٧٢، والبحر ٨/ ٣٩٦.

(٤) الكشاف ٤/ ١٩٨.

(٥) القراءات الشاذة ص١٦٦، والبحر ٨/ ٣٩٦.

بينه وبين ما تقدَّم فرق ما. وقرأ الأعمش: «ودانياً عليهم»[١] نحو: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾[٢] [القمر: ٧].

والمراد أنَّ ظلالَ أشجار الجنة قريبةٌ مِن الأبرار مُظِلَّةٌ عليهم؛ زيادة في نعيمهم.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ أي: سخِّرت ثمارها لمتناوِلها وسَهُلَ أَخْذُها، مِن الذُّلِّ وهو ضدُّ الصعوبة، قال قتادة ومجاهد وسفيان: إن كان الإنسان قائماً تناول الثمر دون كلفة، وإن كان قاعداً أو مُضْطَجعاً فكذلك، فهذا تذليلها لا يَرُدُّ اليدَ عنها بُعْدٌ ولا شَوكٌ. والجملة حال من ضمير «دانية»، أي: تدنو ظلالُها عليهم مذلّلةً لهم قطوفها، أو معطوفة على ما قبلها، وهي فعلية معطوفة على اسميَّة في قراءة «دانية» بالرفع، ونكتة التخالف أنَّ استدامةَ الظِّلِّ مطلوبة هنالك، والتجدُّدُ في تذليل القطوف على حسب الحاجة.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ﴾ جمع إناء، ككساء وأكسية، وهو ما يوضع فيه الشيء، والأواني جمع الجمع. ﴿مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ جمع: كوب: وهو قَدَحٌ لا عُرْوةَ له، كما قال الراغب[٣]، وفي «القاموس»: كوزٌ لا عروةَ له، أو لا خرطومَ له[٤]. وقيل: الكوز العظيم الذي لا أُذُن له ولا عروةَ.

﴿كَانَتْ﴾ أي: تلك الأكواب ﴿قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾﴾ جمع: قارورة، وهي إناء رقيق من الزجاج يُوضَع فيه الأشربة، ونصبه على الحال، فإنَّ «كان» تامَّة، وهو كما تقول: خُلِقَتْ قواريرَ.

وقوله تعالى: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ بدل، والكلام على التشبيه البليغ، فالمراد

---

(١) البحر ٨/٣٩٦، وهي معاني القرآن للفراء ٣/٢١٦، وإعراب القرآن للنحاس ٥/١٠١ عن مسعود رضي الله عنه.

(٢) وهي قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي وخلف، في حين قرأ الباقون: ﴿خُشَّعًا﴾ بضمِّ الخاء وفتح الشين مشدَّدة. التيسير ص٢١٧، والنشر ٢/ ٣٨٠.

(٣) المفردات (كوب).

(٤) القاموس (كوب).

تكوَّنت جامعةً بين صفاء الزجاجة وشفيفها، ولِيْنِ الفضة وبياضها، وأخرج عبد الرازق وسعيد بن منصور والبيهقيُّ عن ابنِ عباس قال: لو أخذْتَ فضةً من فضة الدنيا فضربتَها حتى جعلتَها مثل جناحِ الذُّباب لم يُرَ الماءُ مِن ورائها، ولكن قوارير الجنة بياض الفضة مع صفاء القوارير(١).

وأخرج ابنُ أبي حاتم عنه أنه قال: ليس في الجنة شيء إلا قد أُعطيتم في الدنيا شَبَهه إلا قوارير مِن فضة(٢).

وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر: بتنوين «قواريراً» في الموضعين وصلاً وإبداله ألفاً وقفاً، وابن كثير يمنع صَرْفَ الثاني ويَصْرِفُ الأوَّل(٣) لوقوعه في الفاصلة، وآخِرِ الآية وقف عليه بالألف مشاكلة لغيره مِن كلمات الفواصل، والتنوين عند الزمخشري(٤) في الأوَّل بدلٌ مِن ألف الإطلاق، كما في قوله:

يا صاحِ ما هاجَ العيونَ الذُّرَّفَنْ(٥)

وفي الثاني للإتْباع، فتذكَّر. والقراءة بمنع صَرْفِهما لحفص وابن عامر وحمزة وأبي عمرو، وقرأ الأعمش الثاني «قوارير» بالرفع، أي: هي قوارير(٦).

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ أي: قدَّروا تلك القوارير في أنفسهم فجاءت حسب ما قدَّروا لا مزيدَ على ذلك، ولا يمكن أن يقع زيادة عليه، وفي معناه قول الطائيِّ:

ولو صوَّرتَ نفسَكَ لم تَزِدْها على ما فيكَ مِن كَرَمِ الطِّباعِ(٧)

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٠٠-٣٠١، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٣٨، والبعث والنشور (٣٤٨).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٠١.

(٣) التيسير ص٢١٧، والنشر ٢/ ٣٩٥-٣٩٦، والبحر ٨/ ٣٩٧.

(٤) الكشاف ٤/ ١٩٨.

(٥) الرجز للعجاج، وهو في ديوانه ص٤٢١، والكتاب ٤/ ٢٠٧، والبحر ٨/ ٣٩٧، ووقع في الديوان: الذرَّفا وبعده:

من طَلَلٍ أمسى تخال المصحفا

(٦) القراءات الشاذة ص١٦٦، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٧.

(٧) سلف ١١/ ١٣.

فإنَّه يُنبئ عن كون نفسه خُلقت على أتمِّ ما ينبغي مِن مكارم الصفات بحيث لا مزيدَ على ذلك، فضمير «قدَّروها» لـ «أبرار» المطاف عليهم.

أو: قدّروا شرابها على قَدْر الرّيِّ وهو ألذُّ للشارب، قال ابن عباس: أُتُوا بها على الحاجة لا يُفضِّلون شيئاً ولا يشتهون بعدها شيئاً.

وعن مجاهد: تقديرها أنَّها ليست بالملأى التي تفيض ولا بالناقصة التي تغيض. فالضمير ـ على ما هو الظاهر ـ للسقاة الطائفين بها، المدلولِ عليه بقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾، وقد روى عبد بن حميد وابنُ المنذر عن ابن عباس أنَّه قال: قدَّرتها السقاة(١).

وقيل: المعنى: قدَّروها بأعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها، والضمير على هذا، قيل: للملائكة، وقيل: للسقاة.

وقرأ عليٌّ كرّم الله تعالى وجهه وابن عباس والسُّلَمي والشعبي وقتادة وزيد بن عليٍّ والجحدري والأصمعي عن أبي عمرو، وابن عبد الخالق عن يعقوب وغيرهم: «قُدِّرُوها» على البناء للمفعول(٢)، واختلف في تخريجها، فقال أبو عليٍّ: كأنَّ اللفظ: قُدِّروا عليها، وفي المعنى قلب؛ لأنَّ حقيقته أن يقال: قُدِّرت عليهم، فهو نحو قوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] وقولِ العرب: إذا طَلَعتِ الجَوْزاء ارتقى العودُ على الحرباء(٣).

وقال الزمخشريُّ: وجه ذلك أن يكون من قَدَرْتُ الشيءَ ـ بالتخفيف ـ أي: بيَّنت مقدارَه، فنقل إلى التفعيل، فتعدَّى لاثنين: أحدهما: الضمير النائب عن الفاعل، والثاني: «ها»، والمعنى: جُعلوا قادرين لها كما شاؤوا، وأُطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهوا(٤).

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٠١.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٦، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٧، والكشاف ٤/ ١٩٨، وتفسير القرطبي ٢١/ ٤٧٦، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٧-٣٩٨، والكلام وما بعده منه.

(٣) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٣٥٣-٣٥٤.

(٤) الكشاف ٤/ ١٩٨.

وقال أبو حاتم: قُدِّرت الأواني على قَدْر رِيِّهم. ففسَّر بعضهم هذا بأنَّ في الكلام حذفاً، وهو أنَّه كان: قُدِّر على قَدْر رِيِّهم إيَّاها، فحذف «على» فصار «قَدْر» نائب الفاعل، ثم حذف فصار «ريّهم» نائب فاعل، ثم حذف وصار واو الجمع نائبَ الفاعل، واتصل المفعول الثاني بـ «قدِّر»، فصار: قُدِّروها.

وقال أبو حيان: الأقرب أن يكون الأصل: قُدِّر رِيُّهم منها تقديراً، فحذف المضاف وهو الرِّيُّ وأُقيمَ الضمير مقامه، فصار: قُدِّروا منها، ثم اتُّسِع في الفعل فحذفت «من» ووصل الفعل إلى الضمير بنفسه فصار: قُدِّروها، فلم يكن فيه إلا حذفُ مضاف واتِّساعٌ في المجرور[1].

ولا يخفى أنَّ القلبَ زَيْفٌ، وما قرَّره البعض تكلُّف جدًّا، وفي كون ما اختاره أبو حيَّان أقرب ممَّا اختاره جارُ الله، نَظَرٌ، ولعلَّه أكثرُ تكلُّفاً منه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ يجري فيه معظم ما جرى في قوله تعالى: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ إلخ من الأوجه.

والزنجبيل: قال الدينوري[2]: نبتٌ في أرض عُمَان، وهو عروق تسري في الأرض وليس بشجرة، ومنه ما يُحمَل من بلاد الزنج والصين، وهو الأجود، وكانت العرب تُحبُّه؛ لأنَّه يوجب لَذْعاً في اللسان إذا مُزِجَ بالشراب فيلتذُّون به، ولذا يذكرونه في وصف رُضاب النساءِ، قال الأعشى:

كأنَّ القُرُنْفُل والزَّنْجَبِيـ ... ـل باتا بِفِيها وأَرْياً مَشُورا[3]

وقال عمرو المسيَّب بن عَلَس[4]:

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٩٨.

(٢) في كتابه النبات ص٢١٤.

(٣) الكشاف ٤/ ١٩٨، وسمط اللآلي للبكري ١/ ١٧٦، وهو في ديوان الأعشى ص١٤٣ برواية:

كأنَّ جَنِيّاً من الزنجبيـ ... ـل خالط فاها وأَرْياً مشورا

والأَرْي: عسل النحل. وشار العسل واشتاره: جَمَعه.

(٤) كذا في الأصل و(م). ونُسبَ في طبقات فحول الشعراء ١/ ١٥٦ هكذا: المسيب بن عَلَس بنِ

وكـأنَّ طَـعْـمَ الـزَّنْـجـبـيـلِ بـه إذ ذُقْـتَـه وسُـلافـةَ الـخـمـرِ[1]

وعدَّه بعضهم في المعرَّبات. وكون الزنجبيل اسماً لعين في الجنَّة مرويٌّ عن قتادة، قال: يَشربُ منها المقرَّبون صِرْفاً، وتُمزَج لسائر أهل الجنة.

والظاهر أنَّهم تارةً يشربون مِن كأس مزاجها كافور، وتارة يسقون من كأس مزاجها زنجبيل، ولعلَّ ذكر «يُسقَوْن» هنا دون: يشربون؛ لأنَّه الأنسب بما تقدَّمه مِن قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ إلخ، ويمكن أن يكون فيه رمزٌ إلى أنَّ هذه الكأس أعلى شأناً مِن الكأس الأولى، وعن الكلبي: يُسقَى بجامين؛ الأول مزاجه الكافور، والثاني مزاجه الزنجبيل.

والسلسبيل: كالسَّلْسَل والسَّلْسَال، قال الزجَّاج[2]: ما كان مِن الشراب غايةً في السلاسة وسهولة الانحدار في الحَلْق. وقال ابن الأعرابيِّ: لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن. وكأنَّ العين إنَّما سُمِّيت بذلك لسلاستها وسهولة مساغها. قال عكرمة: عينٌ سَلْسَلٌ ماؤها. وقال مجاهد: حديدة الجَرْي[3]، سَلِسَة، سهلة المساغ. وقال مقاتل: عين يَتسَلْسل عليهم ماؤها في مجالسهم كيف شاؤوا.

وهي على ما روي عن قتادة عينٌ تنبع من تحت العرش من جنَّة عَدن، تتسَلْسَل إلى الجِنان.

وفي «البحر»: الظاهر أنَّ هذه العين تُسمَّى «سلسبيلاً» بمعنى تُوصَف بأنَّها سلسة في الانسياغ، سهلة في المذاق، ولا يُحمَل سلسبيل على أنَّه اسمٌ حقيقة؛ لأنَّه إذ

= عمرو بن قمامة، وفي خزانة الأدب ٣/ ٢٤٠: المسيب بن عَلَس بن مالك بن عمرو بن قمامة. وقال ابن دريد في الاشتقاق ص ٣١٦: المسيب بن عَلَس، واسمه: زهير.

(١) الكشاف ٤/ ١٩٨، والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ١٧٥، وسلافة الخمر: أول ما يخرج من عصرها، والشاعر يصف رُضاب محبوبته.

(٢) معاني القرآن ٥/ ٢٦١.

(٣) ذكره البخاري عن مجاهد بلفظ، حديدة الجرية، وقال الحافظ في الفتح ٦/ ٣٢١: وحديدة بفتح المهملة وبدالين مهملتين أيضاً، أي: قوية الجرية، وذكر عياض [مشارق الأنوار (حدو)] أن القابسي رواها: حريدة، براء بدل الدال الأولى وفسَّرها بـ :ليِّنة، قال (يعني عياض): والذي قاله لا يُعرف، وإنما فسروا السلسبيل بالسهولة اللينة الجرية.

ذاك كان ممنوعَ الصرف؛ للتأنيث والعلميَّة، وقد روي عن طلحة أنَّه قرأه بغير ألف[1]، جعله عَلَماً لها، فإن كان عَلَماً فوجه قراءةِ الجمهور بالتنوين المناسبة للفواصل، كما قيل في «سلاسلا» و«قواريرا»، وزعم الزمخشريُّ[2] أنَّ الباءَ زيدت فيه حتى صارت الكلمة خماسيَّة، فإن عنى أنَّها زِيدَتْ حقيقةً فليس بجيِّد؛ لأنَّ الباء ليست من حروف الزيادة المعهودة، وإن عنى أنَّها حرف جاء في سِنْخِ[3] الكلمة وليس في سَلْسَل ولا في سِلْسَال، صحَّ، ويكون مما اتفق معناه وكان مختلفاً في المادة. انتهى. وفي «الكشف»: لا يريد الزيادة المصطلحة، ألا ترى إلى قوله: حتى صارت خماسيَّة، وهو أيضاً من الاشتقاق الأكبر، فلا تغفل.

وقال بعض المُعْرِبين: «سلسبيلاً»: أَمْرٌ للنبيِّ ﷺ ولأمَّته بسؤال السبيل إليها، وعَزَوه إلى عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، وهو غيرُ مستقيم بظاهره إلا أن يُراد أنَّ جملة قول القائل: «سَلْ سبيلاً» جعلت اسماً للعين، كما قيل: تأبَّط شرًّا، وذَرَّى حبًّا، وسُمِّيت بذلك لأنَّه لا يشرب منها إلا مَن سأل إليها سبيلاً بالعمل الصالح، وهو مع استقامته في العربية تكلُّفٌ وابتداع، وعَزْوُه إلى مثل الأمير كرَّم الله تعالى وجهه أَبْدَع، ونصَّ بعضهم على أنَّه افتراءٌ عليه كرَّم الله تعالى وجهه، وفي شعر ابنِ مطران الشاشي:

سل سلسبيلاً فيها إلى راحةِ النَّفـ ـسِ براحٍ كأنَّها سَلْسَبيلُ[4]

وفيه الجناس الملفَّق، واستعمله غير واحد من المُحْدَثين.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: للخدمة ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: دائمون على ما هم فيه من الطراوة والبهاء، وقيل: مُقرَّطون بخَلَدَة، وهي ضَرْب من القِرَطَة.

(١) القراءات الشاذة ص١٦٦، والكشاف ٤/ ١٩٨، والبحر ٨/ ٣٩٨.
(٢) الكشاف ٤/ ١٩٨.
(٣) في الأصل و(م) ومطبوع البحر المحيط ٨/ ١٦١ والكلام منه: سنح، والمثبت من الدر المصون ١٠/ ٦١٢، والسِّنْخُ: الأصل. القاموس (سنخ).
(٤) الكشاف ٤/ ١٩٩، والكلام منه، وذكره أيضاً الثعالبي في يتيمة الدهر ٤/ ١٣٤، وفي الإعجاز والإيجاز ص٢٤٤. والراح: الخمر.

وجاء في حديث أخرجه ابن مردويه عن أنس مرفوعاً أنَّهم ألف خادم[١]. وفي بعض الآثار أضعاف ذلك[٢]:

والجود أعظم والمواهب أوسع[٣]

ويختلف ذلك قلَّة وكثرة باختلاف أعمال المخدومين.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩﴾ لحُسْنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم، وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم، وانعكاس أشعة بعضهم إلى بعض، وقيل: شُبِّهوا باللؤلؤ الرَّطْب إذا نُثِرَ من صَدَفِه؛ لأنَّه أحسن وأكثر ماء، وعليه هو مِن تشبيه المفرد؛ لأنَّ الانبثاث غيرُ ملحوظ، والخطاب في «رأيتهم» للنبيِّ ﷺ أو لكلٍّ واقف عليه، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أي: هناك، يعني في الجنة، وهو في موضع النصب على الظَّرْف، و«رأيت» منزَّل منزلةَ اللازم فيفيد العموم في المقام الخطابي، فالمعنى: إنَّ بَصَرك أينما وقع في الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ عظيمَ القدر لا تُحيط به عبارةٌ، وهو يشمل المحسوس والمعقول، وقال عبد الله بنُ عمرو والكلبي: عريضاً واسعاً، يُبصِر أدناهم منزلةً في الجنة في مُلكه[٤] مسيرة ألف عام يَرى أقصاه كما يرى أدناه، وذلك لما يُعطى من حدَّة النظر، أو هو مِن خصائص الجنة.

وقال مجاهد: هو استئذان الملائكة عليهم السلام، فلا يدخلونَ عليهم إلا بإذن.

وقال الترمذي ـ وأظنُّه كما ظنَّ أبو حيان[٥]: الحكيم لا أبا عيسى المحدِّث صاحب الجامع ـ: هو مُلْكُ التكوينِ والمشيئة إذا أرادوا شيئاً كان.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٠١، وأخرجه أيضاً ابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/ ٤٤٥.

(٢) منها حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة لمن يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم..» الحديث، وسلف ٢٥/ ٩٨.

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٢٩١.

(٤) في الأصل و(م): ملك، والمثبت من الكشاف ٤/ ١٩٩، وتفسير البيضاوي ٨/ ٢٩١، وتفسير أبي السعود ٩/ ٧٤، وغيرها من التفاسير، وينظر البحر ٨/ ٣٩٩.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٩٩، والكلام منه.

وقيل: هو النظر إلى الله عزَّ وجلَّ. وقيل: غير ذلك، وقيل: المُلْكُ الدائم الذي لا زوالَ له.

وزعم الفرَّاء[١] أنَّ المعنى: وإذا رأيت ما ثَمَّ رأيت.. إلخ، وخرّج على أنَّه أراد أنَّ «ثمَّ» ظرف لمحذوف وقع صلةً لموصول محذوف هو مفعول «رأيت»، والتقدير: وإذا رأيتَ ما ثَمَّ رأيت نعيماً.. إلخ، فحذف «ما» كما حذف في قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] أي: ما بينكم.

وتعقَّبه الزَّجَّاج[٢] ثمَّ الزمخشري[٣] بأنه خطأ؛ لأنَّه لا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة. وأنتَ تعلم أنَّ الكوفيين يُجيزون ذلك، ومنه قوله:

فَمَنْ يهجو رسولَ الله منكم ويَمْدَحه ويَنْصُره سواء[٤]

أراد: ومَن يمدحه، فحذف الموصول وأبقى صلته.

وقد يقال: إنَّ ذلك إنَّما يَرِدُ لو أراد أنَّ الموصول مقدَّر، أمَّا لو أراد المعنى وأنَّ الظرف يغني غناء المفعول به، فهو كلام صحيح؛ لأنَّ الظرف والمرئيَّ كليهما الجنَّة.

وقرأ حميد الأعرج: «ثُمَّ» بضمِّ الثاء[٥] حرف عطف، وجواب «إذا» على هذا محذوف يقدَّر بنحو: تحيَّر فِكْرك، أو بنحو: رأيتَ عاملاً في «نعيماً».

﴿عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قيل: «عاليهم» ظرفٌ بمعنى فوقهم، على أنَّه خبر مقدَّم، و«ثياب» مبتدأ مؤخَّر، والجملة حال من الضمير المجرور في «عليهم»[٦]، فهي شرحٌ لحال الأبرار المطوفِ عليهم. وقال أبو حيان[٧]: إنَّ عالي

---

(١) معاني القرآن ٣/ ٢١٨.
(٢) معاني القرآن ٥/ ٢٦١.
(٣) الكشاف ٤/ ١٩٩.
(٤) البيت لحسان بن ثابت، وسلف ١٣/ ٦٣.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٩٩.
(٦) تحرفت في (م) إلى: عاليهم.
(٧) البحر المحيط ٨/ ٣٩٩بنحوه.

نفسه حالٌ من ذلك الضمير وهو اسم فاعل، و«ثياب» مرفوع على الفاعليَّة به، ويحتاج في إثبات كونه ظرفاً إلى أن يكون منقولاً من كلام العرب: عالِيَك ثوب، مثلاً، ومثله فيما ذكر: عالية.

وقيل: حال مِن ضمير «لقَّاهم»، أو من ضمير «جزاهم». وقيل: من الضمير المستتر في «متكئين». والكُلُّ بعيد.

وجوّز كون الحال مِن مضاف مقدَّر قبل «نعيماً»، أو قبل «ملكاً»، أي: رأيتَ أهلَ نعيم أو أهل ملك عاليهم.. إلخ، وهو تكلُّف غيرُ محتاج إليه.

وقيل: صاحب الحال الضمير المنصوب في «حسبتهم» فهي شرح لحال الطائفين، ولا يخفى بُعْدُه؛ لما فيه من لزومِ التفكيك، ضرورةَ أنَّ ضمير «سقاهم» فيما بَعْدُ كالمتعيِّن عوده على الأبرار، وكونه من التفكيك مع القرينة المعيَّنة وهو مما لا بأسَ به ممنوع. واعترض أيضاً بأنَّ مضمون الجملة يصير داخلاً تحت الحسبان، وكيف يكون ذلك وهم لابسونَ الثيابَ حقيقةً، بخلاف كونهم لؤلؤاً فإنَّه على طريق التشبيه المقتضي لقُرْب شَبَهِهم باللؤلؤ أن يحسبوا لؤلؤاً. وأجيب بأنَّ الحسبان في حال من الأحوال لا يقتضي دخول الحال تحت الحسبان.

ورفع «خضر» على أنَّه صفةٌ «ثياب»، و«إستبرق» على أنَّه عطف على «ثياب»، والمراد: وثيابُ استبرقٍ.

والسندس، قال ثعلب: ما رَقَّ من الدِّيْباج، وقيل: ما رَقَّ مِن ثياب الحرير، والفرق أنَّ الديباجَ ضَرْبٌ من الحرير المنسوج يتلوَّن ألواناً. وقال الليث: هو ضَرْبٌ مِن البُزْيُون[(١)] يُتَّخَذُ من المِرْعِز[(٢)]، وهو معرَّب بلا خلاف بين أهل اللغة على ما في «القاموس»[(٣)] وغيره. وزعم بعض أنَّه ـ مع كونه معرَّباً ـ أصله: سِنْدِي، بياء النسبة؛ لأنَّه يُجلَب من السِّنْد، فأبدلت الياء سيناً كما قال في سادي: سادس، وهو كما ترى.

---

(١) أي: السندس. القاموس (البزيون).

(٢) المِرْعز والمِرْعِزَّى: الزَّغب الذي تحت شعر العنز، ويقال: ثوب مُمَرْعز. القاموس (رعز).

(٣) مادة (السندس).

والإستبرق: قيل: ما غَلُظَ من ثياب الحرير، وقال أبو إسحاق: الديباج الصَّفِيْق الغَلِيظ الخَشِن[١]. وقال ابن دريد: ثيابٌ حريرٌ نحو الديباج. وعن ابن عبادة: هو بُرْدَة حمراء. وقيل: هو المنسوج من الذهب.

وهو اسم أعجميٌّ معرَّب عند جمع، أصله بالفارسية: إِسْتَبْرَه[٢]، وفي «القاموس»[٣]: معرَّب اسْتَرْوَه. وحكي ذلك عن ابنِ دريد، وأنَّه قال: إنَّه سريانيّ. وقيل: معرَّب: اسْتَفْره، وما في صورة الفاء ليست فاءً خالصة وإنَّما هي بين الفاء والباء. وقيل: عربيٌّ وافقت لغةُ العربِ فيه لغةَ غيرهم، واستصوبه الأزهريُّ[٤].

وكما اختلفوا فيه هل هو معرَّب أو عربيٌّ، اختلفوا هل هو نكرةٌ أو عَلَمُ جنسٍ، مبنيٌّ، أو مُعْرَب، أو ممنوعٌ من الصَّرْف، وهمزته همزة قَطْع أو وصل، والصحيح على ما قال الخفاجيُّ: إنَّه نكرةٌ مُعْرَب مصروفٌ مقطوع الهمزة، كما يشهد به القراءة المتواترة[٥]. وسيُعلم إن شاء الله تعالى حالُ ما يخالفها.

وفي «جامع التعريب»[٦]: إنَّ جمعَه: أَبارق، وتصغيره: أُبَيْرِق، حذفت السين والتاء في التكسير؛ لأنَّهما زيدتا معاً فأجريا مجرى الزيادة الواحدة. وفي المسألة خلاف أيضاً مذكور في محلِّه.

ولم يذكر لون هذا الإستبرق، وأشار ناصر الدين[٧] إلى أنَّه الخضرة، فـ «خضر» وإن توسَّط بين المعطوف والمعطوف عليه فهو لهما.

---

(١) معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج ٥/ ٢٦٢، وتحرف في مطبوعه «الحسن» إلى: الخشن. والمثبت موافق لما نُقل عنه في تهذيب اللغة ٩/ ٤٢٢، واللسان (أسق).
(٢) الذي في معجم الألفاظ الفارسية لأدى شير ص١٠: معرَّب: إِسْتَبْر. والذي في المعجم الذهبي ص٣٣٤: سِتَبْرق، معرَّب: استبرق، وتلفظ: ستبرك وستبره.
(٣) مادة: (برق).
(٤) تهذيب اللغة ١٤/ ٢٧٠ مادة (تنر).
(٥) حاشية الشهاب ٨/ ٢٩١.
(٦) ذكر عبد اللطيف بن محمد رياضي زاده في كتابه أسماء الكتب ص١١٩ أنه لجمال الدين عبد الوهاب.
(٧) أي: البيضاوي في تفسيره ٨/ ٢٩١ بهامش حاشية الشهاب.

وعلى كلِّ حال هذه الثياب لباسٌ لهم، وربَّما تُشعِر الآية بأنَّ تحتها ثياباً أخرى، وقيل على وجه الحاليَّة من ضمير «متَّكئين»: إنَّ المراد: فوق حِجَالهم المضروبة عليهم ثياب سندس.. إلخ، وحاصله: أنَّ حِجَالهم مكلَّلة بالسندس والإستبرق.

وقرأ ابن عباس ـ بخلاف عنه ـ والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابنُ محيصن ونافع وحمزة: «عالِيْهِم» بسكون الياء وكسر الهاء[١]، وهي رواية أبان عن عاصم، فهو مرفوع بضمَّة مقدَّرة على الياء على أنَّه مبتدأ، و«ثياب» خبره، وعند الأخفش فاعلٌ سدَّ مسدَّ الخبر. وقيل: على أنَّه خبرٌ مقدَّم، و«ثياب» مبتدأ مؤخَّر، وأخبر به عن النكرة؛ لأنَّه نكرة، وإضافته لفظيَّة وهو في معنى الجماعة، كما في ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧] على ما صرَّح به مكيٌّ[٢]، ولا حاجةَ إلى التزامه على رأي الأخفش. وقيل: هو باقٍ على النصب، والفتحة مقدَّرة على الياء، وأنتَ تعلم أنَّ مثلَه شاذٌّ أو ضرورة، فلا ينبغي أن يُخرَّج عليه القراءةُ المتواترة.

وقرأ ابن مسعود والأعمش وطلحة وزيد بنُ عليٍّ: «عالِيَتُهُم» بالياء والتاء مضمومة[٣]، وعن الأعمش أيضاً وأبان عن عاصم: فتح التاء الفوقيَّة[٤]، وتخريجهما كتخريج «عاليهم» بالسكون والنصب.

وقرأ ابن سيرين ومجاهد في روايةٍ وقتادة وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفراني وأبان أيضاً: «عَلَيْهم» جارًّا ومجروراً[٥]، فهو خبر مقدَّم و«ثياب» مبتدأ مؤخَّر.

وقرأت عائشة: «عَلَتْهُم» بتاء التأنيث فعلاً ماضياً، ف «ثياب» فاعل.

---

(١) التيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٣٩٦ عن نافع وحمزة وأبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٣٩٩.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٨٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٤، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٩، وتفسير القرطبي ٢١/ ٤٨٢، والدر المصون ١٠/ ٦١٨، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٩.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٩٩.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٠٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٩ والكلام منه، والقراءة ذكرت في القراءات الشاذة ص١٦٦ عن مجاهد وابن سيرين بضمِّ الهاء هكذا: عليهُمْ.

وقرأ ابن أبي عبلة وأبو حيوة: «ثيابٌ سندسٌ» بتنوين «ثياب» ورفع «سندس»[(١)] على أنَّه وصفٌ لها، وهذا كما تقول: ثوبٌ حريرٌ، تريد مِن هذا الجنس.

وقرأ العربيَّان ونافع في رواية: «وإستبرقٍ» بالجرِّ[(٢)] عطفاً على «سندس».

وقرأ ابن كثير وأبو بكر بجرِّ «خضر»[(٣)] صفة لـ «سندس»، وهو في معنى الجمع، وقد صرَّحوا بأنَّ وصف اسم الجنس الذي يُفرَّق بينه وبين واحدِهِ بتاء التأنيث بالجمع جائز فصيح، وعليه: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢] و﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ﴾ [ق: ١٠] وقد جاء سندسة في الواحدة، كما قاله غير واحد، وجوِّز كونه صفة لـ «ثياب»، وجرُّه للجوار، وفيه توافق القراءتين معنًى إلا أنَّه قليل.

وقرأ الأعمش وطلحة والحسن وأبو عمرو ـ بخلاف عنهما ـ وحمزة والكسائي: «خضرٍ وإستبرقٍ» بجرِّهما[(٤)].

وقرأ ابن محيصن: «واسْتَبْرقَ» بوصل الألف وفتح القاف[(٥)]، كما في عامَّة كتب القراآت، ويفهم من «الكشاف»[(٦)] أنَّه قرأ بالقطع والفتح، وأنَّ غيرَه قرأ بما تقدَّم، وهو خلاف المعروف، وخرَّج الفتح على المنع مِن الصَّرْف، للعلميَّة والعجمة، وغلِّط بأنَّه نكرةٌ يدخله حرف التعريف، فيقال: الإستبرق. وقيل: إنَّ ذاك كذا، والوصل مبنيٌّ على أنَّه عربيٌّ مسمًّى باستفعل من البريق، يقال: بَرِقَ واسْتَبْرَق، كعَجِبَ واستَعْجَبَ، فهو في الأصل فعلٌ ماضٍ ثم جُعِلَ عَلَماً لهذا النوع مِن الثياب، فمُنعَ من الصَّرْف للعلميَّة ووزن الفعل دون العجمة، وتعقّب بأنَّ كونه مُعَرَّباً مما لا ينبغي أن يُنكَر. وقيل: هو مبنيٌّ منقولٌ من جملةِ فِعْلٍ وضميرٍ مستترٍ. وحالُه لا يخفى.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٩٩.
(٢) التيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٣٩٦، والبحر ٨/ ٤٠٠ والكلام منه.
(٣) التيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٣٩٦.
(٤) التيسير ص٢١٨، والنشر ٢/ ٣٩٦.
(٥) القراءات الشاذة ص ١٦٦، والمحتسب ٢/ ٣٤٤، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٠.
(٦) ٤/ ١٩٩.

واختار أبو حيَّان[1] أنَّ «اسْتَبْرقَ» على قراءة ابنِ محيصن فعلٌ ماضٍ من البريق، كما سمعت، وأنَّه باقٍ على ذلك لم يُنقَل ولم يُجعَل عَلَماً للنوع المعروف مِن الثياب، وفيه ضمير عائد على السندس أو على الأخضر الدالِّ عليه «خضر»، كأنَّه لمَّا وصف بالخضرة وهي مما يكون فيها لشدَّتها دَهْمة وغَبَش، أخبر أنَّ في ذلك اللون بريقاً وحُسْناً يُزيل غَبَشَه، فقيل: واسْتَبرقَ، أي: برق ولمع لمعاناً شديداً، ثم قال معرِّضاً بمَن غلَّطه كأبي حاتم والزمخشري: وهذا التخريجُ أولى من تَلْحين قارئٍ جليلٍ مشهور بمعرفة العربية، وتوهيمِ ضابطٍ ثقة قد أَخَذَ عن أكابر العلماء. انتهى. وقيل: الجملة عليه معترضة أو حال بتقدير «قد» أو بدونه.

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ﴾ جمع: سِوار، وهو معروف، وذكر الراغب أنَّه معرَّب: دستواره[2] ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ هي فضة لائقة بتلك الدار. والظاهر أنَّ هذا عطف على «يطوف عليهم»، واختلافهما بالمضي والمضارعة لأنَّ الحِلْية[3] مقدَّمة على الطواف المتجدِّد. ولا ينافي ما هنا قوله تعالى: ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] لإمكان الجمع بتعدُّد الأساور لكلٍّ، والمعاقبةِ بلبس الذهب تارةً والفضة أخرى، والتبعيضِ بأن يكون أساور بعضٍ ذهباً وبعضٍ فضَّة؛ لاختلاف الأعمال.

وقيل: هو حال من ضمير «عاليهم» بإضمار «قد» أو بدونه، فإن كان الضمير للطائفين على أن يكون «عاليهم» حالاً من ضمير «حسبتهم» جاز أن يقال: الفضة للخَدَم والذهب للمخدومين.

وجوّز أن يكون المراد بالأساور الأنوار الفائضة على أهل الجنة، المتفاوتةَ ـ لتفاوت الأعمال ـ تفاوت الذهب والفضة، والتعبير عنها بأساور الأيدي لأنَّه جزاء ما عملته أيديهم، ولا يخفى أنَّ هذا ممَّا لا يليقُ بالتفسير، وحَرِي أن يكون من باب الإشارة.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٠٠.

(٢) المفردات (سور).

(٣) في (م): الحالية، والمثبت موافق لما في حاشية الشهاب ٨/ ٩١، والكلام منه.

ثم إنَّ التحلية إن كانت للوِلْدان فلا كلامَ، ويكونون على القول الثاني في «مخلَّدون» مسوَّرين مُقرَّطين، وهو مِن الحُسْن بمكان، وإن كانت لأهل الجنة المخدومين، فقد استشكل بأنَّها لا تَليق بالرجال، وإنَّما تَليقُ بالنساء والوِلْدان، وأجيب بأنَّ ذلك ممَّا يختلف باختلاف العادات والطبائع، ونشأة الآخرة غير هذه النشأة، ومن المشاهد في الدنيا أنَّ بعض ملوكها يتحلَّون بأعضادهم وعلى تِيْجانهم وعلى صدورهم ببعضِ أنواع الحَلْي ممَّا هو عند بعض الطباع أولى بالنساء والصبيان، ولا يَرَوْن ذلك بدعاً ولا نَقْصاً، كلُّ ذلك لمكان الأُلْف والعادة، فلا يبعد أن يكون مِن طباع أهل الجنة في الجنة الميلُ إلى الحَلْي مطلقاً لا سيَّما وهم جُرْد مُرْد أبناء ثلاثين، وقيل: إنَّ الأساور إنَّما تكون لنساء أهل الجنة والصبيان فقط، لكن غُلِّب في اللفظ جانبُ التذكير، وهو خلاف الظاهر، كما لايخفى.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾ هو نوع آخر يَفوقُ النوعين السابقين، وهما ما مُزِجَ بالكافور وما مُزِجَ بالزنجبيل، كما يرشد إليه إسناد سقيه إلى ربِّ العالمين، ووصفه بالطهورية، قال أبو قلابة: يُؤتَون بالطعام والشراب، فإذا كان آخر ذلك أُتُوا بالشراب الطهور، فيُطهِّر بذلك قلوبَهم وبطونهم ويفيض عَرَقاً مِن جلودهم مثل ريح المسك. وعن مقاتل: هو ماءُ عين على باب الجنة مِن ساق شجرة، مَن شَرِبَ منه نَزَعَ اللهُ تعالى ما كان في قلبه مِن غِشٍّ وغِلٍّ وحسد، وما كان في جوفه مِن قَذَر وأذى. أي: إن كان. فالطهور عليهما بمعنى المطهِّر، وقد تقدَّم في ذلك كلامٌ، فتذكَّر.

وقال غير واحد: أُريدَ أنَّه في غاية الطهارة؛ لأنَّه ليس برجسٍ كخمر الدنيا التي هي في الشرع رِجْسٌ؛ لأنَّ الدارَ ليست دارَ تكليف، أو لأنَّه لم يُعصَر فتمسّه الأيدي الوَضِرة وتَدوسه الأقدام الدنسة، ولم يُجعَل في الدنان والأباريق التي لم يُعْنَ بتنظيفها، أو لأنَّه لا يؤول إلى النجاسة؛ لأنَّه يَرشَح عَرَقاً مِن أبدانهم له ريح كريح المسك.

وقيل: أُريدَ بذاك الشراب الروحانيُّ لا المحسوس، وهو عبارة عن التجلِّي الرباني الذي يُسكِرُهم عمَّا سواه:

صفاءٌ ولا ماءٌ ولُطْفٌ ولا هوًى ونُورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جِسْمُ(١)

ولعلَّ كلّ ما ذكره ابنُ الفارض في خمريَّته التي لم يُفرَغ مِثْلها في كأسٍ إشارةٌ إلى هذا الشراب، وإيَّاه عنى بقوله:

سَقَوْني وقالوا لا تُغَنِّ ولو سَقَوْا جبالَ حنينٍ ما سَقَوني لَغَنَّتِ(٢)

ويُحكى أنَّه سئل أبو يزيد عن هذه الآية، فقال: سقاهم شراباً طهَّرهم به عن محبَّة غيرِه، ثم قال: إنَّ تعالى شراباً ادَّخره لأفاضل عباده يتولَّى سقيهم إيَّاه، فإذا شربوا طاشوا، وإذا طاشوا طاروا، وإذا طاروا وصلوا، وإذا وصلوا اتَّصلوا، فهم في ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

وحمل بعضهم جميع الأشربة على غير المتبادر منها، فقال: إنَّ الأنوار الفائضة مِن جواهر أكابر الملائكة وعظمائِهم عليهم السلام على هذه الأرواح، مشبَّهة بالماء العذب الذي يزيل العطش ويقوِّي البَدَن، وكما أنَّ العيونَ متفاوتة في الصفاء والكثرة والقوَّة، فكذا ينابيع الأنوار العلويَّة مختلفة، فبعضها كافوريَّة على طبع البَرْد واليُبْس ويكون صاحب ذلك في الدنيا في مقام الحزن والبكاء والانقباض، وبعضها يكون زَنْجَبِيليًّا على طبع الحَرِّ واليبس ويكون صاحبه قليل الالتفات إلى السوى، قليل المبالاة بالأجسام والجسمانيات، ثم لا يزال الروح البشري منتقلاً مِن ينبوعٍ إلى ينبوع ومن نور إلى نور، ولا شَكَّ أنَّ الأسباب والمسبَّبات متناهية في ارتقائها إلى واجب الوجود الذي هو النور المُطلَق جلَّ جلاله، فإذا وصل إلى ذلك المقام وشرب ذلك الشراب انهضمت تلك الأشربةُ المتقدِّمة، بل فنيت؛ لأنَّ نورَ ما سوى اللهِ تعالى يَضمحلُّ في مقابلة نورِ جلال الله سبحانه وكبريائه، وذلك آخِر سَيْرِ الصِّدِّيقين ومنتهى درجاتهم في الارتقاء والكمال، ولهذا ختم الله تعالى ذِكْرَ ثواب الأبرار بقوله جلَّ وعلا: «وسقاهم ربُّهم شراباً طهوراً».

---

(١) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص١٤٢، وسلف ١/ ٣٢٧.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٩٢، وفيه: لا تَغيين، بدل: لا تغنِّ، و: لغابت، بدل: لغنَّت. وهو برواية المصنف في الكشكول ١/ ٧٧، ونسبه للحلاج. ونُسب لشيخ سكِّير ضمن قصة أخرجها ابن عساكر ٦٨/ ١٨٩ عن عمر بن عبد العزيز.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذكر مِن فنون الكرامات الجليلة الشأن ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ بمقابلة أعمالكم الصالحة التي اقتضاها حُسْنُ استعدادكم واختياركم، والظاهر أنَّ المَجِيْءَ بالفعل للتحقيق والدوام، وجوّز أن يكون المراد: كان في علمي وحكمي، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: مرضيًّا مقبولاً، أو: مجازًى عليه غير مضيَّع.

والكلام على ما روي عن ابن عباس على إضمار القول، أي: ويقال لهم بعد دخولهم الجنَّةَ ومشاهدتهم ما أعدَّ لهم: إنَّ هذا.. إلخ، والغَرَض أن يَزْداد سرورُهم، فإنَّه يقال للمعاقب: هذا بعملك الرَّدِيء، فيزداد غمُّه، وللمثاب: هذا بطاعتك وعَمَلك الحَسَن، فيزداد سروره، ويكون ذلك تهنئةً له.

وجوّز أن يكون خطاباً من الله تعالى في الدنيا، كأنَّه سبحانه بعد أن شرح ثواب أهل الجنة، قال: إنَّ هذا كان في عِلْمي وحكمي جزاءً لكم يا معشر عبادي، وكان سعيكم مشكوراً. قيل: وهو لا يُغني عن الإضمار ليرتبطَ بما قبله.

وقد ذكر سبحانه مِن الجزاء ما تهشُّ له الألباب، وأعقبه جلَّ وعلا بما يدلُّ على الرضا الذي هو أعلى وأغلى لدى الأحباب:

إذا كنتَ عنِّي يا مُنى القلبِ راضياً   أرى كلَّ مَن في الكون لي يَتَبَسَّمُ[(١)]

وروي مِن طرق أنَّ رسول الله ﷺ قرأ هذه السورةَ وقد أُنزلت عليه وعنده رجلٌ مِن الحبشة أسودُ، فلمَّا بلغ صفةَ الجنان زَفَرَ زفرةً خرجت نَفْسُه، فقال رسول الله ﷺ: «أَخرجَ نَفْسَ صاحبكم الشوقُ إلى الجنَّة»[(٢)].

ولمَّا ذكر سبحانه أوَّلاً حالَ الإنسان وقَسَمه إلى الطائع والعاصي، وأمعن جلَّ شأنه فيما أعدَّه للطائع مشيراً إلى عِظَمِ سعة الرحمة، ذَكَرَ ما شرف به نبيّه ﷺ إزالةً

---

(١) البيت سلف ١٠/ ٤٣٠.

(٢) أخرجه عبد الله بن وهب من طريق ابن زيد عن النبي ﷺ، كما ذكر ابن كثير في أول السورة، ثم قال عقبه: مرسل غريب. وجاء في هامش الأصل: يتخايل من هذا أن السورة مدنيَّة، فلا تغفل. انتهى منه.

لوحشته وتقويةً لقلبه، فقال عزَّ قائلاً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: أنزلناه مفرَّقاً منجَّماً في نحو ثلاث وعشرين سنة لِحكَم بالغة مقتضية له، لا غيْرُنا كما يُعرِب عنه تكرير الضمير مع «إنَّ»، سواء كان المنفصل تأكيداً أو فصلاً أو مبتدأ.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير نَصْرك على الكفار، فإنَّ له عاقبة حميدة ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ قلَّةَ صبرٍ منك على أذاهم وضَجَراً من تأخُّر نصرك ﴿مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ قيل: إنَّ «أو» لأحد الشيئين في جميع مواقعها، ويَعرِض لها معانٍ أُخَر كالشَّكِّ والإباحة وغيرهما، فيكون أصل المعنى هنا: ولا تُطِع منهم أحدَ النوعين، ولمَّا كان: أحد، الأغلبُ عليه في غير الإثبات العمومُ، واحتمالُ غيره احتمالٌ مرجوح، صار المعنى على النهي عن إطاعة هذا وهذا، ولم يُؤْتَ بالواو؛ لاحتمال الكلام عليه النهيَ عن المجموعِ، ويحصل امتثاله بالانتهاء عن واحدٍ دون الآخَر، فلا يَرِدُ أن لا تطع[1] أحدَ النوعين، يحصل الامتثال به بتَرْك إطاعة واحدٍ مع إطاعة الآخَر، إذ يقال لمن فَعَلَ ذلك: إنَّه لم يُطِعْ أحدهما، ومن هنا قيل: إنَّ «أو» في الإثبات تفيد أحدَ الأمرين، وفي النفي تفيد نفيَ كلا الأمرين جميعاً، ولعلَّ ما ذكر في معنى كلام ابنِ الحاجب حيث قال: إن وضع «أو» لإثبات الحكم لأحد الأمرين إلا أنَّه إن حصلت قرينة يُفهَم معها أنَّ أحدَ الأمرين غيرُ حاجر عن الآخَر، مثل قولك: جَالِسِ الحسنَ أو ابنَ سيرين، سُمِّي إباحة، وإن حُجِرَ فهو لأحد الأمرين.

واستشكل بعضهم وقوعَها في النهي كـ: «لا تطع منهم آثماً أو كفوراً»، إذ لو انتهى عن أحدِهما لم يمتثل، ومن ثمَّ حَمَلها بعضهم - يعني أبا عبيدة - على أنَّها بمعنى الواو[2]، والأولى أن تبقى على بابها، وإنَّما جاء التعميم فيها مِن وراء ذلك، وهو النهي الذي فيه معنى النفي؛ لأنَّ المعنى قبل وجود النهي: تطيع آثماً أو كفوراً، أي: واحداً منهما، فإذا جاء النهي ورد على ما كان ثابتاً في المعنى، فيصير المعنى: ولا تطع واحداً منهما، فيجيء التعميمُ فيهما من جهة النهي، وهي

(١) في (م): تطلع.
(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٨٠.

على بابها فيما ذكر؛ لأنَّه لا يَحصُل الانتهاء عن أحدِهما حتى ينتهي عنهما، بخلاف الإثبات فإنَّه قد يفعلُ أحدهما دون الآخر. انتهى. وعليه ما قيل: إنَّ إفادة العموم في النفي والنهي الذي في معناه لِمَا أنَّ نقيضَ الإيجاب الجزئي السَّلبُ الكليُّ، وقريب مِن ذلك قول الزجَّاج[1]: إنَّ «أو» هاهنا أوكد من الواو؛ لأنَّك إذا قلتَ: لا تطع زيداً وعَمْراً، فأطاع أحدَهما، كان غيرَ عاصٍ، فإذا أبدلتها بـ «أو» فقد دَلَلت على أنَّ كلَّ واحد منهما أهلٌ لأَن يُعصى، ويعلم منه النهي عن إطاعتهما معاً كما لا يخفى، وأفاد جار الله[2] أنَّ «أو» باقية على حقيقتها، وأنَّ النهي عن إطاعتهما جميعاً إنَّما جاء من دلالة النَّصِّ، وهي المسمَّى مفهوم الموافقة بقسمَيْه الأولى والمساوي، فتأمَّل.

والمراد بالآثم والكفور جنسهما، وتعليقُ النهي بذلك مُشعِر بعليَّة الوصفَيْن له، فلا بُدَّ أن يكون النهي عن الإطاعة في الإثم والكفر لا فيما ليس بإثم ولا كفر، والمراد: ولا تُطِع مُرتكبَ الإثم الداعي لك إليه، أو مرتكبَ الكفر الداعي إليه، أي: لا تتبع أحداً مِن الآثِم إذا دعاك إلى الإثم، ومن الكفور إذا دعاك إلى الكفر، فإنَّه إذا قيل: لا تُطِع الظالم، فُهِمَ منه: لا تتبعه في الظلم إذا دعاكَ إليه، ومَنْعُ هذا الفهم مكابَرةٌ، فلا يتمُّ الاستدلال بالآية على عدم جواز الاقتداء بالفاسق إذا صلَّى إماماً، ثم إنَّ التقسيمَ باعتبار ما يَدْعُوانِ إليه مِن الكفر والإثم المقابل له، لا باعتبار الذوات حتى يكون بعضهم آثماً وبعضهم كفوراً، فيقال: كيف ذلك وكلُّهم كَفَرة؟!

والمبالغة في كفور قيل: لموافقة الواقع، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠] واعتبار رجوعها إلى النهي كاعتبار رجوعها إلى النفي على ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] كما ترى.

وقيل: الآثِم: المنافق، والكفور: المُشرِك المجاهر. وقيل: الآثم: عتبة بنُ ربيعة، والكفور: الوليد بنُ المغيرة؛ لأنَّ عتبة كان ركاباً للمآثم متعاطياً لأنواع

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٢٦٣.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٠٠.

الفسوق، وكان الوليد غالياً في الكفر شديدَ الشكيمة في العُتُوِّ. وعن مقاتل: أنَّهما قالا له ﷺ: ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيكَ بالمال والتزويج، فنزلت. وقيل: الكفور: أبو جهل، والآية نزلت فيه. والأَولى ما تقدَّم، وفي النهي مع العصمة إرشاد لغير المعصوم إلى التضرُّع إلى الله تعالى والرغبة إليه سبحانه في الحفظ عن الوقوع فيما لا ينبغي.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٢٥﴾ ودَاوِمْ على ذِكْره سبحانه في جميع الأوقات، أو دُمْ على صلاة الفجر والظهر والعصر، فإنَّ الأصيل قد يُطلَق على ما بعدَ الزوال إلى المغرب فينتظمهما.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ أي: بعضه ﴿فَاسْجُدْ﴾ فَصَلِّ ﴿لَهُ﴾ عزَّ وجلَّ، على أن السجودَ مجازٌ عن الصلاة بذِكْر الجزءِ وإرادةِ الكُلِّ، وحُمِلَ ذلك على صلاة المغرب والعشاء، وتقديمُ الظَّرْف للاعتناء والاهتمام؛ لما في صلاة الليلِ مِن مزيد كُلْفة وخلوص.

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝٢٦﴾ وتهجَّد له تعالى قِطعاً من الليل طويلاً، فهو أمر بالتهجُّد على ما اختاره بعضهم، وتنوين «ليلاً» للتبعيض، وأصلُ التسبيحِ التنزيهُ، ويُطلَق على مُطلَق العبادة القوليَّة والفعليَّة، وعن ابن زيد وغيره أنَّ ذلك كان فَرْضاً ونُسِخَ، فلا فرض اليوم إلا الخَمْس. وقال قوم: هو مُحكَم في شأنه عليه الصلاة والسلام. وقال آخرون: هو كذلك مطلقاً على وجه الندب. وفي تأخير الظرف قيل: دلالةٌ على أنَّه ليس بفَرْض كالذي قبله، وكذا في التعبير عنه بالتسبيح، وفيه نظر!.

وقال الطيبيُّ: الأقرب مِن حيث النظم أنَّه تعالى لمَّا نهى حبيبَه ﷺ عن إطاعة الآثِم والكفورِ وحثَّه على الصبر على أذاهم وإفراطهم في العداوة، وأراد سبحانه أن يُرشِدَه إلى متاركتهم، عقَّب ذلك بالأمر باستغراقِ أوقاته بالعبادة ليلاً ونهاراً بالصلوات كلِّها مِن غير اختصاص، وبالتسبيح بما يُطيق على منوال قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨] انتهى. وهو حَسَن.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفرة ﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ وينهمكونَ في لذَّاتها الفانية ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ﴾ أي: أمامهم ﴿يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧﴾ هو يوم القيامة، وكونه أمامهم ظاهرٌ، أو: يذرون وراءَ ظهورِهم يوماً ثقيلاً لا يَعْبَؤون به، فالظرف قيل: على الأول حالٌ من «يوماً»، وعلى هذا ظرف «يذرون»، ولو جُعلَ على وتيرة واحدة في التعلُّق صحَّ أيضاً.

ووصفُ اليوم بالثقيل؛ لتشبيه شدَّته وهَوْله بثِقَل شيء فادح(١) باهظ لحاملِه بطريق الاستعارة. والجملة كالتعليل لما أمرَ به ونهى عنه، كأنَّه قيل: لا تُطِعْهم واشتغل بالأهمِّ من العبادة؛ لأنَّ هؤلاء تركوا الآخرةَ للدنيا، فاترُك أنتَ الدنيا وأهلها للآخرة، وقيل: إنَّ هذا يفيد ترهيبَ محبِّ العاجل وترغيبَ محبِّ الآجل، والأوَّل علَّة للنهي عن إطاعة الآثِم والكفور، والثاني علَّة للأمر بالعبادة.

﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾ لا غيرنا ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ أي: أَحْكَمْنا رَبْط مفاصلهم بالأعصاب والعُرُوق. والأسر في الأصل: الشَّدُّ والرَّبْط، وأطلق على ما يُشَدُّ به ويُربَط كما هنا، وإرادة الأعصاب والعُرُوق لشَبَهها بالحبال المربوط بها، ووجه الشَّبَه ظاهر، ومِن هنا قد يقول العارف: مَن كان أَسْرُه مِن ذاته وسجنه دنياه في حياته، فَلْيَبكِ(٢) مدَّة عُمُره وليتأسَّف على وجوده بأسره. والمراد شدَّة الخَلْق وكونه مُوثقاً حَسَناً، ومنه: فرس مأسور الخَلْق: إذا كان موثَّقه حَسَنه.

وعن مجاهد: الأسْرُ: الشَّرْج. وفسّر بمجرى الفضلة، وشدُّ ذلك جَعْلُه بحيث إذا خرج الأذى انقبضَ، ولا يخفى أنَّ هذا داخل في شدَّة الخَلْق، وكونه موثقاً حَسَناً.

﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ أي: أهلكناهم وبدَّلنا أمثالهم في شدَّة الخَلْق ﴿تَبۡدِيلًا ٢٨﴾ بديعاً لا ريبَ فيه، يعني البعثَ والنشأة الأخرى، فالتبديل في الصفات؛ لأنَّ المعادَ هو المبتدأ، ولكون الأمر محقَّقاً كائناً جِيْءَ بـ «إذا»، وذِكْر المشيئة لإبهام وقته، ومثلُه شائع، كما يقول العظيمُ لمن يسأله الإنعام: إذا شئت أُحسنُ إليكَ.

---

(١) في (م): قادح.

(٢) في الأصل و(م): فليشك. والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ٢٩٤، والكلام منه.

ويجوز أن يكون المعنى: وإذا شئنا أهلكناهم وبدَّلنا غيرهم ممَّن يُطيع، فالتبديل في الذوات، و«إذا» لتحقُّق قدرتُه تعالى عليه وتحقُّق ما يقتضيه مِن كفرهم المقتضي لاستئصالهم، فجعل ذلك المقدور المهدّد به كالمحقَّق، وعبّر عنه بما يُعبَّر به عنه. ولعلَّه الذي أراده الزمخشريُّ[1] بما نُقلَ عنه مِن قوله: إنَّما جاز ذلك؛ لأنَّه وعيدٌ جِيْءَ به على سبيل المبالغة، كأنَّ له وقتاً معيّناً، ولا يعترض عليه بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] لأنَّ النكات لا يلزم اطِّرادها، فافهم، والوجه الأوَّل أوفقُ بسياق النظم الجليل.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ إشارة إلى السورة أو الآيات القرآنية ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: فمَن شاء أن يتَّخذ إليه تعالى سبيلاً ـ أي: وسيلةً تُوصِله إلى ثوابِه ـ اتّخذَه، أي: تقرَّب إليه بالطاعة، فهي تُوْصِلُ إيصالَ[2] السبيلِ للمقاصد.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أي: شيئاً، أو اتِّخاذ السبيل ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا وقت مشيئةِ الله تعالى لمشيئتكم. وقال الزمخشريُّ: أي: وما تشاؤون الطاعةَ إلا أن يشاء الله تعالى قَسْركم عليها[3]. وهو تحريفٌ للآية بلا دليل، ويلزمه على ما في «الانتصاف»[4] أنَّ مشيئةَ العبدِ لا توجد إلا إذا انتفت، وهو عن مذهب الاعتزال بمعزلٍ، وأبعد مَنْزِل. والظاهر ما قرَّرنا؛ لأنَّ المفعول المحذوف هو المذكور أوَّلاً كما تقول: لو شئت لقتلتُ زيداً، أي: لو شئتَ القتلَ لا لو شئت زيداً، ولا يمكن للمعتزلة أن ينازعوا أهلَّ الحقِّ في ذلك؛ لأنَّ المشيئةَ ليست من الأفعال الاختياريَّة، وإلا لتَسَلْسلَت، بل الفعل المقرون بها منها، فدعوى استقلالِ العبد مكابرة، وكذلك دعوى الجَبْر المُطلَق مهاترة، والأمر بين الأمرين لإثبات المشيئتين، وحاصله على ما حقَّقه الكورانيُّ: أنَّ العبدَ مختارٌ في أفعاله، وغيرُ مختار في اختياره، والثواب والعقاب لحُسْنِ استعداد النفس الأمري وسوئه، فكلٌّ يعمل على شاكلته، وسبحان مَن أعطى كلَّ شيء خَلْقه ثم هدى.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٠١، والكلام من حاشية الشهاب ٨/ ٢٩٤.
(٢) في (م): أيضاً.
(٣) الكشاف ٤/ ٢٠١.
(٤) ٤/ ٢٠١.

وفي «التفسير الكبير»(١): هذه الآية مِن الآيات التي تلاطمت فيها أمواج القَدَر والجَبْر، فالقدريُّ يتمسَّك بالجملة الأولى، ويقول: إنَّ مفادها كون مشيئة العبدِ مستلزمة للفعل، وهو مذهبي، والجبريُّ يتمسَّك بضمِّ الجملة الثانية، ويقول: إنَّ مفادها أنَّ مشيئةَ الله تعالى مستلزمةٌ لمشيئة العبد، فيتحصَّل من الجملتين أنَّ مشيئةَ الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد، وأنَّ مشيئةَ العبد مستلزمةٌ لفعل العبد، كما تُؤذِن به الشرطيَّة، فإذن مشيئةُ الله تعالى مستلزمةٌ لفعل العبد؛ لأنَّ مُستلزَمَ المستلزمِ مُستلزم، وذلك هو الجبر وهو صريح مذهبي.

وتعقّب بأنَّ هذا ليس بالجبر المحضِ المسلوب معه الاختيار بالكليَّة، بل يرجع أيضاً إلى أمر بين أمرين.

وقدَّر بعضُ الأجلَّة مفعولَ «يشاء» الاتخاذ والتحصيل ردًّا للكلام على الصدر، فقال: إنَّ قوله سبحانه: «وما تشاؤون» إلخ تحقيقٌ للحقِّ ببيانِ أنَّ مجرَّدَ مشيئتهم غيرُ كافية في اتخاذ السبيل، كما هو المفهوم مِن ظاهر الشرطيَّة، أي: وما تشاؤون اتِّخاذ السبيل ولا تقدرونَ على تحصيله في وقت مِن الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى اتِّخاذَه وتحصيله لكم، إذ لا دخلَ لمشيئة العبد إلا في الكسب، وإنَّما التأثير والخَلْق لمشيئة الله عزَّ وجلَّ.

وفيه نوعُ مخالفةٍ للظاهر كما لا يخفى، نعم قيل: إنَّ ظاهر الشرطيَّة أنَّ مشيئةَ العبد مطلقاً مستلزمةٌ للفعل، فيلزم أنَّه متى شاء فعلاً فَعَلَه مع أنَّ الواقعَ خلافه فلا بُدَّ مما قاله هذا البعض، وجعل الجملة الثانية تحقيقاً للحقِّ؟ وأجيب بأنَّها للتحقيق على وجه آخَر، وذلك أنَّ الأولى أفهمت الاستلزام، والثانية بيَّنت أنَّ هذه المشيئةَ المستلزمة لا تتحقَّق إلا وقت مشيئةِ الله تعالى إيَّاها، فكأنَّه قيل: وما تشاؤون مشيئةً تستلزم الفعل إلا وقت أن يشاء اللهُ تعالى مشيئتكم تلك، فتأمَّل.

وأنتَ تَعلمُ أنَّ هذه المسألة من محار الأفهام، ومزالُّ أقدام أقوام بعد أقوام، وأقوى شُبَه الجبريَّة أنَّه قد تقرَّر أنَّ الشيءَ ما لم يَجِبْ لم يوجد، فإن وجب صدور

(١) ٣٠/ ٢٦٢.

الفعل فلا اختيارَ، وإلا فلا صدورَ، وبعبارة أخرى أنَّ جميع ما يتوقَّف عليه الفعلُ إذا تحقَّق، فإما أن يَلزم الفعل فيلزم الاضطرار، أو لا، فيلزم جواز تخلُّف المعلول عن علَّته التامَّة، بل مع الصدور الترجُّح بلا مرجِّح، فقد قيل: إنَّها نحو شبهة ابنِ كمونة في التوحيد يصعب التفصِّي عنها، وللفقير العاجز ـ جَبَرَ الله تعالى فَقْره ويسَّر أَمْرَه ـ عزمٌ على تأليف رسالة إن شاء الله تعالى في ذلك سالكاً فيها بتوفيقه سبحانه أحسنَ المسالك، وإن كان الكورانيُّ قدِّس سرُّه لم يَدَعْ فيها مقالاً، وأوشكَ أن يَدَعَ كلَّ مَن جاء بعدُ فيها بشيءٍ عليه عيالاً، والله تعالى الموفِّق.

وقرأ العربيَّان وابنُ كثير: «وما يشاؤون» بياء الغيبة[1]، وقرأ ابنُ مسعود: «إلا ما يشاء الله»[2]، و«ما» فيه مصدريَّة كـ «أنْ» في قراءة الجماعة، وقد أشرنا إلى أنَّ المصدرَ في محلِّ نصب على الظرفيَّة بتقدير المضاف السادِّ هو مسدَّه، وهو ما اختاره غيرُ واحد، وتعقَّبه أبو حيَّان بأنَّهم نصُّوا على أنَّه لا يقوم مقامَ الظَّرْف إلا المصدر المصرَّح، فلا يجوز: أَجِيئُكَ أن يصيحَ الديكُ، أو: ما يصيح الديكُ، وإنَّما يجوز: أجيئكَ صياحَ الديك[3]. وكأنَّه لهذا قيل: إنَّ «أنْ يشاء» بتقدير حرف الجرِّ، والاستثناء من أعمِّ الأسباب، أي: وما تشاؤون بسببٍ من الأسباب إلا بأن يشاءَ اللهُ تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ مبالغاً في العِلْم، فيَعلم مشيئاتِ العباد المتعلِّقة بالأفعال التي سألوها بألسنة استعداداتهم ﴿حَكِيمًا ۝٣٠﴾ مبالغاً في الحكمة، فيُفيض على كلِّ ما هو الأوفق باستعدادِه، وما هو عليه في نفس الأمر من المشيئة، أو أنَّه تعالى مبالغ في العِلْم والحكمة فيعلمُ ما يستأهله كلُّ أحدٍ من الطاعة وخلافها، فلا يشاء لهم إلا ما يستدعيه عِلْمه سبحانه وتقتضيه حكمته عزَّ وجلَّ.

وقيل: «عليماً» أي: يعلم ما يتعلَّق به مشيئة العباد مِن الأعمال، «حكيماً» لا يشاء إلا على وفق حكمته، وهو أن يشاء العبد فيشاء الرَّبُّ سبحانه وتعالى،

(١) التيسير ص٢١٨، والنشر ٢/٣٩٦، والبحر المحيط ٨/٤٠١.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٦، والبحر المحيط ٨/٤٠١.
(٣) البحر ٨/٤٠٢.

لا العكس؛ ليتأتَّى التكليفُ مِن غير انفرادٍ لأحد المشيئتين عن الأخرى. وفيه بحث.

وقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ إلخ، بيانٌ لما تضمَّنته الجملة قَبْلُ، أي: يُدخِل سبحانه في رحمته مَن يشاء أن يُدخِله فيها، وهو الذي عَلِمَ فيه الخيرَ حيث يوفِّقه لما يؤدي إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لأنفسهم، وهم الذين عَلِمَ فيهم الشَّرَّ ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ متناهياً في الإيلام، ونصب «الظالمين» بإضمار فِعْلٍ يفسِّره «أعدَّ» إلخ، وقُدِّر: يُعذِّب، وقد يُقدّر: أَوْعَدَ، أو: كافأ، أو شبه ذلك، ولم يُقدّر «أعدّ» لأنَّه لا يتعدَّى [بنفسه بل][(١)] باللام.

وقرأ ابن الزبير وأبان بن عثمان وابن أبي عبلة: «والظالمون»[(٢)] على الابتداء، وقراءة الجمهور أحسن ـ وإن أوجبت تقديراً ـ للطباق فيها، وذهابه في هذه؛ إذ الجملة عليها اسميَّة، والأولى فعليَّة، ولا يقال: زيادة التأكيد في طرف الوعيد مطلوبةٌ؛ لأنَّا نقول: الأمر بالعكس لو حقِّق، لسبق الرحمة الغضب.

وقرأ عبد الله: «وللظالمين» بلام الجرّ[(٣)]، فقيل: متعلّق بما بعدُ على سبيل التوكيد، وقيل: هو بتقدير: أعدَّ للظالمينَ أعدَّ لهم، والجمهور على الأوَّل.

ثمَّ إنَّ هذه السورة وإن تضمَّنت مِن سَعَة رحمة الله عزَّ وجلَّ ما تضمَّنت إلا أنَّها أشارت مِن عظيم جلاله سبحانه وتعالى إلى ما أشارت، أخرج أحمد والترمذي ـ وحسَّنه ـ وابنُ ماجه والضياء في «المختارة»، والحاكم وصححه، وغيرهم: عن أبي ذَرٍّ قال: قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: «إني أرى ما لا تَرونَ وأسمع ما لا تسمعونَ، أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابع إلا وملك واضعٌ جبهته ساجداً تعالى، واللهِ لو

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٢٩٤، والكلام منه.
(٢) القراءات الشاذة ص١٦٦، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٢.
(٣) القراءات الشاذة ص١٦٦ (وتحرف في مطبوعه إلى: والظالمين)، والبحر المحيط ٤/ ٤٠٢.

تعلمونَ ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذَّذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تَجْأَرون إلى الله عزَّ وجلَّ»[١]. وهذا كالظاهر فيما قلنا، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الأبرار والمقرَّبين الأخيار فيرزقنا جنَّة وحريراً، ويجعل سعينا لديه مشكوراً بحرمة النبيِّ ﷺ وأهل بيته المُطَهَّرين مِن الرجس تطهيراً.

---

(١) أحمد (٢١٥١٦)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠).